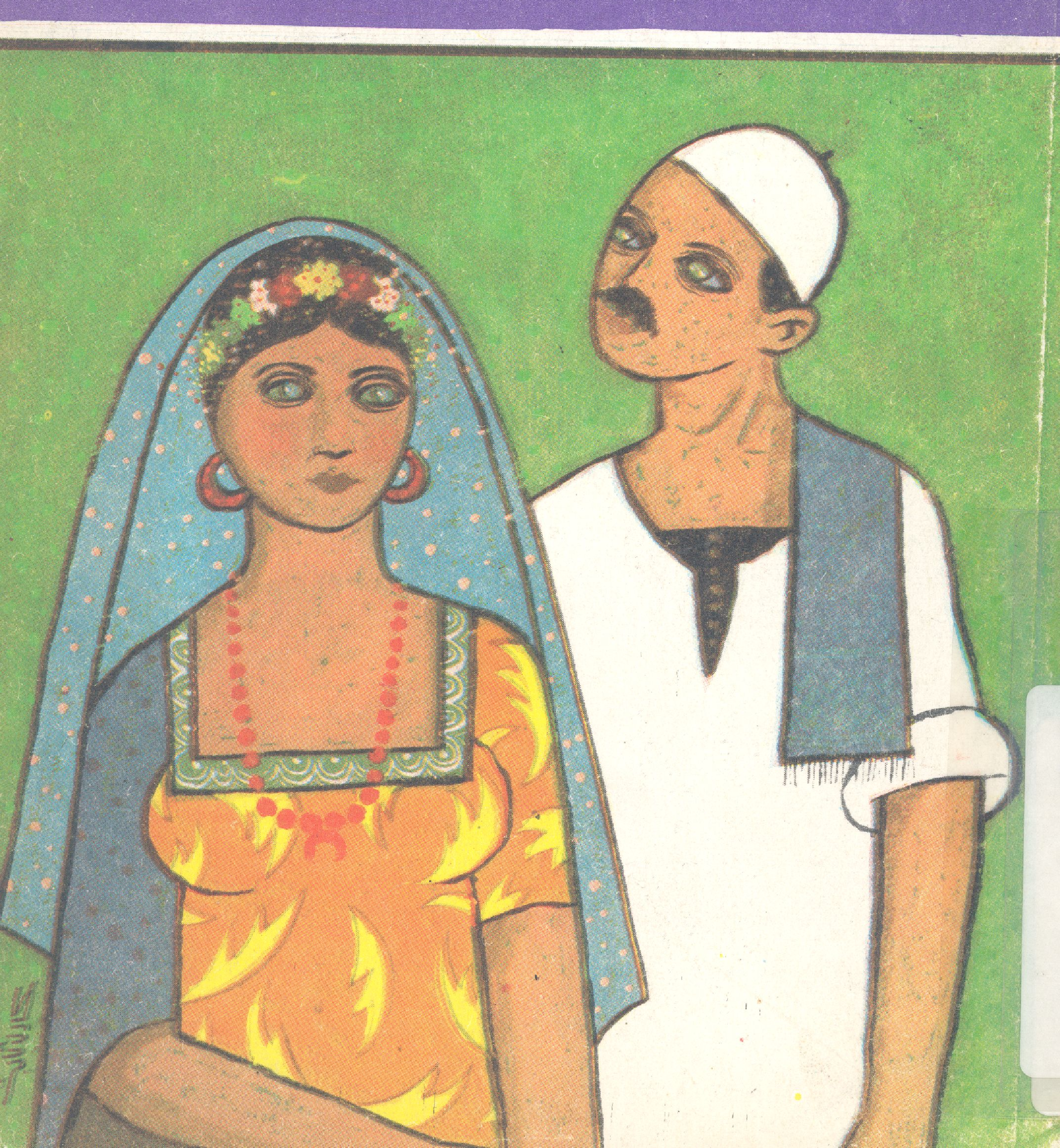
روايات الهلال

يوسف أبورية

عطش الصبار



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة

دار الهلال

العدد ٤٨٤ ابريل ١٩٨٩

رمضان ١٤٠٩ هـ

No· 484 Ap.1989

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود قاسم

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد العادى فئة ١٠٠ قرش : -

سوريا ٥٠ ليره لبنان ٧٠٠ ليره الاردن ٦٠٠ فلس الكويت ٥٠٠ فلس العراق ٤٥٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات البحرين ١٢٠٠ فلس الدوحة ٨ ريالات دبى ٨ دراهم ابوظبى ٨ دراهم مسقط ٧٥٠ بيسه تونس ١٦٥٠ مليما المغرب ١٥ درهما غزة والضفة ٧٥ سنتا اليمن الشمالية ٨ ريالات عدن ١٥٠ سنتا ايطاليا ٣٠٠٠ ليره

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة ٣٦٢٥ سبعة خطوط

اهداءات ١٩٩٩

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنان :
عـــادل ثـابـــت



تأليف

يوسف أبورية

دار الهلال

القسم الاول

الآن واروها التراب ، وكان آخر ما سمعته من كلام الدنيا ما قاله لها الشيخ الذى خرج من ألفوهة ، واقعى ـ جامعا قفطانه ـ امام العين ، يلقنها بما قد يعينها على الدنيا المجهولة المقبلة عليها بتوجس ، قال لها الشيخ ، وانصت المشيعون لما قال بقلوب واجفة : ياأمة الله قولى لا اله الا الله ، ان جاءك الحنان المنان فأجيبيه بأحسن لسان ، ان سألكَ عن دينكَ فقولى دينى الاسلام ؛ وأن سألكَ عن نبيكَ فقولى محمد عليه الصلاة والسلام .. ياأمة الله اعلمى ان الموت حق ، والصراط والميزان حق .

وقامت النسوة ليجددن بكاءهن ، ووقف الرجال المحيطون بالمصطبة حين وقف الشيخ ينفض ذيل قفطانه المفتوح منهيا كلامه بـ « لا اله الا الله » حبل النجاة من الجب الدامس الى بهرة النور الحى .

وهى فى ظلمتها حاولت القيام مع القائمين غير ان الأرض التى ارتفعت والسقف الذى هبط منعاها ، فاستسلمت لنومتها بين الكفن المحلول .

وتشعبت الطرق بالمشيعين .

بنت الحاج الكبيرة سارت مع اخواتها ؛ لما استقبلت الضوء المشع على اسفلت الطريق قالت للأخوات : المسكينة ، حضرت غسلها كأخت لها ، وكان وجهها ورب العزة كالقمر المضىء بين يدى المغسلة .. ولكن ماذا اقول ؟ حين رفعنا عنها الثوب لم نعثر الا على واحد فقط هناك ، حتى الآخر .. حتى الاخر كان ضامرا وكأنه لعجوز أهلكها الدهر .

وسألتها أختها : عن أىّ آخر تتحدثين ؟

قالت : الثدى الأيسر الذى وجدنا مكانه فارغا .

وضربت الأخوات صدورهن : آه .. لم تكن نعلم أن ابنة خالتنا بثدى وحيد وطالبنها بكتمان السر حتى لا تلتقطه الأذن الغريبة .

- ١ -

فى ضحى هذا اليوم ، وصلت زبيدة أم ابراهيم بصحبة زوجها، طرقت باليد الحديد التى تمسك نصف الليمونة ، فارتج للطرقة الباب الخشبى القديم ، تضربه الشمس من الصبح حتى آخر النهار ، ذلك أن ساحة الطاحونة المواجهة لا تسمح للظل أن يمتد على جدران الدار .

فتحت سعدية شراعة الباب ، ونظرت بنصف وجهها ، الذى تكدست على سحنته القبيحة غيوم سوداء ، تنذر بمطر وعواصف ، وتجاهلت زبيدة هذه النظرة ، ولوت عنقها ، لتشمخ بأنفها ، وتقول : أفتحى .

وتفادت النظر الى زوجها المشغول بمصافحة الحاج على الجالس على كرسى مرقع أمام ميزان الحب ، والذى ظهر جانب من وجهه بين الجلابيب السود للنسوة المنتظرات . ظهرت سعدية وراء ضلفة الباب تلملم جلبابها الأحمر القصير ، كان الماء يقطر من عند الكوع ، فجففته بخرقة معلقة على سلك الغسيل الممتد عبر الصالة الطويلة ، وتقدمت زبيدة فى دار أبيها ، بجرأة متحدية ، وفتحت باب الحجرة الأولى ، وادخلت زوجها الذى حيا سعدية بانكسار غير معهود ، ودخل الحجرة مطاطىء الرأس ، بعد أن ترك الحقائب فى المدخل .

جلس على الكنبة المواجهة للباب ، يجفف عرقه ، ويروح على وجهه بمنديل أبيض ، وجلست زبيدة الى جواره ، تحت قالب الجير الملون ، المعلق على الحائط ، ويبدى ولدا وبنتا يهرعان فوق حشائش خضراء ، فى مكان مجهول ، صامت ، لا يملأ فراغه غير شجرة ، تطل منها رأس وحش ، غير محدد الملامح ، فلا تدرى ان كان هذا الوحش ، ذئبا ، أم ضبعا ، أم لبؤة ؟

البيت :

كان هذا البيت الصغير جزءا من الدار الكبيرة للعائلة ، وهذا الحائط الذى لم يفلح الجير فى اخفائه اقيم ليحجز الباب الموصل

لبقية الدار ، التى قسم ثلثاها المتبقيان بين أثنين من الأعمام ؛ بعد رحيل العم الكبير ، بزوجتيه وابنائه منهما آلى الحى الآخر ، بجوار سكة الحديد ، بعد أن اختلف مع أخويه ، فترك لهما نصـــيبه فى الدار ، وأن لم يترك نصيبه فى الطاحونة الشرك .

وللبيت ثلاثة أبواب لثلاث حجرات مفتوحة على صالة بعرض متر ، يسدها حائط الجيران ، وفى نهايته حوش لا ســقف له ، اقيم فى ركن منه فرن كبير للخبيز ، وكانون ، وحجزت منه مساحة صغيرة ، انشىء عليها مطبخ يتدلى على بابه سلك للمبة كهربائيةسوده براز الذباب الذى يتكدس فوقه بعد كل مغرب .

وفى هذه المساحة يمرح البط والدجاج ، وفى جوانبها حفـرت الأرانب مخابئها ، وسحبت الى حوافها أعواد الحشائش الخضراء التى تلقى أليها كل صباح .

ذات يوم بعيد ، عاد العم الأكبر محمد من قرية نائية قضى فيها أسبوعا كاملا بين أقارب يحملون لقب العائلة ، اكتشـــفهم العم صدفة ، وعزموا عليه بالزيارة ، وهناك أشاروا عليه بشراء الثلاثين فدآنا التى يعرضها أحد كبار ملاك الناحية ، وصـحبوه الى هذه الأرض ، وحددوا له المساحة ، فخضع العم للاغـراء ، وأمل نفسه أن يكون أخوه ابراهيم ـ الذى يقضى دوره فى ادارة الطاحونة ـ قد وفر مبلغا معقولا من الايراد ، على أن يجمع باقى المبلغ ، من ثمن حلى نسوة العائلة ، فيشترى هذه المساحة الكبيرة له ولأخويه جميعا .

ولما عاد الى البلد ، ذهب الى أخيه الجالس فى حجرة الميزان ، وبعد الترحيب ، وحمد الله على السلامة ، وبعض الحكايات عن هؤلاء الأقارب الجدد ، والحديث عن الخير العميم الذى يتمرغون فيه ، والكرم الذى يفوق الحد ، دخل فى الموضوع مباشرة ، فصاح ابراهيم فى وجهه : أرض .. أرض ايه ؟

ونفض حجر جلبابه من غبار الدقيق العالق به ، وأراد أن يقوم ، وتمكن محمد من ذراع أخيه الصغير الذى عهده متعجرفا ، لا يقيم لكلامه وزنا : أسمع بس .. انا أشرف عليها . آخذ المراتين والأولاد ، وأبنى لى بيتا هناك على راس الأرض ، وزرقتها للكل . وقال الأخ ، وهو يعطى له ظهره : معك فلوس تشترى الأرض .

فرد عليه محمد وهو يقوم ليلاحقه : أيراد الطاحونة .

فاستدار اليه ، وهو ينفض كفا بكف ، ويمط الشفة السفلى

وكان على محمد أن يفهم أن أخاه يعترف بأنه لم يوفر شيئا من الايراد ، ولذعه الآخر برده الجاف : تريدني أن أطعم هذا الجيش (وأشار الى دار العائلة) على رأسهم زوجتان لك !، كل واحدة منهما تجر نصف دستة من العيال ، واوفر من الايراد .

وبصق على الأرض قائلا : صحيح اللى اختشوا ماتوا .

وأمسك محمد بخناقه . وكال له صفعة قوية ، وحجز بينهما الزبائن ، وتقدم الأب العجوز ، بعصاه ، خارجا من باب الدار الكبيرة ، تدخل بينهما بهيكله الناشف ، لائما محمد وموبخا اياه ، صائحا بفمه الأهتم : اخزى على دمك . ورفع محمد أشياءه من دار العائلة ، ورفع أولاده على الحمير ، وسحب بقرة عجوز ، هي نصيبه من ماشية العائلة ، ورحل الى الارض الفضاء التى اشتراها فى الحى المجاور للسكة الحديد ، عقب خمس سنوات قضاها فى ادارة الطاحونة ، وترك مسكنه ، وهو هذا الجزء من الدار ، الذى دخلت زبيدة احدى حجراته ، حيث أسند زوجها ظهره على الأثر الباقى للحائط الذى دق عليه قالب الجير ، حيث يجرى على سطحه الصغيران خوفا من الوحش الرابض بين اغصان الشجرة الوحيدة .

البنت الوحيدة :

سحبت زبيدة أم ابراهيم الحقيبة الصغيرة ، وبدأت تخرج من بطنها علب الدواء ، وتصفها على أرضية النافذة ، ومكث زوجها فاردا ذراعيه على مساند الكنب ، بعد أن طوى المنديل ، وركنه على فخذه ، وظل مثبتا نظره عبر باب الحجرة ، لا ينطق بحرف ، وهى بعد الانتهاء من تصفيف العلب ، فكت الاشارب المعقود على شعرها ، ونفخت هواء حارا ، وتعلقت نظراتها بصورتها حين كانت شابة تدرس فى مدرسة المعلمات بالمديرية ، ورأت وجها ابيض بلون اللبن الصابح ، ينسدل عليه شعر قصير مموج ، يظهر تحت أطرافه قرط صغير به فصان لامعان ، وشفتاها المدهونتان بأحمر شفاه قاتم ، كانتا مضمومتين لتبديا فما محندقا عليه مسحة وقار ، مرسومة بحساب دقيق ، والعينان كانتا حالمتين تنظران الى لاشيء ، ويمتد كتفاها الى خارج الاطار ، يجمعهما ثوب خفيف تزركشه قطع من الدانتلا البيضاء ، تحيط الصدر القوى ، الذى يبرز

خلف نقوش الدانتلا ، نفس الثوب الذى ارتدته ، يوم دخلت على كمال اول مرة ، حين قدم مع أمه واخيه الأكبر ، يطلبان يدها من أبيها ، وكانت قد رأت كمال مرات عديدة ، على رصيف محطة « الزقازيق » ، وانتقتها عيناه من بين رفيقاتها ، وخفق له قلبها ، وظل يلاحقها ، وهو فى مشواره اليومى الى مدرسته ، وبطريقة ما ، تواعدا على اللقاء ، وعرفت انه يعمل معلما باحدى مدارس المديرية ، وهو فى سبيله الى الانتقال الى مدرسة سموحة بالاسكندرية ، وطالبته بالتقدم الى أبيها ، وأعطته بيانات كافية عن حالها ، وعرفته ان لأبيها نصيبا فى طاحونة ، وفدانين من الأرض الزراعية ، ودارين واحدة منهما مؤجرة ، وحلمت باليوم الذى تنتقل فيه لتعيش فى المدينة الواسعة ، وتصبح زوجة لافندى حقيقى ، ينتشلها من عنف اخيها الوحيد ، ولتظل أمها مشبوبة بها ، متعلقة بحبها ، يدفعها الشوق لزيارتها فى مدينتها البعيدة .

وانتقلت مع زوجها الى الاسكندرية ، وفى الاجازة الكبيرة ، تعود برفقته ، فتجد أمها — كما اعتادت كل عام — دهنت جدران الدار بالجير ، وغسلت بياضات الكنب ، وأخرجت من دولابها الملاءات المخزونة .

كانت الأم تعيش عيدها الحقيقى حين ترى ابنتها تطرق عليها بابها المهجور ، خاصة بعد انتقال زوجها « ابراهيم » فجأة الى رحمة ربه الواسعة ، وغادرها ابنها الوحيد الى القاهرة ، بعد أن قضى معها ثلاث سنوات ، باع فيها نصيبه من الأرض الملك ، ونصيبه من الدار ، وعدة قراريط من ميراثه فى الطاحونة ، ولم يقترب من أرض الاصلاح الزراعى ، وعاش فى العاصمة مع زوجة عزباء ، اختارها له صاحب التاكسى الذى يعمل عليه .

كانت حين تعود زبيدة أم ابراهيم تجلس على سريرها النظيف تحت مصباح الحجرة بالضبط ، فتشع على نوره نورا جديدا ، ويأتى العم محمد وزوجتاه وأولاده ، من حيه البعيد ، ويأتى جدها لأمها — قبل رحيله — وخالتها وخالها من نفس الحى ، ويأتى العم على المقيم فى الجزء المتبقى من دار العائلة ، وتزدحم الحجرة بالزائرين والزائرات ، وتتحرك أمها من حجرة الى حجرة ، تنقل صوانى الشاى والقرفة الى الرجال المحيطين بزوجها ، القاعد ببيجامته البيضاء النظيفة بحجرة الكنب التى يفوح منها رائحة

الجير الجديد ، وتعاونها النسوة والفتيات الصغيرات القاعدات حول الضيفة العزيزة .

وتبدأ تحكى بكبرياء عن الاسكندرية ، وهوائها الجميل ، وبحرها الصاخب الذى لا يكف عن الهدير ، وذلك بلكنة معوجة ، تحاول فيها ان تثبت خشونة لهجة أهلها بالقياس بلهجة أهل المدن ، والفتيات الصغيرات حولها مبهورات ، لا يبعدن عنها نظراتهن النهمة .

واستمرت هذه الحفاوة ، بعد أن سافرت بصحبة زوجها الى ليبيا ، حيث قضيا اربع سنوات ، مدة الاعارة التى حددتها وزارة التربية والتعليم ، ومكنتهم هذه السفرة ، من تجديد عفش زواجهما تجديدا كاملا ، غير انهما لم يبدلا الشقة التى يسكنانها بالدور الأرضى بحى سموحة وعادت بعض فتيات العائلة من زيارة الاسكندرية ــ ذات صيف ــ ليحكين عن الثلاجة الضخمة ذات البابين والتليفزيون الملون الكبير بحجم السينما ، والفيديو الذى يسمح للمرء بمشاهدة الأفلام على مزاجه .. والستائر المسدلة على كل نافذة وباب و .. و .. و .. وماتت أمها فى السنة الأخيرة من الاعارة ، ولم تحضر وفاتها ، واكتفت حين عادت بزيارة مقبرتها ، وانتظرت بنات الخالة اللاتى صحبنها الى الجبانة الدموع الحارة التى ستذرفها الابنة الوحيدة ، ولكنهن عدن خائبات الرجاء ، ورددن فيما بينهن : لقد عهدناها متحجرة الدمع ، جامدة القلب .

ونفضن أيديهن منها ، وصارت زيارتهن لها ــ حين تعود ــ عزيزة ، ونادرة ، وعاد أخوها يسرى بزوجه ، بعد أن دفن ابنه الوحيد بقرافة العاصمة ليعمرا الدار المهجورة .

ونادت زبيدة أم ابراهيم على سعدية المشغولة بعمل دارها لتحضر كوب ماء لتبتلع بعض الحبوب من علب الدواء ، وردت سعدية من الخارج بصوت مرتج ، أتى من فم مدفوس فى الصدر ، غطت عليه أصوات المواعين التى سقطت بصخب على بلاط الصالة .

المرأة الغريبة :

بعد أن فتحت لهما الباب ، سارت سعدية الى الحجرة الأخيرة ، تستر فتحة الصدر ، على ثديين معلقين كجذرى بطاطا ضخمين

وفارغين ، لم يقرب حلمتيهما فم رضيع ، فهى لم تنجب من زوجها الأول الذى قضت معه عامين كاملين فى « ميت غمر » وهو ابن خالتها ، يعمل بورشة صيانة ، لم يكن يقربها ابدا : حتى لا تتكرر هزائمه ، وكان لا يكف عن ضربها ، كلما حاول جماعها ، وينزل عنها مداريا خجله فوق الوسادة ، ويواصل العويل ، حتى يتردد أذان الفجر من جامع الحى ، وهى تظل على صمتها ، تتحسس خربشاته ، وتتوجع من ألم عظامها ، وطلقت منه ، وعادت الى أهلها فى روض الفرج وسقط عليهم ذات ليلة ، رجلها الحالى ، كان قادما من بلدته ، يطلب العمل على واحدة من سيارات أبيهـا ، وقال : انه ابن ناس مبسوطين ، وانه غير راض عن أهله ، لأنه أراد أن يدير الأرض والطاحونة بعد وفاة أبيه ، ووقفت له أمه بالمرصاد ، وادعت أنه لن يفلح فى ذلك ، والأفضل له أن يعود الى وظيفته بالطاقة الذرية فى انشاص ولكنه أصر على ادارة اعمال ابيه ، وجمعت له أمه رجال العائلة الكبار ، جده وأعمامه وأخواله ، وقالوا له لا تضيع فرصتك الأخيرة ، يكفى أنك طردت من الجيش ، وأوضح أنه كان قد تطوع بالقوات المسلحة فى بداية الثورة ، وترقى فى الجيش حتى صار رقيبا ، وتهجم ــ ذات يوم ــ على أحد الضباط لأنه سبه بشتائم مقذعة ، ذكر فيها أمه بالفعل البطال .

ورضى أهلها به ، وتركوا له التاكسى يعمل عليه ، وأسكنوه حجرة واسعة فى شقة بالدور الثالث بعابدين ، مع أسرة نوبية طيبة ، يعمل رجلها موظفا بالتأمينات ، وامرأته ست بيت ، كانت تقضى نهارها مع سعدية بالشقة ، وفى كثير من الأيام تشترى لها الخضار من السوق .

وأحبا أطفالهما ، فكان يرى حين يعود كل مساء ، يجلب لهم الشيكولاته والبسكويت ، ويؤمل نفسه بالولد ، الذى يبثه حبه الأبوى الكامن بصدره ، وجاء الولد ، أبيض ، بعيون زرقاء ، وبجسد ممتلىء ، فكان يشبه عمته زبيدة فى لون بشرتها ، وفى زرقة عينيها ، وملأ عليهما الحجرة بشقاوته ، وبأصواته الطفلية العذبة ، وافتكره الله ، وقبره ، بأحد مدافن القاهرة ، عديمة القلب ، وطوت فى قلبها ، هذه الصفحة الأليمة ، وعاشت معه على أمل أن ينجبا ولدا آخر عوضا عن هذا الذى أراده الله الى جواره ، ولكن الآخر لم يجىء أبدا ، وقطع عليهما الأطباء كل أمل ، فقالوا : لا يصلح دمك لدمه .

واكدوا : ان عنقود الرحم ضعيف لا يحمل جنينا .
وقضيا أعوامهما ، يكونان الأجنة ، التى لا تطيق أكثر من شهرين فى جوفها ، وتندفق دما أحمر ثقيلا ، وحين عاد الى «الجزيرة» بلدة زوجها ، ملأ شقوق جدران الدار ، بأجنة كثيرة ، كان أكبرها قد كون العظم واللحم ، وظهرت له خلقة صغيرة بحجم صيرة السمك . وارتدت سعدية خلعة قديمة على جلبابها الأحمر الذي يبدي أكتافها وصدرها لعين الرجل الغريب ، وأعادت ترتيب الملاءة التى رفعت عن السرير ، وطوت اللحاف الذى ظل مبعثرا منذ أن قام زوجها فى الفجر الى عربته آل « بيجو » فى مشوار خصوصى الى الاسماعيلية .
وارتعش قلبها ارتعاشة لطيفة لذكرى الأمس ، حيث قام اليها زوجها بعد أن دخن طقم الحشيش ، فى نسيم الليل ، وسط الساحة بآخر الدار ، وعلقت جلبابه المرمى على الكرسى الخشب فى الشماعة المدقوقة بظهر الباب .
وعادت لتكمل غسيل المواعين ، أراحت ردفيها الكبيرين على كرسى الحمام ، وانكفأت على سواد الحلة تدعكه بالسلك ، ورغاوى الصابون .
وكانت « سعدية » قد جاءت بعد وفاة حماتها ، لتعمر مع زوجها الدار ، وهو لم يكن يريد العودة الى بلدته أبدا ، وكان يقول : انهم جميعا لصوص ومتعجرفون ، يعاملوننى وكأننى « عيل صغير » لا يعرف مصلحته ، واضطرونى الى بيع نصيبى من الأرض والدار ، وكنت أريد أن يكون لى سيارة ملك أتحرك بها بحرية ، ولكنهم جميعا وقفوا فى طريقى ، وأمى « المجرمة » التى لا تستحق الرحمة ، أول من اضطرنى لترك البلد ، كانت تختلق الأسباب لتعنيفى ، واضطرتنى الى مد يدى عليها ، وأكسر لها الأبواب والشبابيك ، فتطلق الصوات ، ليأتى الأعمام ، ويحاصرونى ، واضطر العم على لضربى بشومة كانت فى يده ، وحين عادت . مرة أخرى للكلام حول وظيفتى ، والخوف من خسرانها ، قلت لها : لا تعيدى على هذا الكلام . . أريد العيش معك هنا ، وتكون لى زوجة تخدمك ، وأراعى أرضنا ومصالحنا . وقالت : لا أريدك الى جانبى . وأجبرتنى لأن أقول لها : عينك على أحد الرجال ، وتريدين الزواج منه ، ليملأ فراش أبى ، وهذا لن يكون ، وبصقت فى وجهى ، وصرخت :

انت لا ابنى ولا أعرفك ، ملعونة البطن اللى شـالتك . واطلقت الصراخ ، فجريت الى المطبخ ، ورفعت السكين ، وجاء الطرق على الباب ، قويا متدافعا ، وفتحت النافذة ، وأبرزت السكين من بين قضبانها الى رجال العائلة الذين تزاحموا على الباب ، وقلت لهم مهددا : سأذبح من يقترب من الدار ، ولكنهم نجحوا فى كسرالباب ، واندفعوا متكالبين على من الخلف ، وامسكوا بى ، وقالوا لن يكون لك عيش فى هذا البلد ..

وأجبرت على الرحيل ..

ولهذا فقد تقاعس زوجها ، حين بلغه خبر وفاة أمه ، انهى يوم عمله ، كالمعتاد ، وارتدى البدلة التى دخل بها على سـعدية وامرها بأن ترتدى جلبابها الحرير الأسود ، وطرحتها «الجورجيت» وركن التاكسى فى « الجراج » ، وقال للحارس : يومان وأعود ، سأله الحارس : خير ؟ قال : خير ان شاء الله .

ولم يرد أخباره بوفاة أمه .

وحضر بعد انقضاء المأتم ، وتمنت سعدية أن تكون وحدها سيدة البيت وقالت لنفسها : الحياة هنا رخيصة ، وآمنة ، يبيع زوجى نصيبه من ميراث أمه ، ويبتاع له عربة يتحرك بها بين المراكز والمدن ، واعيد انا ترتيب هذا البيت بعد أن نضيف اليه متاعنـا المحدود الذى يملأ فراغ حجرة وحيدة بشقة عابدين . واقتنـع الزوج فى النهاية ، وبانتظار اجراءات الميراث ، عمل لدى أصـحاب السيارات بالبلد . مرة على تاكسى اقاليم ، ومرة على نقل كبير ، يخرج به مع الفجر ، ويعود اليها آخر النهار ، حتى عادت اختـه من سفرتها ، قامت بالواجب تجاهها ، ولم تجعلها تشعر بفقـدان امها ، ولكنها ظلت على عجرفتها ، تعالى ياسعدية ، روحى ياسعدية وهى تطيع ، وتقول لنفسها : يابت يومين ، وتمشى .

وعادت بعدها بعام ، مريضة ، فلزمت الفراش ، تكح ، وتبصق دما ، وسعدية تقوم على خدمتها ، نظافة الفـرش ، والطبيخ ، والغسيل ، وكانت تتمادى فى عجرفتها ، فتجبرها على غسـل بصاقها ، وتشكو الى زوجها ليلا ، ويطمئنها : الحال لن يدوم .. غدا يشفيها الله ، وترحل الى الاسكندرية ، لتكـون بجـوار زوجها .

ولم تسترح هى لبقائها بعيدة عن زوجها ، فكتبت اليه رسالة ،

ادعت فيها أنها شفيت تماما ، وأنها تستطيع العودة لخـــدمته ، فى شقتهما التى لم تفرح بأثاثها الجديد ، وجاء ليحمل حقائبهـــا ، ويعودا الى شقتهما ، وتفرح سعدية باستعادة بيت زوجها ، الذى هو فى الحقيقة ، نصيب أخته عن أمها وأبيها .

وعقل سعدية يقول لها ، أو هكذا يقول لها زوجها : سيؤول البيت بكامله لنا ، فأختى لا تحتاجه ، فقط تحتاج مكانا تنزل عليه هى وزوجها فى الاجازات ، وعلينا أن نتحمل خدمتها .

وسعدية لم تمانع فى ذلك أبدا ، ولكنها لن تجبر على غســـل بصاقها ، ودمها ، فهى تخشى انتقال العدوى الى صـــدرها ، وكل انسان فيه ما يكفيه .

وسقط غطاء الحلة من يدها ، لما سمعت النداء القادم من حجرة الكنب ، كان صوت عمتها يطلب كوب الماء ، مازالت على حالهـــا ، مريضة ، تزدرد الحبات الموصوفة بالروشتة ، ولأن زوجها لن يقوم على خدمتها وحده فى المدينة ، أعادها لتخدمها سعدية بينما يظـــل هو وحيدا يصرمح فى الشقة ، ويمشى على حل شعره ، هذا النجس ، الذى لم يكف عن ملاحقة سعدية سواء فى هذه الأيام التى اختـــلى بها ، حين أرادت زيارتهما فى الصيف ، نزلت عمتها الى الســـوق تبتاع بعض الأشياء ، وتركتها معه ، فدخل عليها المطبخ ، ودون مقدمات ، احتضنها من الخلف ، وضمها الى صدره ، شـــهقت سعدية : يوه .. يادى العيبة .

وهنا ، حين جاء بالعمة المريضة ، كان يتركها فى فراشـــها ، ويختلق الأسباب ليلاحق سعدية فى المطبخ أو فى الحـــوش ، مدعيا أنه يريد مساعدتها فى الطبيخ ، ويقول انه ماهر فى صـــنع الاطباق لأنه قضى فترة عزوبية طويلة ، أثناء دراسته ، وتفـــاجأ بأنفاسه على جانب رقبتها ، وبملمس جسده على عرى ذراعها ، وتقول لنفسها : هذا الناقص ماذا يظن بى .

وتزجره ، وهو لا يزجر أبدا ، ومن يراه هذا « الســـــاهى » بين الناس ، لا يظن فيه العيبة ، ولم يلفظ لسانها كلمة عما يحاوله معها ، لا لزوجها ، ولا لعمتها .

وكتمت سره فى صدرها .

***

جففت سعدية يدها فى جانبى الجلباب ، ودخلت حجرة النوم ،

لتسحب كوبا من « النملية » وملأته بماء الحنفية المدقوقة فى حائط الحمام ، ودخلت بها حجرة الكنب ، فواجهتها نظرة كمال المستجدية، وحين أرادت أن تدير ظهرها للخروج ، سمعت صوته ، الضائع يناديها من الخلف ، فأعادت النظر اليه بترفع ، وقد شحنت وجهها بالرد عما تتوقع سماعه ، وسلك زوره من البلغم ، وقال بخجل وتردد : سعدية أرجوك أن تثبتى انك بنته ناس بصحيح .

وردت متنمرة ، وبجراة لم يعدها فيها ، مما حدا بالعمة أن ترفع الكوب عن فمها وتعلقه بيدها لتتابع اللهجة الغريبة التى تتحدث بها زوجة الأخ ، قالت سعدية : انا بنته ناس بصحيح .. أمال انا بنت كلب !

واستوعب كمال الاجابة العنيفة ، واستطرد : حاشا لله .. انا اقصد بحق اثقلنا عليك ، ولكن ماذا افعل ؟ عمتك مريضة ، ولاتستطيع خدمة نفسها ، وأنا لا أستطيع القيام بهذا الدور ، فهناك أتركها وحدها ، واذهب الى المدرسة ، والواجب أن تكون هنا بين أهلها ، وأنت الآن أقرب الناس اليها .

فقاطعته سعدية ودمع القهر يحوم فى عينيها : هات لها خدامة .. لن استمر فى جمع بصاقها ، فضلا عن أوامرها وشخطها الذى لا ينتهى ، ونطلع فى الآخر ، لا شكر ولا الحمد لله

وتدخلت العمة فى الحوار محتدمة غاضبة : أما انت قليلة الأدب بصحيح .

وسمعت من سعدية مالم تتوقع سماعه أبدا : ماحد قليل الأدب الا انت .. فاكرة نفسك ايه ؟

وقام كمال ليهدىء الموقف ، ووقف بينهما ، وطبطب على كتف سعدية بحنان : معلهش .. دى أختك برضك .

ونفضت سعدية يدها بعنف ، وخرجت من الباب ، تشتم ، وتسب ، والتقطت اذن زبيدة كلمات مهشمة ، مثل « بنت كلب » ، « أبوك » ، « امك » . وأشارت الى زوجها لتشهده ، وتصنع الرجل انه لم يسمع شيئا ، واقترب منها ليسكن غضبتها : حتعملى عقلك بعقلها ، دى برضك جاهلة .

وانتفض جسد زبيدة تحت يديه ، وراحت تنشج ببكاء ، لم يسعفها فيه الدمع : عمرى ماحد شتم أبى أو أمى .

فقال لها وهو يدور بالمنديل على خديها : لها زوج نرد عليه .

وجلس لفترة طويلة يضرب اثلاثا في ارباع ، بينما يحاول الا يسمع صراخ سعدية بالخارج و « خربطتها » في المواعين ، وبكاءها العارم ، ويتابع صمت زوجته ، وتوعدها للمرأة التي خرجت عن الطاعة ، وحين اطمأن لسكون الاثنتين ، انتهز الفرصـــة ، وتكلم مع زوجته ، بعد ان نظر الى الساعة ، ليشعرها بأن وقت رحيـله قد ازف ، وارتاح لجملتها الفاصلة : قم انت لمشـــــوارك وانا اتصرف .

وسألها ان كانت تريد شيئا ، وأكد لها أنه سيكتب لها ـ كل يوم ـ رسالة ، ليطمئن على صحتها ، واخرج محفظتـه ليعرض عليها فلوسا ، فقالت بحسم : معى كفاية .

ووقف مدة غير قصيرة ، يمرر اصابعه على وجهها الشاحب ، ويزيح خصلات شعرها المرقانة ، الى وراء اذنها ، بينما كانت قد هدأت تماما ، واستسلمت لمداعبات اصابعه الجافة ، ثم ســحبت راحة يده فجأة ، وراحت تقبلها ، قبلات حارة متقطعـــة ، انتهت بأن دفست وجهها بين طياتها ، واحس ببلل الدمع الساخن بين راحتيه فسحبها بهدوء : بعدين .. بعدين .

فقالت وهى تجفف دموعها ، وتكمل ارجاع خصلات الشـــعر الى الوراء : روح أنت ماتخافش وكانت شرايين العين قد احتقنت ، كما أزال تورد الخدين بعض الشحوب ، ولمعت أطراف الأنف الذى نكتته دفعة واحدة فى منديلها الصغير .

وقبل أن يفتح الباب الكبير ، نظر الى سعدية التى تجـاهلت خروجه ، ومالت بوجهها تدعك قعر الحلة المسود ، وقال لهـا : سلام عليك يا سعدية توصي بعمتك ، وخليك أصيلة ولم تجب عليه ، واكتفت بأن رفعت ذراعها ، لتمسح تحت أنفها .

وواجهه ضوء الشمس المشع من جدار الدار ، وأحس بسخونة الهواء ، واتضحت لأذنيه تكتكات الطاحونة القوية التى كانت تأتيه من نافذة الحجرة بعيدة واهنة ، توجه الى الحاج على الجـالس فوق فروة الخروف ، وهو حين رآه ، سحب يده السائد بهـــا على ذراع الميزان ، ومدها الى الأستاذ ، ورحب به بحـــرارة ، وساله : خير .. لسه بعافية ؟ واجابه كمال بمسكنة : والله ياحاج ما فى فايدة ، فى المرة السابقة فكرت انها شفيت تماما ، ولكن الوضع استمر على ما هو عليه ، ويمكن تدهور اكثر .. والدكاترة نصحوا

بالراحة ، قلت اجيبها لامرأة اخيها ترعاها .

فقال الحاج وهو يعود الى فروته : وماله .. لازم من الرعاية .

ومال عليه كمال بوجهه حتى رأى صورته في زجاج نظـــارته السميكة : والنبي ياحاج توصي عليها سعدية .

وشمر الحاج أكمام جلبابه ، وقال : توكل انت على الله ، ان لم تخدمها سعدية نخدمها بعيننا .

وأخرج كمال المنديل من جيبه ، وتهيــأ للبكــاء الذى يجيش بصدره ، وخرج البكاء متقطعا مشروخا من حنجرة انفتحت على آخرها ، وفوجىء الحاج بهذا البكاء ، فقام مرة اخرى ، ليربت على كتف الاستاذ : عيب يارجل .. توكل أنت على الله . وســلم كمال على عم زوجته باحترام كبير ، وكان مائلا بشدة نحوه ، حتى ظن الحاج انه يريد تقبيل يده . فسحبها الى الوراء في نتشة قوية ، جعلت كوعه يصدم بحائط الحجرة الصغيرة .

الميزان :

وقفت المراة بجلبابها الأسود المتسخ أمام الميزان ، ترفع على رأسها قفة كبيرة بداخلها مقطف يمتلىء بالقمح الى حافته ، جففت عرقها السائل على صدغيها ، وطلبت من الحاج أن يحط عنهـــا ، فهرع اليها شـــحته الذى قدم من حجــرة العدة ، ووراء حائط حجرة الميزان ، مد يده الى اعلى ليمسك اذن القفة ، فسقط سروال عفريتته الملطخة بالشحم الأسود ، وبانت بطنه المشعرة .

ارتاحت القفة فوق الميزان ، وارتاحت المراة المرهقة من حملها ، والتفتت الى الحاج الذى بدأ يزحزح رمانة الحديد وســط عمود الميزان ، ليضبطها على المؤشر ، فانسحبت حتى آخر العمود ، فاخذ سنجة بحجم نصف الكيلو ، ووضعها في الكفة ، وبدأ يزحزح حتى انضبط مؤشر العمود على العلامة المثبتة في جسم الميزان ، وصار العمود خفيفا كالريشة ، ينزل الى اسفل ، ويطلع الى اعلى كأنما تحركه نسمة الهواء ، وقال لها شاخطا : شيلى .

وبدات المراة تفك صرة اخرجتها من صدرها ، وتخرج فلوســا قديمة ملفوفة باهمال ، وسألته : كم ياحاج ؟

وكان هو قد انشغل بتسجيل الحساب بالدفتر المنشور عليــه

غبار الدقيق ، وذرات تراب الشارع ، ولم يرد على المرأة حتى كتب لها « نمرتها » على ورقة مربعة صغيرة ، ومد للمرأة يده : هات .
وخبطت المرأة يده بدلع : أجيب كام ؟
وانحنى شحته على القفة يرفعها على رأس المرأة صائحا فيها : ارفعي الأول .. وبعدين حاسبي .
دخل رجل ساحبا حمارا عليه جوال الحب ، والحمار وقف أمام الميزان بالضبط ، ينفخ ببوزه في الأرض ، فيثير الغبار .
وسمع الحاج الزعيق يتردد خلف زجاج الشراعة ، وتعرف على صوت زبيدة الواضح ترد على سرسعات سعدية المنطلقة من مكان بعيد ، في عمق الدار .
وقام « شحته » من تحت الجوال الذي رفعه الى الداخل ، وعاد لينظر الى الحاج ، ويلفت نظره الى الشجار الذي وقع في دار أخيه .
وتجاهل الحاج نظراته ، وتكلف النظر الى خيال ماسورة العادم التي تطلق دخانها الكثيف فوق حائط الجيران المقابل .
وأشار الى « أبوعليوة » الطحان القاعد على كرويته عريضة في الظلمة الخفيفة أمام القادوس ، وقال له : خف الحجر شوية .
ثم نفض الغبار عن جلبابه ، وقال متمتما في نفسه : ابن الخاسرة لا يرحم .
وترك شحته صالبا عوده على حائط حجرة الميزان ، واتكفأ نحو العدة ، وترك الزعيق يتصاعد خلف زجاج الشراعة .
دخل بين البراميل الممتلئة بالجاز والسولار ، ورفع ذيل جلبابه لما استقبل الأرض الراشحة بالزيت ، وتفادى أن يتلوث من باب العدة المكدسة على خشبه طبقات قديمة من الشحم ، وامتلأت أذناه بصوت الوابور ، داخل الحجرة ، حتى تلاشت كل الأصوات الأخرى ، كانت الطارة الكبيرة تهدر بسرعة ، لا نهاية لها ، يلف حول عمودها السير الكبير الذي يغذى الطاحونة ، والسير الصغير الذي يمتد الى حجرة « فراكة الأرز » القى نظرة على طلمبة الزيت ، وملس بطرف أصبعه على الخزنة وتأمل البئر السوداء العميقة الممتلئة بالسولار ، ووقف طويلا أمام طلمبة الماء القابعة فوق مصطبتها كامرأة حبلى تدلق قياها على فترات متقطعة .
ثم عاد خارجا ينظر الى أطراف سرواله الظاهر تحت الجلباب .

صعد الى ظلمة المصطبة ، المرفوعة بجانب دار أخيه « محمد » واسند ظهره الى الحائط مدليا ذراعه على الركبة ، مستفرقا فى تأملاته ، على الطريقة المحببة اليه ، فكلما خفت حركة الطاحونة ، انسحب الى هذا الركن ، داخلا الى عوالمه الخاصة ، فى رحلات طويلة ، قد يقطعها صياح شحته ينادي عليه ، ليزن الحب لزبون وصل للتو . مكث الحاج جالسا فى الظلة حتى رأى ابنة أخيه خارجة من الدار ، تتدلى حقيبة السفر من يدها ، وباليد الأخرى تمسح بلل وجهها ، وبعض شعرات رأسها تسقط تحت الاشارب المعقود باهمال ، كانت تتخبط فى مشيتها ، لا تدرى الى أى وجهة تسير ، ولما لمحت عمها فى ظلة المصطبة انعطفت اليه .

المصطبة القديمة :

فى زمن بعيد ، وعلى هذه المصطبة العجوز ، اجتمع الاخوة الثلاثة محمد وابراهيم وعلى ، وكان ابراهيم قد اشترى هذه الدار ، التى يحوطها « حرم » الطاحونة من كل جانب ، ولا منفذ لها غير الشارع العمومى ، المفتوح عليه الباب الكبير ، ونافذتان لحجرتين اماميتين ، واراد ابراهيم أن يفتح النوافذ لباقى الحجرات ، ليطلق الهواء والنور ، فى الدار المظلمة ، فقعد بين أخويه ، وعرض عليهما اقتراحه ، فرد عليه محمد بخشونة : تفتح على ملك مين ؟

ورد ابراهيم عليه : انا شريك فى « حرم » الطاحونة ؟

وأجابه محمد : لما تصبح الطاحونة ملكا خالصا لك ، افتح شبابيك كما تريد .

وانحاز على الى جانب اخيه ، وقال : يفتح وناخد عليه ورقة .

ورد محمد بطريقة تنهى الحوار : لا ورقة ولا يحزنون .

وأرادت عين ابراهيم البكاء ، غير أنه حبسه ، وضغط على نفسه ، ليكبت جيشانها الفوار ، ولكنه لم يتمالك نفسه لما سمع أخاه الأكبر يقول بتهكم : ينهب الطاحونة ليشترى الدور ، والحجة فتح شباك ، ليدق مسمار جحا .

وانتفض ابراهيم نازلا عن المصطبة ليمسك بتلابيب أخيه ،

واشتبك الاثنان فى عراك غير متوقع ، وقدمت النسوة صــاحبات الحب ؛ من داخل الطاحونة ، واطلقن الصوات ، الذى أوقف كل قدم سائرة فى الشارع ، واستدعى الرجال من الدكاكين القريبة ؛ واستدعى الزوجات من دورهن ، فاشتبكن فى عراك ، تقاذفن فيه أقبح الشتائم ، وفجأة لاح يسرى الابن الوحيد لأبيه ابراهيم فوق السطح بسبب عمه الكبير ، بعد أن تغلب على أبيه ، وأسقطه على الأرض ، وبرك فوقه يكيل له اللكمات ، وسقطت راس الفأس الصغيرة من السطح ، لتشج رأس العم الكبير ، فيسقط متهاويا على الأرض ، غارقا فى نافورة الدم التى تدفقت من رأسه العارى .

– ٢ –

دار الحاج على هى الملاصقة لدار أبيها ، ينتصب بابها على ارتفاع عتبة ، يتلقى الشمس من فراغ حوش البهائم المقابل له ، فيتشقق دهانه البنى العريق ، وتتلوى قضبان شراعته فى لهيب ، استشعرته وهى تدفع ثقله الراكز ، بينما تتبع عمها . لتشملها طراوة الدار الخامدة ، وواجهها التراب الناعم على كل شىء ، فوق مفرش السفرة السميك ، وعلى الكراسى الخشبية الموزعة فى كل ناحية ، وعلى سطح الثلاجة البيضاء التى تئن فى الركن؛ وراء الباب ، وفوق السجادة المصنوعة من قطع القماش ، والمفروشة على الكنبة بعرض الصالة ، وارتاح الحاج فوقها ، فصر خشبها تحته ، وقال لابنة أخيه : تفضلى .

وأشار الى كرسى أعطى ظهره للسفرة المنثور عليها بقايا خبز ، وأطباق تبقى فى قعرها بعض الفول وطعميتان .

الحاج يعيش وحيدا ، بعد رحيل زوجته منذ عامين ، وبعد أن فارقه ولده الوحيد ، وراح يلف البلاد الأجنبية ، واستقر مع عياله فى احدى بلاد النفط ، يجمع المال الذى اشترى به عشرين فدانا فى الأراضى المستصلحة ، ومساحة واسعة لأرض فضاء ، تقع على ميدان المحطة مباشرة ، وتقوم على خدمة الحاج ابنته الوحيدة، تطبخ له طعام الغداء ، وترسله فى « عمود » مع واحد من أبنائها الى حجرة الميزان ، وتزوره – فى فترات متباعدة – لتنكفىء بسمنتها على بلاط البيت فتمسحه ، وتنفض التراب عن الفرش ، وتغير له الملاءات . وبياضات السرير ، وتجمع هدومه المتسخة ، لتغسلها – هناك – فى بيتها مع هدوم الزوج والأبناء ، وفى الليل بعد أن يقضى الحاج سهرته ، على المقهى الواقع على شارع المحطة ، يمر على شقة ابنته ليصحب ابنها الكبير ، حيث يبيت مع جده ، على سرير صغير اشتراه الجد خصيصا له .

عادت « زبيدة » بنظرها من عمق الدار المظلم لتسمع عمها وهو يسألها مداعبا : اعمل لك شايا ؟

أجابته بـ « شكرا » مقتضبة وحاسمة ، ثم استدركت : اذا كنت عاوز اعمل لك ؟ فانتهز الفرصة ليقوم ، ويترك لها البيت ، وقال : أروح شغلى .. البيت بيتك ، الأكل فى الثلاجة ، والشاى والسكر فى المطبخ .

وجدت نفسها وحيدة ، بين الأشياء الصامتة ، وتنامى الى سمعها صوت صنبور المطبخ ، وهو يقطر ماءه فى الحوض ، وامتلأ رأسها بنواح الطاحونة ، وتعمق صمت الأشياء حولها ، حتى كادت تحس بحملقتها المتطفلة ، فنهضت الى حقيبتها ، وجرتها الى الحجرة المفتوحة ، وانصب بداخلها النور المصفى من شيش الحجرة المغلق ، وأشراقة بياض فرش الكنب والسرير ، وأغراها ذلك بالتمدد على السرير المرتب ، ففتحت غلق الحقيبة لتخرج جلباب البيت ، ونضت البلوزة عن جسدها المرهق ، وسحبت « الجيب » الى أسفل ، وتركته ينزل لوحده ، وهبط تدريجيا محتضنا وركيها وساقيها ، واستشعرت ملمسه الخفيف فى انسحابه الى الأرض ، حتى تكور تماما حول قدميها ، فانخلعت منه ، ووقفت قليلا بقميصها الداخلى ، وأحست بالخجل ، من عرى الصدر ، والأكتاف والسيقان ، فدفعت الباب الموارب ، وأحكمت المسمار النائم على الضلفة ، وقعدت على حافة السرير ، تدقق النظر فى بشرتها المصفرة ، وضغطت بأصابعها على لحم الذراعين ، وشدت ارتخاءه ، كما ضغطت على لحم الوركين ، وتسللت راحة يدها الى فتحة الصدر ، واقشعر بدنها لما لامست مكان الثدى المبتور ، وضربت بيدها على الحفرة الغائرة ، وأخرجتها على عجل ، واستمر الملمس الخشن الشائه على أطراف الأصابع التى تجمدت أمام عينيها ، وانسال الدمع غزيرا على خديها ، وتساقطت عنه حبات كبيرة دافئة على لحم الصدر ، وتفرقت بين أضلاعه التى تعد بالواحدة .

ومر خيال فى ضوء الشارع . امتد من تخصاص الشيش ، وانفرش على جدران الحجرة ، فقامت فزعة تلم لحمها فى الجلباب المطوى ، وجففت دمعها بسرعة قلقة ، حين سمعت الخيال يكلم خيالا آخر ، وقف الى جواره ، ولم يتزحزحا من تحت النافذة ، وشعرت بأن وحدتها قد انقضت ، وأن سرها قد انفضح ، فدخلت تحت غطاء السرير ، ساندة ظهرها على المخدة ، ففاجأتها صورة زوجة

عمها الميتة ، معلقة امامها بالضبط بوجهها الضخم الممتلىء بالتجاعيد التى توزعت فى شعابها بسمة جامدة ، كان الوجه ملتفا فى طرحة سوداء خفيفة ، يبدو من تحتها منديل الراس الشفاف فوق الجبهة العريضة ، وكانما الصورة لوجه اطل فجأة من طاقة مرتفعة بالحجرة ، وضايقها ان المراة فى الصورة تنظر بثبات ، وتحملق كانما تريد ان تقرأ خفاءها ، فأدارت وجهها جهة الحائط فى محاولة لاحتضان اطياف النوم البعيدة .

الاختفاء :

أنتم اين تختفون ؟ انتم يامن تكتفون بالوجود الجامد بين اطارات الصور ؟ تطلون علينا من بعيد بنظرة واحدة لا تتغير ، وملمح واحد ثابت ، اين وجودكم الحى ؟ فى اى جحر جائر تركتم رائحتكم الطيبة، وفى اية حفرة انطفأ نوركم الحانى ؟

انت ياهذه المراة المعلقة فى الصورة ، تنظرين الى كنخصم ، انا اخافك الآن ، بينما دمى لايزال يحتضن لهفتك الى حيث كنت تعلمين بقدومى ، مازالت يدى الحية ، تنبض فى امتدادها حول خصرى ، وكانت يوما تلم كتلتك النابضة بالشوق ، وهذا صدرى لم يزل يرفع جرم ثدييك الضخمين لما كنا نتلاحم فى اعتصارة الحضن ، اى يد ظالمة سلبتك هذا ؟ وتركتك صورة تطلق الرعب والخوف ، وكنت يوما انيس الوحشة ؟ وأنت ياابى لقد انسحبت مبكرا ، وتركتنى استقبل العيد فى شقتى ، وراء باب صامت ، لا تطرقه يدك الحنانة ، كنت بهجتى لما تقدم الى حاملا فاكهة العيد ، وتقضى معى يومين ، لا تكف عن الكلام ، ولا اكف عن ارتشاف الدفء من قلبك المحب ، اين توارت صورتك ؟ وأين خفت صوتك ؟ انت وأمى التى غافلتنى ، وهاجرت اليك ، غادر هذا الرحيل المفاجىء ، أصبحت أعود الى الدار ، فلا أجد من يضمنى الى صدره ، وصرت جذرا مقلوعا ، القى به على جانب الطريق ، وأصبح وجودكم حولى، هامسا ، وطيفيا ، ومخيفا .

وها أنا ذاياأبى اتمدد وحيدةفى نفس البقعة التى شهدتميلادى، فى نفس الحجرة التى كنت تجتمع فيها مساء كل خميس ، مع الأعمام ، تدخنون الحشيش ، وتسمعون « أم كلثوم » ويسبح

حديثكم مع الدخان ، خارج الحجرة ، فأسمع صوتك المميز ، وانا بعد طفلة تقبع بين نسوة العائلة ، أتسلى بحكايات الرعب ، وأمر على بابكم المفتوح نصف فتحة ، فأراك فى سحاب الدخان ، قاعدا على الأرض ، ترص الجوزة لأخويك ، العم محمد ممددا بطوله على الكنبة المواجهة للباب ، راكزا بكوعه على مساندها ، مصغيا للمذياع القريب ، والعم على الى جوارك ينظف الحجارة ، ويراعى النار ، وانظر اليكم بطرف عينى ، ولا أجرؤ على الدخول ، لأنه لا ينبغى لبنت صغيرة الدخول فى طقوس الرجال الكبار ، وكان عالمك هذا غامضا ومبهما وبعيدا ، هذه الحجرة المباحة نهارا ، هى الآن داخل غلالة الدخان نائية ، لا يمكن الكشف عن أسرارها ، أبناء الأعمام فقط قادرون على رفع طرف هذه الغلالة ، والدخول الى عالمكم السرى بحذر ، ويجلسون على حواف الكنبة منتبهين للصيحة المفاجئة من العم محمد : قم نام نامت عليك حيطة . ويهرع الينا الأولاد فى حجرتنا ، يلهثون من الخوف ، فتسحبهم الأمهات على أفخاذهن ، ويهدهدن أجسامهم الصغيرة اللدنة ، ويطمئن قلوبهم المرتعبة : حد قال لكم تروحوا هناك .

وكنت يا أبى أسمع نداءك : يا زبيدة .

فاجرى اليك ، وافتعل الانصات لأرى أكثر : هات قلة مية

وأعود بها اليك ، وأدخل مترددة ، عينى معلقة على العم محمد خشية أن يصرخ فى وجهى ، فتسقط القلة على الأرض فتتهشم شقافتها ، ولكنك تشجعنى : ادخلى .

وتمد يدك لتأخذها منى ، وقبل أن تضعها على فمك لتروى عطشك ، تربت بحنان على كتفى : روحى أنت .

وتبص لأخيك الممدد على الكنبة خوف أن يتهمك باللين والدلع .

فأين عيونكم هذه لترى وحدتى ، لم يبق لى غير هذا العم الوحيد ، وهاهو ذا قدادخلنى حجرته ، وتركنى وراء الابواب والنوافذ المغلقة ، وماذا يمكن أن يفعل ؟ هو وحيد مثلى ، لا أعرف كيف يترك نفسه لوحشة الليل ، وكيف لا يرتعب من صورة الزوجة المعلقة .

تركه ابنه الوحيد ، وغادر ليجمع المال مثلى ، فها أنا ذى عدت بنصيبى ، ولم يجدنى فى دفع مرضى ، ولم ينفع فى ارجاع لحظة دافئة من لحظات حبكم ، هذا الولد الذى عبأ راسه بالأحلام ، يتخلى عنها الآن ، كم من مرة ملأ راسه بكلامه ؟ منذ ان كانوايتركوننا

جميعا فى حجرة واحدة ، مطمئنين الى براءتنا ، منذ أن تجـــرات يد هذا الولد ، فانسحبت الى جنبى ، وهبطت لترفع ثوبى من أسفل ، كم كنت مغيظة ، ومستسلمة ؟ اقاوم فى الظاهر ، وأريد بكل كيانى ، حتى تعودنا التلصص فى ساعات القيلولة ، أو فى ساعات الليل المتأخر ، مطمئنين أن أحدا لن يكشف سرنا ، ننفرد على مدواد الزريبة ، أو فى قاعة التبن بآخر الدار ، ونختلق الحجج للذهـــاب الى الغيط ، فننام بين عيدان الذرة ، وبين شـــجيرات البـــامية الشائكة .

وأدمنته ، وأدمننى ، واقتربنا اكثر ، وكنت اقعد الساعات الطوال وراء ظهره أرقب يده ، وهى تنقل الشجر والسماء والطير على الورق الأبيض ، فتعلق به قلبى ، واحببت الانصـــات لكلامه عن رحلته الى المدينة ، وعن المعارض التى سيقف لها ابناء المدينـة على قدم وساق ، وعن صوره التى تظهر فى الصـحف والمجـلات واقاسمه الحلم ، ويغادر الى المدينة ، ويدخل كلياتها ، ويكتفى بالرد على رسائلى الملتهبة بعبارات فارغة ، لا حياة فيها ، وانشغل عنى ، وانشغلت عنه ب « كمال » الذى التقيته على رصيف المحطة ، ايام مدرسة المعلمات .

والآن انا بين هذه الجدران المصمتة ، خمدت كل الأصـــوات ، وتلاشت منها الحياة ، فهل يخمد صوتى مع من خمد ؟

هاأنا ذى احس بأيديكم المتلاشية ، تجر ـ فى خفاء ـ ساقى اليكم ، أحسها ، وأنا اقاوم ، أنا الآن اقاوم ، لا أريد ان اكون فى دنياكم هذه الموحشة ، أنا لا أعرفها بعد ، ولكن كيف اقاوم ؟ وانا اشـــعر بالمرض الخبيث يأكل جسمى ، هاقد التهم الثدى الخاوى ، هذا الثدى الذى حلم بدفق الحياة الى صبى لم يأت أبدا ، ولأنه فقـــد وظيفته ، يبس ، خلع جذره من تربة الصدر ، ومات ، جافا ، وفارغا .

ولم يكتف بذلك ، دفع خباثته الى الدم ، فهو الآن يسرى ، واحسه قادما من الصدر الى الرئتين ، الى باقى الأعضاء الواهنة .

انا الآن أرحل اليكم ، واتعلق ببقية من الحيـــاة ، انتم الان تجرجروننى نحوكم وأنا أتشبث بحطبة تسبح على سطح بحر هادر، امهلونى قليلا ، لأعب الحياة ، فأنا مازلت شابة أنتم عشتم الكفاية، وخلفتم الذرية ، انا وحيدة ، لا امتلك غير اعضاء جسمى ، وبعض الدم الذى يحمل مرضه كبقع من زيت ، فى محيط الماء .

- ٢ -

نسمة العصرية :

هذه هى العصرية ، والنسمة الرقيقة بدأت تنشط فى النافذة البحرية ، وانسحب لهيب الشمس عن حائط الجيران ، أمام الظل الممتد ، وماسورة العادم تمطى خيالها ، وبدأت تدفع دخانها بعيدا ، حتى لامس سور الدور الثانى للدار المقابلة ، وزبيدة أم محمد فرغت من حمامها اليومى ، وجمعت شعرها الى الوراء ، ونشرت خلعتها على درابزين السلم ، وارتدت جلبابها الغامق الذى تتناثر عليه زهور صغيرة ، لا تتضح الا للعين القريبة ، دخلت الحجرة الصغيرة التى لفظ فيها ابوها أنفاسه منذ عامين ، وامتد عاريا على مغسلة ، ملأت نصف هذه الحجرة بالضبط .

وكالعادة طوت وسادة سرير أبيها المرتفع ، وجلست فوقها ، تبرد كوب الشاى بالنعناع ، وترقب الشارع من حولها ، لا ترى منه غير اجساد آدمية تسعى فى غباره ، وهياكل ضخمة لماشية سحبها اصحابها فى رحلة العودة اليومية من الحقول ، ولمحت عمامة عمها الحاج على الجالس على المصطبة تحت النافذة يحادث رجلا ــ لا يبين ــ فى شئون خاصة ، لم تحفل بمتابعتها ، بل اصغت لبكاء ابنة اخيها فى الحجرة الواسعة القريبة من حجرة « العدة » ، وضاع صراخ البنت فى دوشة الطاحونة ، وارادت أن تقوم لترفعها عن فراشها ، وتجلسها أمامها على أرض النافذة . كما أعتادت كل عصر ، غير أنها سمعت زوجة أخيها تسكت البنت التى اقلقت قيلولتها وزبيدة رغم أنها على خصام مع أم البنت وأبيها الا انها تستطيع فى أحيان كثيرة اقتحام غرفتها ، وترفع البنت عن فراشها لتضمها ألى صدرها ، مداعبة ، مدللة ، وتتأمل هذا الوجه الصغير الممتلىء ، الذى انطبعت على ملامحه الكثير من ملامح المرحومة جدتها التى توفيت بعد ولادتها بعشرين يوما ، فـ « زبيدة » الآن تعيش مستقلة عن أخيها ، بعد أن كثر الشجار بينهما ، عقب رحيل الوالدين

وكان أبوها — فى سنة الحرب الأخيرة — قد زوجها أحد اقاربه. من قرية بعيدة ، لا تنتمى لمركزهم ، والعريس كان أحد أبنـــاء هؤلاء الرجال الذين نزل عليهم يوما منذ أربعين عاما ، وأغروه بشراء الثلاثين فدانا التى لم يطاوعه أحد من اخوته فى ضـــمها الى باقى أملاكهم ، وتجددت العلاقة بزيارة خاطفة قام بها الحاج محمد ذات يوم للعزاء فى أحد رجال هذه القرية ، ورأى العريس ، فأعجبته رجولته الريفية الصميمة ، وأعجبه انه مدرس وأحد أعضاء البعثة التعليمية فى ليبيا ، وأعجبه هذا البيت الريفى الجميل الذى انشأه وسط حديقة نبتت فيها أشجار المانجو والجوافة ، وكثير من الخضار كالبامية والملوخية والخبيزة .. وحدث نفسه : لماذا لا نخلط زيتنا فى دقيقنا ، ونجدد العلاقة مع الأبناء حيث لم تفلح الآباء .

وجاء حديثه لنفسه فى الوقت المناسب ، اذ كان هذا المدرس يبحث عن بنت الحلال ، وبات «الحاج» ليلة العزاء فى بيت المدرس ، وشاهد نعم الله الكثيرة التى جلبها من ليبيا ، كلها فى ربطها ، لم تفتح عنها لفائفها بعد ، وقضيا الليلة يتحدثان معا ، فى كل شىء ، حتى تطرق الكلام الى الزواج ، وسأل « الحاج » قريبه المدرس : ما أخر زواجك حتى هذا الوقت ، وأنت فى غير حاجة لشىء ، بيتك جميل ، ومكتمل من مجاميعه ؟

وقال المدرس : والله يا « حاج » انا ابحث عن بنت الحـلال المناسبة .

وتهلل « الحاج » ومال عليه هامسا : عروستك عندى ، ولا تحمل الهم .

وسعد المدرس بهذا العرض ، وقبل فى الحال ، دون أن يرى عروس المستقبل ، فهذه — فى ايه — زواجة معقولة ، ومناسبة لروحه وأخلاقه ، بنت قريبة ، أبوها واحد من أعيان بلدتهم ، وأكيد جميلة ، فهى ترعرعت فى نعمة ابيها ، تستطيع أن تنجب له الولد الذى يتميز عن أبناء قريته الفقيرة ، بانتمائه لأم هى من سكان المدن ، بالقياس الى قريته طبعا ، وكان زواج ، وكان ســـفر ، وكان ولد نقل عن أبيه سمرته ، ونقل عن أمه سمسمة تقاطيعهـا الدقيقة . وكان طلاق ...

ذلك ان الزواج تم غصـبا ، فـ « زبيـدة » فزعت حين رأت عريسها ، افندى صحيح ، ولكنه فلاح ، بهيكله وبنائه ، وسلوكه

وخشونته ، ولم يكن ابدا كفارس احلامها الذي قضت عمرها تشكله فى تلافيف عقلها .

ثم انها كانت تريد العريس الذي ينتشلها من حدود بلدتها الضيقة الى رحابة عالم المدينة ، لكن أباها يربطها برجل ، كتفها بأحباله الغليظة ، وقبرها فى قرية بائسة معزولة عن الدنيا ، تنام بعد الغروب ، وتقضى ليلها الطويل بين نقيق ضفادعها ، ولدغ بعوضها القاسي القلب .

وتربى ولدها فى كنف أبيها وامها حتى شب ، وبلغ السن القانونية ، فعاد الى أبيه ، فى بداية نفس العام الذى افتتح بموت ابيها ، وختم بموت امها التى قضت طيلة سنوات طلاقها ، قلقة عليها ، تتمنى لها راحة القلب مع ابن الحلال ، وفى نفس الوقت تطوى رغبتها فى الدوام معها .

وعاشت زبيدة مع والديها حياة مضطربة ، فيها عنف ، وفيها لين ، فيها قسوة وفيها رحمة ، مرة تتمرد ، وتهج منها ، هاربة عند واحدة من أخواتها ، ومرة طائعة ، تدق فى عمل الدار ، من الصباح الباكر ، فتلبس خلعتها ، لتكنس ، وتمسح ، وتطبخ ، حتى جاءت زوجة اخيها ، فانخلط الزيت على النار ، واشتعلت الحرائق الصغيرة والكبيرة ، وانحازت الأم — بالحق والباطل — الى جانب ابنتها وانحاز الابن — بالحق والباطل — مع زوجته ، والأب فى كهولته ، يعرف نار ابنته الحامية ، ويكتم فى صدره سر عنفها ، ويطيب خاطرها مرة ، ويطيب خاطر زوجة ابنه مرة ، فهو فى حاجة الى الخدمة ، بعد أن تقاعدت امرأته ، وتكاسلت ، فلم تعد قادرة على القيام بأداء واجباته ، وبعد رحيله ، تعارمت النار ، وصارت الحياة الواحدة حياتين ، الأم والابنة فى جانب ، والولد وزوجته فى جانب ، حتى خدعت الأم زبيدة وانسحبت منها فجأة ، عقب وفاة ابيها بمدة قصيرة ، وجددت المسكينة حزنها ، وتكدست الجبال السوداء على قلبها ، وانقصف ظهرها برحيل الأم .

فقد كانت تظن أن الزوج الثانى سيأتى على عزوة أبيها ، ولكنه رحل قبل أن يأتى هذا الزوج المأمول ، فأملت أن يأتى بشطارة أمها فغدرت بها ، وتركتها بدون مناسبة ، وكان من الصعب أن توطد العلاقة مع الأخ وزوجته ، بعد أن وصلا معا الى طريق مسدودة ، ومظلمة ، امتلأت بكراهية ، دعمها العراك الذى وصل

الى التشابك بالأيدى ، واسالة الدماء ، وكسر « الفازات » فى الوجوه ، والتهديد بالذبح ، والحرق ، والخنق .

وهاهى ذى تعيش من فوائد نفقتها التى حفظتها فى البنك ، وبنصيبها فى ميراث ابيها من الطاحونة ، ويدخل لها الحطب فى مواسم الحطب ، والبصل حين يزرع البصل ، والأرز فى مواسم حصاده ، والذرة فى مواسم تجميعه ، وهى الآن مستورة ، فاقدة لأمل الانتشال من هذه الدار الشرك ، الى دار خالصة لها ، هى دار زوجها المنتظر .

وسمعت طرقا على الباب الخلفى المفتوح على عدة الطاحونة ، فمالت بجذعها لترى الداخل عليها ، ففوجئت بابنة عمها زبيدة أم ابراهيم تضع فوق جلبابها بلوزة بأكمام ، وتسدل على شعرها طرحة بيضاء ، وتتدلى من يدها حقيبة سفر ، مفتوحة السوستة ، طفحت محتوياتها الى الخارج .

شد يسرى أو ابراهيم الدوبارة المربوطة فى حديد الشراعة ، فانفتح الباب ، ووجد سعدية تخرج من الحجرة الأخيرة ، كانت ترتدى جلباباً أبيض خفيفا ، تخنق أكمامه ذراعاً ممتلئـة باللحم الذى خفت دكنته عند حد الكم المكشكش ، وكانت قد عقدت الاشارب الفاقع الحمرة على شعر سرحته وراء أذنيها ، مما يدل على أنها أنهت عمل دارها للتو ، وأخذت حماما باردا ، لم يزل ماؤه يرشح على قماش الظهر ، وعلى ذيل الجلباب القصير .

ركن قرطاس الفاكهة على جانب من كنبة حجرة النوم ، وخلع الجلباب المتسخ ، ووقف وسط الحجرة بصداره وسرواله الذى أبدى ساقين نحيلتين مشعرتين ، تقفان على شبشب جلدى سميك ومرتفع عن الأرض ، نزل عنه ، فانخفضت قامته ، وانحنى تحت السرير يبحث عن « الزنوبة » وانتبه على دخلة سعدية تلقيهـا اليه فوق البلاط العارى بالقرب من عتبة الباب ، ومدت اليه يدها بالفوطة ، دون أن تنبس بكلمة ، وان كانت قد ركنت فى جانب من بوزها « قمصة » يعرف هو انها ستفيض بها حين يقعد لتنـاول العشاء ، ودوما تكون من احدى الجارات أو من احدى القريبات ، وسيؤكد لها حين تبدأ الشكوى ، ما أكده مائة مرة : قلت لك اغلق عليك بابك .. ولا تكلمى احدا .

ويسرى منـذ أن أتى بـ سـعدية الى بلدته ، وهو يكـرر عليها هذه الجملة ، فهو يعرف أن قريباته سيعاملنها كامرأة بلهاء ، وسيستخدمنها فى مشـاويرهن الخاصـة ، فى جلب الخضار من السوق ، وفى توصيل بعض الطلبات الى القريبات اللائى يقطن الأحياء البعيدة ، وفى رفع قفف الحب الى السطح ، وفى غيرها من الأمور ، ولكن سعدية دائما تهمل أوامره ، وما من مرة يعـود من عمله الا وشدها من ذراعيها ، من دار عمه محمد حيث تفترش مع زبيدة الحصير ، فى الحوش وراء الدار ، أو ينادى عليها من عند الجيران حيث تشاهد فيلم العصر ، وكانت تهرع حين تسـمع

طرقته المعروفة على سقاطة الباب ، فتجرى اليه ، وتمد يدها بالمفتاح بحذر ، ويناوبلها حين يطرق السقاطة ، وتكون فى مشوار بعيد ، لم تقدر مجيئه فى هذه الساعة بالذات ، يشدها من شعرها، ويدخلها الدار ، ليهرس عظمها بيده ، ورجله ، وبكل شيء يقابله عند الضرب ، ويقعد ينهج من مجهود العلقة ، حتى تهدأ أنفاسه ، وتكف سعدية عن البكاء ، ويقول لها : قومى جهزى لنا لقمة . لقمة .

وتزمجر فى دلع ، وتجدد بكاء طفليا ممطوطا لتشعره انه يستفرد بها فى الغربة ويستهتر بشخصيتها ، وانه قد بالغ فى ضربها ، لأنها لم تكن فى دار غريبة ، فعلاقاتها لا تتجاوز قريباته ، ثم ماذا تفعل هى ؟ هل ستظل حبيسة هذه الجدران طول النهار ، ألا يزن عقله ، هو الذى يجرى بالسيارة فى كل البلاد ، يريدها الا تفارق حوائط داره ، ويسرى يقدر ذلك ، ولكن لا يدرى ما الذى يدفعه لأن يأمرها بهذا ، هل هى الغيرة ؟ معاذ الله . ربما الرغبة فى حياة خاصة مستقلة ، لا يطلع فيها أقاربه على شئونه ، فهم يجرون هذه البائسة فى الكلام ليعرفوا كل شيء عنهما ، ويعاملونها كخادمة ، وهو يريد صون كرامتها من سطوتهم .

عاد يسرى من الحمام ، يجفف وجهه بالفوطة ، فوجد الصينية عليها الأطباق الممتلئة بالطبيخ ، وسعدية قابعة الى جوار طبق العيش ، تنكش عن اللقم الصحيحة ، وقعد كما هو، بسرواله وصداره وسيقانه العارية ، وقبل أن يمد يده باللقمة ، سمع سعدية تنشج ، أنها لم تقدر على الامساك بنفسها ، وحط اللقمة فى فمه : مالك يابت ؟.

ــ ولا حاجة .

ــ بتعيطى بدون داعى ؟

ولكنها حكت له كل ماوقع فى نهارها ، عودة أخته وزوجها من الاسكندرية وكيف رحل ، بعد أن تركهما وحيدتين ، وكيف أنها لم تحتمل اخفاء مشاعرها ، وأن أخته المتسلطة هى التى بدأت وقالت لها أن اباها وامها بشريان كابيها وامها تماما ، وهددتها بأنها اذا سبقهما ، سترد عليها بمثلها .

ــ اوعى يابنت الكلب تكونى شتمتى .

وأجابته سعدية وهى تمسح مخاطها فى خرقة كانت تغطى الخبز.
ـ شتمت .
وبررت ذلك بأن أخته كانت قبيحة جدا ، واتهمتها بأنها مجرد خدامة كانت تلعق صحون نسوة القاهرة ، جلبها أخوها اشفاقا عليها : وانه الخائب لم يجد غيرها ، وأنها عديمة الخلفة ، تأكل عيالها ، وأنها بلا أهل ومقطوعة من شجرة ، وعليها أن تلم نفسها ، وتشكر ربها على النعمة التى أنزلها عليها ، بهذا الزوج الطيب الذى اتت على صحته وماله ، دون جدوى ، لا ولد يصون اسمه ، ولا مال يحفظه لمستقبل حياته ، وانه سيظل خائبا هكذا طالما هذه المرأة معه .

وسمع يسرى كل هذا ، وهو يلوك اللقم ، تحت « الضبة » المتعتة فى فمه ، وسألها : وأين هى الآن ؟ .
قالت سعدية باستنكار ، وبشعور أنها لم تفلح فى التأثير عليه : لا أعرف .

الليل حول الطاحونة :

هبط الليل ، وتكدس ظلامه هناك فى الأحواش القديمة وراء الطاحونة ، وكان خفيفا هنا أمام أبوابها ، مزقته مصابيح صغيرة تتدلى من أعمدة الشوارع ، كما مزقه نور لمبة الجاز الذى ينبعث أصفر شاحبا من حجرة الطحين .
فقد أغلق باب « فراكة » الرز ، ورفع الميزان ، وطاولته ، وفروة الخروف التى يقعد عليها الحاج على الى داخل حجرة الطحين ، وركنت كل هذه الأشياء تحت جسد الغربال الضخم ، الذى يلقى شبحه العظيم على الأرضية التى انطبعت عليها أقدام الزبائن والعمال وسط غبار الدقيق الأبيض .
رد يسرى باب الدار ، وعدل ياقة جلبابه الافرنجى النظيف ، وسمع دقات شواكيش الحديد على صخرة الحجر ، تتردد من حجرة الطحين المفتوحة الباب ، فاتجه اليها ، واسند يده على بابها الكبير ذى الخشب المحبب الذى دهن ذات يوم بدهان كثيف جاف رقدت بين شقوقه ذرات الدقيق ، وظل ساكنا فى وقفته ، يتأمل

هيكل « أبوعليوة » الناحل الذى انكفأ فوق حجر الطاحونة الدائرى الكبير ، بعد أن انفتح قادوسها الأسود ، وزكن بعيدا فى الظلمة العربية من حجرة « المدة » ، ويتأمل شحته الذى مد يده بالشاكوش أسفل ساقه المثنية ، ليدق على المجرى الرفيع فى الحجر الآخر المرفوع بعيدا بالقرب من القادوس ، وكانت لمبات الجاز الشحيحة الضوء ، ترسل اليهما النور الأصفر فى دائرة صغيرة محدودة ، كافية للتعرف على الخطوط الصخرية التى يعاد حفرها بعد أن أكلها طحين اليوم .

وانتبه اليه شحته حين أراد أن يسوى الخيشة التى تحجز عن مؤخرته حرارة الحجر .

ــ خلى عنه .

وردا فى نفس واحد : ولا خلا ..

وفرك « أبوعليوة » عينه الغائرة فى الجمجمة الناشفة ، وسألهما يسرى عن عمه « الحاج » وقال له شحته انه لا يدرى ان كان قد خرج الى المقهى أم لم يزل فى داره بانتظار صلاة العشاء ، وعادا الى عملهما فى انهماك وجدية ، فيصدران ايقاعا منضبطا تألفه أذن جيران الحى ، يكون لهم أحد أصوات الليل الأليفة .

وقف يسرى يتأملهما لبعض الوقت ، حتى رأى ارتماشة أجفانهما فى محاولة للخروج من انشغال العمل والتأكد من وجوده ، وانه لم يفارق الباب بعد ، ولأنه رأى الا جدوى من وقوفه هكذا ، وأن عليه مهمة أخرى غير النظر الى هذين الرجلين اللذين نشأ بينهما منذ كان صبيا ، ومنذ كان « أبوعليوة » بعنفوان صحته يرفعه من تحت ابطه ليجلسه بالقرب منه ، ليعلمه الصنعة ، فى أجازة المدرسة ، كما كان شحته يصحبه الى حجرة « المدة » ليشير الى الآلات ، ويعلمه اسماءها ، وعمل كل واحدة منها ، حتى تعلق قلبه بالميكانيكا فى هذا الجهاز البدائى .

وعاد بظهره ، لينحرف الى دار عمه .

كان الباب مفتوحا نصف فتحة ، يخرج من بين ضلفتيه صوت المذياع يرتل قرآن الثامنة ، وشعر ــ قليلا ــ بالكآبة تصعد من مكان خفى بجسمه ، وتمد يدها الناعمة لتأخذ بخناقه ، وأحس بمألم حزين أتى اليه من الداخل ، وتجدد فى نفسه الشعور

بالراحلين ، وأحس بأنفاسهم تحوم حوله خارجة من فتحة الباب ، فطرق على زجاج الشراعة ، ولما لم يرد عليه أحد ، وسع من الفتحة، ليرى « الحاج » بجلبابه وعمامته قاعدا على الكنبة ، وعاقدا ذراعيه على صدره ، يصغى الى الترتيل فى سبحة تأملية ، أخذت روحه من هذه الدنيا الى عالم آخر يشعر فيه بالونس بين الأحباب ، وأحس أنه يقتحم عليه خلوته ، فتنحنح بصوت هادىء ، وقال : مساء الخير يابا « الحاج » . فالتفت اليه « الحاج » وبرق زجاج نظارته فى النور القادم من فتحة الباب ، وظل هكذا لفترة ناظرا اليه دون أن يتضح له شكل الواقف على الباب ، فقال له « يسرى » : أنا يسرى .

وأجابه « الحاج » ب : أيوه ، شاخطة وقاطعة ، كأنما يريد أن يقول له « وما تريد منى فى هذه الساعة أيها الشقى ؟ »

وساله يسرى عن أخته ، ورد عليه « الحاج » مستنكرا وبرما : لا أعرف .. تركتها فى الدار ، ورجعت بعد المغرب فلم أجدها .

وبلع يسرى غصته ، ووقف لا يعرف كيف ينسحب من موقفه هذا ، وكان « الحاج » قد نسيه تماما ، وعاد لسبحاته مع الترتيل الذى أخذ بقلبه ، من هذا المذياع الأبيض الضائع وسط كراكيب كثيرة ، فوق ترابيزة السفرة .

ولمح يسرى مرة أخرى ، طرفا من رأس « أبوعليوة » من شباك حجرة الطحين ورفع جسمه مستطيل النور الملقى فى الشارع، وحطه عنه حين مرق من حوش الحمير باتجاه حجرة « العدة » حيث رأى الرأسين المطلين من نافذة عمه محمد فاقترب من النافذة، فوجد زبيدة أم محمد فوق الوسادة المطوية على سرير أبيها العالى ، وزبيدة أخته فى مواجهتها فوق مسند وضع على كرسى خشب .

واسند كوعيه على أرضية النافذة ، وقال باسما : أزايك يا زبيدة .

فأشاحت أخته بوجهها الى الجهة البعيدة ، ولم ترد عليه .
وقالت زبيدة أم محمد : لف من باب « العدة » .

– ٥ –

فتح يسرى البـــاب ففزعت الحمـــائم والعصافير الســـاقطة على الارض امام أبواب الطاحونة المغلقة تلقط الحب المتناثر ، بين طبقات التراب ، والشمس المختفية وراء البيت المرتفع فى مواجهـــة الطاحونة ، رمت قطعة منها على اطراف السطح ، جعلت عينه تخفق تحت أجفانها .

شفط الهواء من منخريه بقوة ، وبصق بلغما ابيض على جـــدار الطاحونة . وانتفض صدره فى سعلة متقطعة ، شعر معها بأن سلوكا رفيعة كالشعرة تتمزق فى رئتيه ، وارتاح صدره بعد ذلك ، فقـــد تخلص من « معسل » الأمس . ذلك أنه بعد ان عاد بأخته البارحة الى داره ، اقسم بايمان مغلظة أن ســـعدية لن تبيت فيهـــــــا الليلة ، ولن يكون له عيش معها بعد اليوم ، وكان يقصد ارضـــاء أخته ، لا اكثر ، لأنها لم تكف عن البكاء ، حين جلس معها فى بيت عمه ، وحزن من أجلها حين رآها ترجو بنت عمها لتعيش معهـــا ، تقاسمها اللقمة ، فهى أقرب الناس اليها ، وأقدرهم على خدمتها ، و زبيدة أم محمد ترفض بجـــــراة وعناد ، وترد عليها « أنا قادرة أخلص بنفسى لما أخدم حد تانى » .

وتحمس يسرى ليقول : ان لم تخدمك ســـعدية اخـــــدمك انا بعينى .. اترك شغلى واراعيك .. أؤجر لك خدامة خصوصى .

وانبرت أخته لتطلب اليه التخلص من سعدية ، فلا جـــــدوى من حياته معها وهى أخته الوحيدة الحريصة على اثمـــار شـــجرة أبيها ، فلا تعدم ، وأكدت له أنها ستزوجه من حر مالها ، ســـت ستها .

وقال لها يسرى : كما تعلمين العين بصيرة واليـــــد قصيرة ، وأنا بودى أن أتزوج عشرة أنجب منهن عيالا يملئون علينا الدار .

وعاد من دار عمه ، ليجرجر ســـــعدية من شـــعرها ، ويلقى بها الى الخارج ، صارخا فى وجهها : امشى يابنت الجزمة ، لم يعد لك عيش معنا طالما تسبى أهلى .

ولم تفارق سعدية باب الدار ، ظلت تصرخ باكية حتى القى اليها جلبابها الحرير الأسمر ، وطرحتها السمراء ، من بين ضلفتى الباب الذى احكم غلقه بالترباس من الداخل ، ودخل الى الساحة بآخر الدار ، حيث أشعل ناراً صغيرة على الأرض ، واعاد تغيير ماء الجوزة ، وصف الحجارة التى غمسها بالمعسل ، ودعمها بقطع الحشيش ، وقعد على الكرسى الخشب ، يشد من الفسابة ، ويكح ، واذنه على الحجرة التى ترقد فيها اخته ، حتى اذا نادته فى طلب شىء ، هرع اليها ملبيا رغبتها ، ثم يعود الى دخانه ، حتى جاءته الفكرة ، لم لا يذهب الى خالته ، ويدعوها للمجىء ، لتعيش مع اخته ، حتى يفرجها الله ، ويحقق أمرا كان مقضيا .

وجه خلف الطرحة السوداء :

كلاب الشوارع تجمعت فى حجرة الميزان ، تدور قلقة بأجساد مشدودة ، وذيول مرفوعة حول كلبة نامت بوضع مثير فوق قاعدة الأسمنت التى تفرش عليها الفروة ، والذكور من حولها يقتربون من مؤخرتها بتوتر ، ويتشممون رائحة شبقها ، وكل منهم قد أمل نفسه بأنه صاحب الحظوة ، انتبه اليهم يسرى فحدفهم بنصف قالب ، صارخا فيهم : اصطبحنا .

وتفرقوا جميعا فى ذلة وخوف ، واختفوا فى تفريعات الشوارع ، وتراقصت نسمة الصبح الرقيقة على صدغه الأيسر ، وانحرف الى شارع « الرمش » ورأى « أبو زكى » يملأ أقفاص الجريد المربوطة على جانبى الدراجة بالدجاج ، وامه بقميص نومها قد توارى نصفها داخل الباب ، أطلت بشعرها المفكوك ووجهها نصف النائم لتمديدها بالدجاج الذى يكاكى بذعر كأنه لا يريد مفارقة الدار خوفا من مصير مجهول ، جمعت المرأة فتحة صدرها بحياء ، وردت على تحية يسرى الذى مر عليهما دون أن يرفع وجهه عن الأرض .

واصل طريقه ....

عند منتصف الشارع صبح على « عبد الله » الذى يجاهد مع حصانه ليدخله بين عريش العربة ، والحصان يترنح غير فاهم ، أو كأنما لم يستكمل نومه بعد ، و « عبد الله » يشخط فيه متضايقا « ويسب له الدين » ، والحصان غاضب من هذه البداية التى

لا تبشر بخير : أقف هنا خلي نهارك يعدى .. صباح الورد ياعم يسرى .

واصل طريقه ..

أين قضت سعدية ليلتها ؟

أنها تستحق ما فعلته بها ، كان لابد أن تظل مهذبة ، وتمسك لسانها حتى لا تعتاد التهجم على أهلنا ، هى تشتم أختى اليوم ، فلا يستبعد أن تقوح فى وجهى فيما بعد ، وتقول « أبوك » و « أمك » .

أكيد نامت عند « أبوضيا » ، صعب عليها السفر ليلا ، ثم انى طردتها ، وليس معها نقود ، لا يمكن ، أنا أعرف أن بنت الكلب هذه توفر المال من ورائى ، فهى تتصرف فى بيض الدجاج ، وتدعى أنها اقترضت من فلانة ، لأنها اشترت كذا ، وتضرب الفاوس فى جيبها ، وتتصرف فى الحب ، تبيع منه للجيران ، كبستها يوما تبيع الحطب ، وأدعت أنها مجرد عيدان قليلة ، والجيران لبعضها ، وكم من مرة أمسكها متلبسة بتفتيش جيوب الصدارى .

هى « خربية » ولا تصلح لعيشة ، يكفى هذا منها ، هى تستحق الطرد ، يكفى هذا .. يكفى .

وخرج من الشارع الضيق ليستقبل الشارع المؤدى الى سكة الحديد ، ورأى صاحب معمل العسلية قد ربط كتلتها اللدنة فى مسمار الحائط ، وبدا يمط شريطها الذهبى الدبق ، ويعيد تكويره فى الكتلة ، ثم يشده الى آخره ، فيبرق ذهبها السائل فى الشمس ، والأخرس وقف وراء الرجل ، يرش الماء أمام باب غرزته المفتوحة على « الجراج » وأشار اليه الأخرس ، وهز له يسرى رأسه علامة التحية ، وأفهمه الأخرس باشارات من يده القوية المتوترة ، أن الصبى الذى يعمل معه على العربة بالداخل يقوم بتشطيفها ، وهز له يسرى رأسه علامة الفهم ، ودخل الى ساحة « الجراج » الواسعة ، ووجد الولد شمر جلبابه ، وراح يدلق ماء الدلو على ظهر العربة ، ويمرر عليه الفوطة الصفراء ، والماء ساح تحت العجلات ، وصنع بركة صغيرة .

ــ خلص على ما أوصل مشوار .. خف ايدك شوية .

ودخل فى زمرة المبكرين الى أعمالهم ، جنود ، وطلبة ، وموظفين ، يهرعون فى قافلة جهة بوابة المحطة التى بدأت الانحناء

الى الأرض تلبية لدقات جرس « البلوك » ، لتستقبل قطار السادسة والنصف الذى بدا من بعيد مثيرا للغبار ، دافعا أصواته المجلجلة بين البيوت النائمة ، والركاب المنتظرون ، بدأوا يتقلقلون فى أماكنهم ، ويعدلون مواضعهم ليضبطوا أنظارهم على أبواب القطار .

ولمح يسرى امــــرأة وراء درابزين المحطة ، فــوق الرصيف ، ملفعة بطرحة سوداء ، وتنظر اليه من تحت نسيجها الخفيف ، واستدارت فجأة جهة « البلوك » فاضطرب قلبه ، ولم ينظر جهتها ثانية .

هل هى سعدية ؟

ولو .. لن أطاوع قلبى ، واذهب اليها ، على أن أكون رجــلا فى كلمتى .

وانحنى بجسمه تحت عمود البوابة ، ومرق من أسفلها ليمرفوق القضبان المغروسة بين القوالب السوداء ، وامتلأت اذنه بأصــوات الوابورات تحت آنية الزيت المغلى ، وامتلأ أنفه برائحة الطعمية ، ودخل فى زحام الشارع الكبير ، حيث التلميذات تجمعن فى ركن أسفل سور المحطة بانتظار أتوبيس المديرية ، والفواعلية انتشروا على كراسى مقهى الحاج « محيى » يشدون انفاس الجوزة بشــوق شديد ، ويفكون الأوراق عن سندوتشات الطعمية السخنة وبائع الجرائد رقد تحت أقدامهم يفك ربط الصحف ، ليرد لهفة النــاس الذين وقفوا حوله مادين أيديهم بالقروش .

هل كان نداؤها هــذا الذى تردد فى أذنه عنــد مروره فــوق القضبان ، أم تهيأ له ؟ سمع اسمه يردده صوت أنثوى بعيــد ، تجاهله فى حينه ، وان كان جسده قد انتفض له ، أكيد تهيؤات .

لو ســـــعدية كانت قد جرت اليه ، واقتربت منه .

وحتى يقطع الشك باليقين نظرمرة واحدة، الى الوراء ، كانت النظرة خاطفة وسريعة ، لمحت شبح امرأة ترتدى السواد ، وتغطى وجهها كله بالطرحة ، وتركن ظهرها فى ضوء الشمس بالقرب من كشك بائع الفاكهة ، وداس على قلبه ، ودخل الشارع ليستقبل دار جده .

دار الجد :

كم تغير هذا الشارع العريق ، داسته أقدامه اللينة فى صباه البعيد ، لما كانت أمه تتركه النهار كله مع الخالة الشابة ، فتطعمه ، وتسقيه ، وتحممه ، وتتبادله النسوة ملاعبات مداعبات اكراما للجد ، شيخ الخفراء المهيب ، الذى يحمى لهن دورهن تحت ستر الليل ، وهاهو يتدحرج فى حفرة فى سن الرجولة المنقضية ، كم تغير ؟ لقد سقطت أسنانه جميعا ، وركب مكانها عدة صناعية ، تعاون فى قضم اللقمة الصعبة ، ونشف هيكله ، وجف منه اللحم ، وصار يتلخلخ فوق نعل عال ، لا يقيه السقوط فى دحرجة الشارع المنحدر الى أسفل ، وكان من خمسين عاما يحبو على ترابه ، فوق طبقة انطمرت تحت حوائط الدور القديمة ، لقد زالت هذه الدور ، وانقصفت جذوع الشجر الذى يقوم على مجرى ماء كان يهبط فى منتصف الشارع .

كم تغير ؟ كم تغير ؟

سافر الناس ، وجلبوا المال ، ليهدموا ظلمات الدور الواطئة ، ويقيموا غيرها بالطوب الحجر الذى يتشرب لهيب الصيف ، ولا يحمى من برد الشتاء وعاند يسرى وأبى أن يركب مركبهم ، وقال « السن لم يعد فيه الكفاية للشحططة فى بلاد الناس » .

وهذا مصيره ، دار قديمة بثلاث حجرات ، لا يملك منها غير نصيبه من أمه ، وبعض القراريط من أرض الاصلاح المؤجرة من الدولة ، سافر الناس ، وعادوا ، وكأنما تركوا قلوبهم هناك ، وصاروا أشباحا ، فقدت روحها ، ودفئها .

وبقيت أنت يادار الجد ، كما أنت بدفئك ، وحنانك .

مازلت تضمين هذه الخالة الطيبة التى فقدت كل شىء ، ولم تفقد قلبها .

وهذا الخال الذى ترس رجله فى الأرض بعناد ، ورفض أن يلعب اللعبة .

هاهو يظهر بين ضلفتى الباب ، ومازال محنيا على الفأس بجدارة ، يقلقل سباخ الزريبة ليخصب به الأرض ، وكأنه لم ينم الليل ، من راه يظن أنه فى عمل منذ عشاء البارحة .

ــ صباح الخير ياخال .

ــ اهلا .. صباح النور .

وعلى قدر ترحيبه الشديد بالزيارة المفاجئة بقدر انزعاجه أن يكون وراءها خبر السوء واراد أن يطمئن على عجل ، فوقف مدليا الفأس الى جنبه فى تراخ : خير !

وابتسم يسرى هاشــا فى وجه خاله : خير ان شــاء الله .

وركن على الحائط بجوار حوض الحنفية ، وراح يتأمل هــذا الوسع ، تنتشر فيه فوضى كثيرة ، عشة الفرن ، الزريبة بحوائطها المتبقية من الدار القديمة ، وحجرة أخرى قديمة ، غطست فى الأرض التى ارتفعت فتساوت بنهاية الشباك وبأطراف البــاب الخشبى الذى طقت الوأحه كأنما داست عليها قدم مارد جبار ، والماعز ربطت فى آخر بروز من حديد الشباك المطمور ، وصناديق الحب ، وسلك منشور عليه خرق بالية ، هى أثواب أولاد وبنــات الخال ، وجلباب لخالته ، كان لأخيها زوجة العم الكبير محمــد ومنحته اياه بناتها حبا فى الخالة ، ودواما لذكرى الأم المحبة لها .

ومرتفع عن الأرض تنتصب عليه حجرتان مبنيتان بالطــوب الأحمر ، دون دهاكة ، يركن يسرى على أحــد حوائطهــــا ، يتابع الخال الذى عاود الضرب بالفأس على طبقة السباخ التى شاع منها بخار دافىء . ـ

اقعد لنشرب كرسى دخان .

ــ خالتى فين ؟

وأشار الخال الى أعلى ، نحو الحجرة الأولى ، فارتقى اليهــا يسرى وقبل أن يدخل الى الخالة لمح زوجة خاله أمــــام الوابور عليه براد شاى أسودت جوانبه ، وعلى جانب من فخذها انحنت ابنتها الصغيرة بمريلة المدرسة ، وسلمت شعرها للأم التى راحت تمرر فيه مشط الخشب ، والبنت تتألم ، والمشط يشتبك بتجعيدات الشعر الأكرت ، والبنت تصرخ من الألم ، والام تضربها بقبضــة يدها على ظهرها ، لتسكتها ، وتلومها لقلة اعتنائها بشعرها .

ــ صباح الخير يامرآت خالى .

ــ صباح النور .

ودخل الى خالته التى تملأ بسمنتها ربع المساحة ما بين الكنبتين والسرير ، ترتدى جلبابها المتسخ الذى بدا بلون الأرض الموزع عليها نعال أولاد الخال الراقدين بكسل فوق الكنب ، يتبــرمون من

اسيقاظهم المبكر ، ويرغبون لو يستكملون نومهم بين الألحفة القديمة المبعثرة باهمال ، فى كل مكان .

ردت الخالة على تحيته ، واستمرت فى عملها ، تقطع الخبز اللدن نصفين ، وتهب عليه بكرتونة ، فوق جذوات الكوالح على قصعة واسعة .

ولمح يسرى فى الركن صورة لجده ، ضاع أطارها المذهب ، وحجمها الكبير بين قوالب الطوب المسودة ، كان الجد يقف بالقرب من جدار بانت عليه خربشات أولاد صغار ، وقف كواحد من أبناء هذا الزمان البعيد بشاربه الأبنوسي الأبيض ، ولبدته المحبوكة ، والبارودة بانت أطرافها خلف جلبابه الأسود السابغ الى أطراف قدميه ، فلم يبد منه غير طرف صغير من البلغة .

ـ أخيرا كبرتم صورة لجدى .

تأملت الخالة الصورة مليا ، ونسيت عملها ، وكأنما تراها لأول مرة ، وكأنما شعرت بفخر مفاجيء لأهمية انجازها الكبير ، لأنها هى التى احتفظت بأصل الصورة منذ وفاة أبيها ، تحت مرتبة السرير ، مع الكثير من الأوراق الغامضة ، وكان قلبها يهفو لوضع الصورة فى أطار ، وتعلقها على الحائط ، لتعيش فى ونس الأب العظيم ، ولكنها اكتفت بحفظها تحت المرتبة ، والعودة اليها كلما ضاق بها الحال ، أو كلما اختنقت بالبكاء ، حينما تحاصرها الأيام الصعبة التى اسلمتها الى خدمة زوج أخ لا ترحم ، والحياة فى كنف اخ طيب ، قليل الحيلة ، لا يقدر أن يهس زوجته الشرسة عنها ، فيأتى عليها ، ويسبها ، ويبرطم بكلام غير مفهوم عن أكل العيال ، والعلة الكبيرة الكابسة على أنفاسه .

تنسحب الى حجرتها ، وتغلق عليها الأبواب ، وفى غبشة انوار الشباك المقفل ، تتأمل صورة الأب ، وتبدأ تشكو له أحوالها ، وتذهب بعقلها الى أيامه الزاهرة ، حتى جاءت لزيارتها ابنة عمها التى تزوجت تاجر الأسماك بالزقازيق ، وكان بصحبتها أبنها الذى عاد من العراق ، بعد أن فتح الله عليه ، وملأ عددا من شرائط « الكاسيت » بغنائه الذى يحى به الأفراح فى أنحاء المديرية ، وحكى لها الولد الذى أطلق شعره فغطى أذنيه وقفاه ، وتدلت على شعيرات صدره سلسلة ، كانت تظن الخالة ـ الى وقت قليل ـ أنها من خصيصة زينة النساء ، حكى لها أنه الآن بعد أن انتشرت شرائطه ،

وصار مغنيا مشهورا فى مدينته ، استطاع أن يفرغ الدور الارضى من بيتهم والذى كان يشغله مع زوجته قبل تطليقها ، ويفتح فى احدى غرفه « كوافير » للسيدات ، وفى حجرة أخرى « استديو » للتصوير ، وهو يريد أن يلتقط الصور لأفراد العائلة جميعا .

وسأل هو من نفسه : كيف لا تعلق على حوائط بيت الجد صورة له ؟ وفى الحال سحبت الخالة الصورة من بين أوراقها ، ونظر اليها الولد حزينا ، وكأن الجد قد رحل البارحة ، وقبل وجه الصورة ، وقال متنهدا : سبع والله .. سبع .

وعد الخالة بانه سيعود بها بعد يومين مكبرة ثلاثة أضعاف ، وسيضعها فى اطار كبير مذهب يليق بمكانة الرجل ، فكانت هـذه الصورة .

وعلق يسرى على حكاية الخالة : والله كتـــــر الف خيره .

ودخل الخال يفرك يده ، ليسقط فتافيت سباخ صـــغيرة وممطوطة كقطع العلق من راحتيه ، وأعاد الترحيب بابن اخته : يامرحبا .

وفرش الشوال بجوار الباب ، ودفعت اليه الخالة القصـــعة بعد أن طوت الأرغفة فى خرقة قديمة ، ودفست فى بعضها قطعتين من الجبن وطبقا من مخلل الكرنب واللفت فى منديل محلاوى .

وقالت له : غداك .

وهز لها الخال رأسه ، وأخذ يحرك جذوات النار الخامدة ، ونفخ عليها من فمه ، فراحت تطقطق ، وتصحو حتى اتقدت تماما ، وخرجت منها نار صغيرة بيضاء ، وسحب الجوزة من بين الكنبتين ، وبدأ يرص ، ودخلت زوجته بأكواب الشاى ، ورحلت البنت الى مدرستها بصحبة أخويها ، والخالة راحت تنقنق على مهل لقيمات صغيرة مغمسة بالجبن ودقة السمسم ، ودارت الجوزة بين الخـال وابن أخته .

وتكلم يسرى واســـتمع اليه الخال بين غلالة الدخان التى شملتهما ، وقص يسرى ما حدث البارحة ، عنـد قـدوم اختـــه مع زوجها ، وشـــجار سعدية معها ، وطرده لها ، ونيتـــه فى تطليقها ، لانها لم تعد تصلح له ، وقال الخال : حرام .. لك ولية .

وعلقت الخالة : من حقه أن يكون له ولد .

وأكد يسرى على كلام الخالة مشيرا الى أنه لم يعش بها كل هذه المدة متعلقا بسواد عيونها : ولكن ياخالة كما ترين اليد قصيرة .. و ..

وقالت الخالة : أختك تساعدك .

ونظر « يسرى » يده بعيدا ، وهو مستسلم للكحة الشديدة التى دفعت البلغم الى حلقه ، فتلقاه فى منديل ، سحبه من فتحة الجلباب ، وقال : المساعد ربنا .. آلمهم عاوز تكونى مع زبيدة اليومين دول .. حتى يفرجها ربنا .

وقطبت الخالة حاجبيها ، وعاركت اللقمة بين أسنانها المهشمة، بعد أن طقت حصوة ملح فجأة ، فصرخت : آى ..

وشدت القلة الكبيرة الى فمها ، وبدأ يسرى يتسمع للبقبقة بانتظار رد الخالة التى ردت القلة الى مكانها ، ومسحت حول فمها بظاهر كفها ، وقالت : أنا قادرة أتحرك من مكانى .

وأجابها يسرى مداعبا : أجيب العربية وآخدك من هنا .

وقال الخال وهو يدلق الحجر المحروق فى القصعة : الدار لا تستغنى عن خالتك أبدا .. لكن طالما زبيدة لوحدها .. لا مانع .

ونفض يسرى طوله مرة واحدة ، وقال : أستأذن أنا لالحق شغلى بدرى .

واستدار مرة أخرى بعد أن عبر عتبة الحجرة : خلاص ياخالة أعتمد عليك .

وأشارت له بيدها ، وهى تنفض صدرها من قطع الجبن التى تناثرت عليه : اعتمد على الله .

وقام الخال بعد أن أعاد كل شيء الى مكانه ليسحب البهائم الى الغيط ، ورأى زوجته وهى ترفع قفة الخضار لتذهب بها الى سوق البلد ، فاقترب منها ، وعاونها فى تمكينها من الحمولة الثقيلة ، وقال لها : انتظرك .. تخلصى السوق وتفوتى على .

ولم تجب عليه ، تسلقت مرتفع الدار ، وارتعشت القفة فوق رأسها ، ولكنها استطاعت أن تمسك بخشبة المحراث المركون على جنب ، وخرجت من الدار .

والخالة انتهت من فطورها ، وشربت نصف كوب الشاى البارد

المتبقي فى البراد ، واراحت ظهرها الى الكنبة ، وسرحت فى النور المتدفق الذى يملأ الساحة الفارغة أمامها ، وسقط فى روحها صمت الدار ، حتى لم تعد تسمع شيئا غير طنين الذباب الذى استيقظ على سخونة الشمس ، وتراكم بسواده على حصير الجبن المعلق على عرق عشة الفرن ، والذى بدأ يقطر الشرش فى بقع صغيرة أسفله .

ذكرى الجد :

هاقد هدات الدار كالعادة ، وهى تجلس وحدها بين أثاثها الفقير ، تفكر فيما ستقوم به من عمل ، لقد ترهل جسمها ، وانتشر الروماتيزم فى مفاصلها ، فلم تعد قادرة الا على العمل الذى فى متناول اليد ، كاشعال الوابور ، وتحميص الخبز ، وكنس المربع بين الكنبات والسرير ، هدات الدار التى لم تك تهدأ أبدا ، فى تلك الأيام الخوالى ، يوم كانت تزدهر بصاحبها ، وبرفاقه الذين يأتون لزيارته ، من كل القرى القريبة ، يوم كان شيخا لخفراء البلد على سن ورمح ، ابن الأصلاء الذى قدر على الانعزال من بيت العائلة الكبيرة ، فى ظل أبيه واخوته الكثيرين ، والخروج من عزوة الأب القوى الشامخ ، أصل البلد ، وجذرها الأول .

هبط الأب من التل المرتفع الذى يشكل النواة الأولى للبلد ، وعبر سكة الحديد ليسكن هذه الدار القديمة ، وسط برارى ينتشر فيها الغاب ، وتتوزع بين سياجه برك داكنة الماء ، ولم يسبقه الى هذه البقعة غير قبيلة من الغجر حطت رحالها على هذه الأرض البوار ، لأنها لا تقدر على السكن بين أهل البلد ، واكتفت بأن تقيم الخيام على الأرض القفر ، ليسرح رجالها — كل صباح — بصناديق الحديد ، ليصنعوا المفاتيح للأبواب ، وتسرح نسوتها بالدفوف والحمير عليها « الخرج » ليجمعوا الخبز من دور البلد . وينتشرن — حين تقام الموالد — بين حلقات الرجال ليرقصن بخلاخيلهن وحليهن الكثير المتدلى من ثياب مزخرفة بخيوط ملونة دقيقة .

جاء الأب الى هذه الأرض ، قبل مجيء صهره الحاج محمد بمدة طويلة ، واكتفى الأب بمساحة هذه الدار ، بينما امتدت دار صهره على مساحة كبيرة ، اشتملت على حوشين كبيرين ، ودار

طويلة ممتدة بينهما ، تنفتح على ردهاتها الواسعة سبع حجرات كبيرة ، وزعها على أولاده الكبار قبل وفاته ، وانتقلَ بأولاده من الزوجة الجديدة الى الدار المجاورة للطاحونة .

وجاءت الحكومة وردمت البرك ، وحصدت عيدان الغساب ، واقامت السور الحديد ، والأكشاك الخشبية التى انتشر عليهسا الباعة من كل البلاد ، يبيعون أهل البلد القماش والحلى ، والسمك، والفاكهة ، والبهارات ، والفخار .

وهبط الى السوق رجال العزب ونسوتها ، واختلطوا برجال ونسوة البلد ، فانشئت الدور حول أسوار السوق ، وظهر الجامع بمئذنة عالية ، تنادى الناس للصلوات الخمس ووضحت تقسيمات الشوارع الطولية والعرضية ، حتى كان العصر الذى عرف فيه الرجال طريق البواخر والطائرات ، وغادروا ليجمعوا المالَ الذى مكنهم من هدم دورهم القديمة ليقيموا غيرها بالحجر الأحمر والاسمنت ، ولم يعرف الأخ الصغير محمد طريق الموانىء مثلهم ، فاستمر يراعي الأرض التى بخلت برزقها ، واكتفى ببناء هاتين الحجرتين اللتين تقعد الخالة بين جدرأن احدايهما ، ولم يقدر على اكمال باقى المساحة .

وكانت الدار تمتلىء بالخفراء الذين يعملون مع الأب ، ويمدون أياديهم للعمل فى الدار ، وتحاول الأم منعهم عن ذلك ، والأب يزجرها ، ويقول لها : اتركيهم ، وأريحى نفسك قليلا ، ويقوم واحد فيدخل الزريبة ليحلب الجاموسة ، وآخر يخلع اللبدة والجبخانة ليرفع مقاطف التراب من الشارع ليترب تحت الماشية ، وآخر يصعد الى السطح ليجلب الحطب للطبخ ، وكانت تجمعهم مائدة واحدة ، يتحلقون حولها نهمين ، يرفعون الطعام بأصابعهم المتسخة ، ولا يكفون عن الكلام حتي ينتهوا ، فيمسحون شواربهم من آثار الطعام ، كذلك كان رجال المناسر يهبطون الى الدار ، من كل ناحية ، محملين بالهدايا الثمينة للأب الذى يعاملهم كرجالَ حقيقيين ، لا كاللصوص ، كما يرى المأمور والمعاون ، وكانت الأم تحتفى بمجيئهم ، وتعد حجرة الضيوف للنوم ، فتفرشها بأغطية الصوف ، وتمد عليها المرتبة الكبيرة المفروشة فوق الحصير ، وتلمع زجاج المصباح الذى يضاء حتى ساعة متاخرة من الليل ، كانت

أصواتهم القوية تتردد من خلف الباب الذي ينفذ من بين مفاصله الدخان وبصيص النور .

وتقعد هي بين الاخوة تتسمع لحكاياتهم الغريبة ، عن مغامراتهم في القرى حيث ينهبون الماشية والزرع ، وصوامع الحب ، ولم تكن تخشاهم أبدا ، فكثيرا ما كانت ترى نفسها بين ذراعي شيخهم القوي ، ويرفعها الى أعلى ويهبطها الى أسفل ، وتصرخ ، وهو يضحك من صراخها ، ويقول اجمدي يابنت ، ولا تكوني خرعة ، أنت بنت سيد الرجال .

وكانت الأخت بهية التي تزوجت من الحاج محمد تقترب من الرجال ، وتعبث بشواربهم ، وتفك شيلان عمائمهم دون خوف ، أما الأخت الكبيرة فاطمة التي تزوجت من ابراهيم فكانت لا تقترب منهم أبدا ، كانت تنزوى بالحجرة بآخر الدار ، وتقضي نهارها وليلها لا تقترب منهم ، ولاتساعد في الطبخ لهم ، أو في تقديم موائدهم ، وتلوم أباها على زيارتهم المتكررة ، وتقول : مهما يكن فهم لصوص ، ومن الخطر أن تدخلهم دارنا .

ولا يصغي الأب لكلامها ، وظل الرجال يزورونه كلما هبطوا الى البلد .

وتربصت الحكومة للأب ، واتهمته بالعمل مع المناسر ، يترك لهم البلد لينهبوا دور الأغنياء ، وفصل من مشيخة الخفر ، وانتفضت البلد لذلك ، وقام رجالها باشعال الحرائق على مدى أيام طويلة ، ليجبروا المأمور على اعادة الأب الى عمل ، وراح المأمور يجمع جدعان البلد في الحبس ، وقبض على الأب معهم ، حتى دبر له التهمة التي وضعت الحديد في يديه ، ليأخذه القطار الأسود الى بعيد ، وعرفوا أنه نفي الى « الطور » وخلعت الأم نعلها ، وارتدت السواد ، ورفعت تراب الفرن الى رأسها ، وأطفأت كل نار في البيت ، وامتنعت عن الطعام ، وصارت هزيلة صفراء ، لا تكف عن النحيب حتى عاد بعد عام ليعيشا معا شهورا قليلة ، والمرض الذي كان قد ضرب مخالبه في صدرها ، سلمها للموت ، فاغتصبها من بينهم ، بعد عام « الكوليرا » بعام .

والأخت بهية مكثت معهم لا تفارق الدار ، تعاون في غسل هدمة الأب وخلع أخويها سيد ومحمد أما هي فقد رفضت كل من تقدم اليها ، ووهبت نفسها لحياة الأب والأخوين .

وجاء الفرج بعد حين طلب الأب للعمل مع الباشا اليهودى « شديد » وعمل خفيراً على أرضه الواسعة ، وصارت الوسية كأنها ملك له ، يمسك مفاتيحها ويملك حجراتها وحظائرها ونوارجها ومحاريثها وماشيتها ، وكانت كثيرا ما تنتقل مع أبيها وأخويها فى مواسم الحصاد للاقامة الدائمة هناك لتتابع جمع المحاصيل ، ولتحرس الجرن الذى تنتشر فيه عرم القمح الكبيرة ، وكانت تقعد فى حجرة الوسية وحدها بين المرتبة المنشورة على الأرض واجولة القمح تطبخ للرجال ، ثم تسهر على الجرن حتى الفجر ، تراقب الرجال فى ضوء الفانوس المعلق على جذع الشجرة ، يديرون ماكينة الدراوة ، ويرفعون مقاطف التبن من أمامها ويملئون الاجولة بحبات القمح النظيف التى تسقط من مؤخرتها ، كانت هذه الأيام كأنها عيد .. حتى قبض على الاخ الكبير سيد بتهمة العمل مع أحد المناسر الذين قاموا بثقب حائط زريبة أحد الأعيان ، وسحب أبقاره منها ، واطلاق النار على عسكرى الدورية لما أراد منعهم ، وحكم عليه بخمس سنوات ، ونسج الحزن مرة أخرى خيوطه على الدار ، وارتدت السواد ، وقلعت نعالها ، وحلت شعرها ، ولم تقترب من موقد ، وترددت على مصر بصحبة أبيها وبهية لزيارة الأخ السجين ، وكانت الأخت الكبيرة ترفض زيارته ، وتقول: أذلنا .. ومرغ وجوهنا فى التراب ، وهكذا حكم على لتعيرنى السلفة، فأنا أخت الحرامى . وخرج ليفرحوا به ، والأب كان قد وفر له مهر العرس ، وأقاموا العرس عرسين ، ودخل كل من سيد ومحمد على عروسه ، وأحد فى الحجرة الأولى المطلة على الشارع ، والآخر فى المقعد فوق السطح ، وهى وابوها فى الحجرة المواجهة لحجرة سيد .

وعادت أيام العائلة ، تجمعها طبلية واحدة ، حتى دخل الشيطان ، وفرق الأخوين ، وباع الباشا أرضه ـ بعد الحرب ـ ليفر الى الخارج ، وسحبت مفاتيح « الوسية » من يد الأب ، فلم يتبق له غير نصيبه من أرض الاصلاح الزراعى وفدانين بالايجار .

وطلب سيد العزلة ، فحصل على نصيبه من أرض الاصلاح ، وبقى محمد فى معاش أبيه حتى انتقل الأب الى رحمة ربه

الواسعة ، وطالب سـيد بنصيبه من الدار ، فحصل عليه نقدا ، وكتبت هي نصيبها لـ « محمد » لتضمن العيش معه ، بين زوجته وأولاده ، وسـافر سيد مع المسافرين ، وابتاع الأرض التي أقام عليها دارا جديدة . وهاهي تقضي شيخوختها بين أولاد الأخ الأصغر ، تأكل لقمتها ، وتشرب شربتها حتى يتذكرها ربها الذي نسيها كثيرا .

— ٦ —

زوجى العزيز :

مشتاقة اليك جدا ، ومشتاقة الى شقتنا التى أوحشتنا كثيرا ، والى كل جيراننا الاعزاء ، « أم توتو » و « عايدة » و « توحة » فبلغهم جميعا سلامى .. أنا آسفة ياحبيبى لتقصيرى فى خدمتك وتركك وحدك فى الشقة تقوم بكل العمل ، فماذا تفعل ؟ هل تتعب كثيرا فى اعداد لقمتك ، وفى غسل ملابسك ، واعداد سريرك . ارجو أن تتحمل قليلا ، فأنا لا أكف عن الدعاء الى الله ليشفينى ، وأعود اليك لنعيد أيامنا البهيجة التى لا تنسى أبدا ، فأنا أحافظ على تناول دوائى ، واذهب بشكل دورى الى الطبيب ، بصحبة اخى «يسرى» وخالتى ، فهى تقيم معى الان ، وتحاول المسكينة أداء كل خدماتى ، فهى كما تعرف طاعنة فى السن ، وهى تحاول على أقصى ماتستطيع ، و « يسرى » لايجعلنى احتاج لشىء ، وهو يدفع الكثير من أجلى ، فلا تنسى أن ترسل الحوالة على أول الشهر القادم ، كما اتفقنا ، حتى لا أشعر أننى عبء ثقيل على أخى ، الذى ضحى بطرد زوجته حين عرف أنها اهانتنا .

أتمنى لك السعادة ، وادعو الله أن يأخذ بيدى ، فى القريب العاجل ، فيجتمع شملنا .

وقبلاتى الحارة

زوجتك المخلصة
زبيدة
الجزيرة البيضاء ١٦ مايو

زوجتى العزيزة

يعلم الله مدى الشوق الذى يشتعل بصدرى لك .

أنا هنا أعانى الوحدة ، ولكنى احاول التغلب عليها ففى الصباح اذهب الى المدرسة للمراقبة فى امتحانات آخر العام ، واعود لاسخن الطعام الذى أكون قد طبخته ليلا ، وأتناول لقمة سريعة ، وأقضى ساعتين فى فراشى ، قد أنام وقد لا أنام ، بعدها آخذ حماما ،

وارتدى ملابسي . وانزل حيث اسلى نفسى بجلسة الاصدقاء ، وهم يسألون عنك ، وانا اقول لهم ، انها « تغير جو » فى بلدها ، وبين أهلها ، واقضي بقية الليل امام التليفزيون ، حتى نهاية الارسال .
وانا أريد ان أقول لك ، لاتهتمي بى كثيرا ، واهتمي بنفسك ، فهى الاولى بالعناية ، لاتنقطعي عن الدواء ، ولا تنقطعي عن زيارة الطبيب ، فعملية « البزل » ضرورية لاستخراج الماء الراشح فى الرئتين ، وانت ادرى بذلك . الحوالة ستصلك حالا ، وهى بمبلغ ٢٥ جنيها ، ربما يكون المبلغ قليلا ، وارجو الا تحزنى لذلك ، فسأحاول أن أرفعه فى وقت لاحق .

اهتمي بنفسك ، وسلامى الى جميع الاهل ، والى الخالة ، والى الاخ « يسرى » سلامى الخصوصى .

زوجك
كمال
الاسكندرية فى ٢٨ مايو

زيارة طويلة :

استيقظت زبيدة مبكرا ، فوجدت فراش الخالة شاغرا ، فعرفت أنها قامت فى الفجر ، وسحبت جلبابها الاسود وشاشها ونعلها ، وغافلتها حيث حققت طلب الخال الذى زارهم البارحة ، وطالب الخالة بالعودة الى الدار ، لانه بحاجة اليها الزوجة والاولاد سيرافقونه الى الغيط ، وعلى الخالة ان تأخذ بالها من الدار الفارغة ،

وقالت زبيدة : أنا لا استغنى عنها ياخال .

واجابها الخال : ستعود اليك فى نفس اليوم .

ولكنها تعلم أن الخالة متململة من وجودها معها ، وهى تشعر بالغربة فى هذه الدار ، من كثرة انتقادها لملبسها المتسخ ، وقلة عنايتها بنظافة نفسها ، وهى تفضل العودة الى دارها ، لتكون على راحتها ، ترتدى الجلباب طول الاسبوع ، ولا أحد يطلب منها التغيير ، وتأكل اللقمة فى الاوان الذى تحدده لنفسها ، وتختلط بجاراتها حيث تقتعد عتبة بابها ، ويجتمعن حولها ، يثرثرن حول سير الناس ، اما هنا فهى حبيسة الحيطان ، تأكل بخجل ، وتقضى حاجتها بخجل ، وترفع لحمها الكثير الى فراشها بخجل ، ولا يرتاح لها جنب ، ولا تغفل لها عين . وكثيرا ماتنسحب من زبيدة لتذهب

كل عصر الي ابنة اختها زبيدة ام محمد فيفترشان الحصير بالقرب من عشة الفرن وراء حجزة « العدة » ، وتذهب اليها زبيدة فتجدها باشة الوجه ، فرحة بالارض المكنوسة ، وبالقلل الجديدة فى الصينية فوق صندوق الحب تحكي عن ايامها مع الحبيبة الراحلة ، وابنة الاخت مصغية اليها بشغف ، وحب ، وتقعد زبيدة ام ابراهيم معها معزولة وبعيدة ، فهى لا تقدر على مجاراة الخالة كما تفعل بنت العم .

وفردت زبيدة ذراعيها بعرض السرير المتين ، وتمطت فى كسل ، وأراحت ردفيها على جنب ، لتخرج ريحا مكتوما ، يؤلم ماتحت السرة ، وقامت لتذهب الى الحمام ، وهى تلم شعرها المشعث فى منديل .

ـ الله يسامحك ياخالة ..

ومرت على حجرة يسرى ودفعت الضلفة الموارية ، فرأته متجمعا على نفسه فى السروال والفانلة مستغرقا فى نوم عميق ، ومن انفه يتردد شخير واهن ، وشعر بدفعة الباب فاستدار ليرى أخته بين الضلفتين من عينين مغمضتين لم تتضح رؤيتهما بعد .

وقال : صباح الخير ، بفكيه الاهتمين المخلوع منهما « العدة » التى غمست بماء الكوب الموضوع الى جواره ، فوق « الكومودينو »

وقالت له زبيدة مكشرة : تسحبت خالتك ومشت .

ورد عليها وهو يريد العودة الى نومه : تخلص اشغالها وترجع .

وقالت له محذرة : لا تعود مرة أخرى للنوم حتى لا نتأخر على الدكتور .

ـ فركة كعب من هنا للزقازيق .

●●●

لم ترغب زبيدة فى ارتداء الملابس الملونة القصيرة ، وارتدت الجلباب الحرير الاسود ، ولفت راسها بطرحة خفيفة ، وجمعت علب الدواء فى حقيبة اليد ، وكذلك « الروشتات » الكثيرة ، والجنيهات المتبقية من ايراد الطاحونة للشهر السابق . فالحاج على صار يدق عليها بابها آخر كل شهر ، ويمد لها يده بايرادها ، وصار يكتب لها كشفا خاصا بها كباقى الشركاء ، يوضح فيه المنصرف ، من جاز وسولار واجرة العمال ، واجرة الحداد الذى قام بسن الشواكيش ، ومبلغ لجمعية الطاحونة ، يتبقى للطوارىء ، وغيره من المصاريف ، ويطرحها من الاجمالى ، فيكون صافى الايراد ، وفى ظهر الكشف يقسم الصافى على

ثلاثة اثلاث ، والثلث يقسمه على اثنين ، وواحد الاثنين يقسمه على واحد ونصف ، فيكون الواحد لاخيها ، والنصف لها ، وتحصل على نصيبها ، ويضرب هو نصيب الاخ فى جيبه ، فمدة تأجير أسهم الاخ لم تنتهبعد .

ولا ينسى الحاج ــ كل مرة ــ أن يسألها على سبيل الواجب : محتاجة أية خدمة ؟

وتقول له : شكرا ياعمى .

ويؤكد لها حين يريد القيام : انت تأمرى .

ولم ينس ــ كل مرة ــ أن يشير ــ من بعيد ــ الى رغبتها فى بيع نصيبها ، ويؤكد لها أنه أولى من غريب يدخل بين الاقارب ، فيفرق بينهم ، وينهب منهم طاحونة الاجداد ، فقد عرفوا بها ، وعرفت بهم ، فأخوها المجنون حاول ذلك فى المرة الاخيرة ، وجاء بغريب . مدعيا أنه هو الذى سيزن الامور فى هذه « المخروبة » وهو الذى سيكشف سرقات الحاج التى يأكلها فى بطنه ، ويتمسكن الحاج لابنة أخيه قائلا : أنا الذى يأكلها فى بطنى ؟؟ وماذا أفعل بالقرش الحرام وأنا رجل هنا ورجل فى القبر ؟ أنا أخاف الله ، ولكن أخاك هذا لايراعى حرمة ، ولا يحفظ للسن وقاره ، فاطلبى اليه أن يلم لسانه ، لايعقل أن يجلس غريب على ميزان الطاحونة .

وتشير ابنة الاخ بسبابتها على عينيها ، وتقول لعمها بكل الاحترام الواجب : من عينى .

وتتساءل فيما بينها : لماذا لا يأتى الحاج بالايراد الا حين يكون يسرى غائبا ، لم يأت يوما فى حضوره .. أبدا ؟.

وسمعت صوت موتور العربة ، وجاء صوت « الكلاكس » من الخارج ، فقامت تغلق حقيبتها ، وتضع منديلها الصغير على نمهـا ، وتخرج من الحجرة بظهرها ، وفتحت الباب الكبير لتجد يسرى داخل العربة ، أمام الباب بالضبط ، يخرج رأسه من النافذة الاخرى ، ويزعق فى نسوة رحن يجرجرن حميرهن على استحياء جهة الحوش ، والحاج على فوق الفروة مشغول بكتابة الاوراق ، ولا يلتفت الى زعيقه .

ودخلت زبيدة العربة ، وصاحت فى أخيها : هل .. كف عن الصراخ .

والتفت اليها بوجهه الاحمر المزرود ، والعرق يتصبب بين تجاعيده الكثيرة : يعجبك هذا ..

احد النسوان وقد ربطن الحمير فى قضيب الشباك والحاج قرد لا يتحرك ، ولا يمنعهن عن ذلك .

وقالت له مهدئة : معلش .

وقال وهو يضرب يده المعروقة على عجلة القيادة : ايوه .. ولا على باله .. وهو يريد أن تتطربق على رءوسنا .

ومرت العربة بطيئة أمام الحاج ، وبصق يسرى من النافذة بغل ، وخبطته أخته على كتفه بخفة : عيب .. عمك برضك .

وصرخ الاخ بعصبية : عما الدبب .

وانحرفت العربة الى الشارع العرضى ، تطلع مرتفعاته ، وتهبط منخفضاته ، وتقلقل الجالسين على كراسيها الطرية ، ويسرى يصرخ فى كل عيل يمر من أمامه ومن جنبه ، وشخط فى بائعة الكرشة القاعدة على فراشها على ناصية الشارع ، وقامت المرأة مذعورة ، ترفع الطشت الذى تسبح بمائه الدامى الفشة والكرشة والمصارين ، وتدفع الدكة المرقمة بمائة خشبة ، أسفل الترابيزة ، وتشير اليه بكف يدها : حاضر .. حاضر .. وزبيدة توترت أعصابها لانفعالات أخيها ، وقالت فى سرها : ربنا يستر .. ويعدى هذا النهار على خير .

٥ ٥ ٥

صهريج المياه يرتفع عاليا ، فوق سيقان طويلة تنفرج من أسفل ، حيث تنغرس على قواعد أسمنتية بين حشائش خضراء تناثرت فى أحواض صغيرة ، وتضيق كلما ارتفعت ، حتى تصل الى الجسد الاسطوانى الهائل الذى يدور بعيدا ، ويعلو على كل العمارات المرتفعة ، وتبرز منه نوافذ صغيرة مغلقة ، لا يطل منها أحد ، وحول المساحة الدائرية التى تتوزع فيها أحواض الحشائش ، ينتشر صف من « البوتيكات » التى أنشئت حديثا ، تسقط مظلاتها على الواجهات المعلق على شماعاتها المعاطف والقمصان الرجالى ، والملابس الحريمى الملونة ، و « الكمبلوزنات » التى راحت نسمة الهواء الخفيفة تهفهف فى نسيجها الشفاف ، وتتكدس على طاولات عريضة ، أمام الابواب الضيقة أحذية للرجال والنساء والاطفال ، وحقائب من جلد صناعى ، ومن نسيج صناعى .

وقفت العربة « البيجو » على الطوار المقابل لاحدى هذه « البوتيكات » ، ونزل يسرى ليفتح الباب لأخته ، وأخذ بيدها ، وهى نزلت تلملم طرحتها على وجهها الذى كشف نور شمس الضحى شحوبه الزائد ، وأحكمت وضع منديلها الصغير على فمها ،

ومشت تترنح على الطوار أمام أخيها ، وهو تأمل عودها ، ومصمص بجانب فمه مشفقا على أخته التى جف هيكلها ، ومالت أكتافها الى الأمام ، وتسير بخطو واهن عجوز ، ورفعت يدها الى اللافتة المعلقة على شرفة بالدور الثالث ، وأخفت براحة يدها الشمس التى بصت عليها فجأة من وراء اسطوانة الصهريج ، وقالت لأخيها : اطلع معى لتسندنى ، السلم فظيع .

ودخلا من البوابة الحديد التى أكل الصدأ أطرافها ، ورقد التراب الناعم على زهور « اللوتس » الحديدية الموزعة بين القضبان الملتوية ، واستقبلا طراوة المدخل ، وامسكت زبيدة بذراع اخيها من عند الكتف خوف السقوط على رخام السلم الذى انبرت درجاته من الوسط ، على جانب السلم مكان لمصعد معطل منذ عهد بعيد ، ولم يتبق منه غير صندوق مهشم ، ركنت أبوابه على ظلامه المقيم ، وأمسكت زبيدة بحديد السلم ، وبدات تنقل قدمها درجة فدرجة ، ويسرى الى جوارها ، يسير على خطوها الهين ، حتى دخلا من الباب الخشب الذى برز تحت شراعته راسان لوحشين فتحا شدقيهما على آخرهما حتى بانت الانياب الحادة على الشفتين المشقوقتين ، ولمبة « النيون » تسقط ضوءها الحليبى على سيدات يرتدين السواد ، قعدن على كراسى من الخشب الرقيق مدهونة بـ « لاكيه » أبيض ، تعرت قشرته فى كثير من الجوانب ، كانت النسوة ساكنات يطردن الذباب عن وجوههن ، وينظرن جهة حجرة الكشف المغلقة التى قبع الى جوارها رجل ضخم بشارب كثيف يرفع أنفه الغليظ المدفوس بين عينين شريرتين اقتربت زبيدة من الرجل الذى يرتدى القميص الابيض المقلوب ، وحادثته همسا ، وظل يسرى عند الباب يرقب ظهر أخته ، وهى محنية أمام الرجل تدفع له الاجر ، وتستلم ورقة جعلتها بين يديها وهى تحادث يسرى وتطلب منه الانتظار على المقهى ، لانها تعلم أن عصافير مخه تزقزق من أجل كرسى الدخان على أن يعود اليها بعد ساعة .

وهبط يسرى السلم ليخرج من طراوة المدخل ، ويستقبل الضوء الذى لم تقدر عينه على مواجهته ، فأغلقها لفترة ، ثم فتحها تدريجيا ليرى المقهى المقابل تنتشر بعض كراسيه على الحشائش الخضراء القصيرة ، وراء سور الصهريج الحديدى المنخفض ، اشترى الجريدة من البائع الذى نشر صحفه ومجلاته على الطوار أمام مدخل العمارة ، واتجه الى احدى الطاولات المعزولة ، يظللها جدار احد

« البوتيكات » ، وصفق للرجل ، الذى قدم فى الحال وطلب منه قهوة مضبوطة و « بورى » نظيفا ، ودس وجهه بين صفحات الجريدة ، يطالع العناوين الرئيسية .

●●●

لمحها تقف بين حديد البوابة تبحث عنه بعينيها القلقتين ؛ فطوى الجريدة ، ودفع الحساب للجرسون ، وتخطى الحديد الذى يسيج أحواض الحشائش ، وعبر الشارع المسفلت ، فانتبهت اليه ، وأقبلت نحو العربة تفتح بابها وهو قعد وراء عجلة القيادة ، يسوى سرواله من أسفل ، « ويفك اختناق محاشمه » ، وزبيدة ظلت صامتة ، سارحة الفكر ، مهمومة بشيء غامض ، فمال عليها بوجهه وهو يدير مفتاح « المارش » : هه .. خير ؟

فاستعادت ذهنها من سرحاته ، وانتبهت الى وجود أخيها الى جوارها ، فروحت بمنديلها الصغير على وجهها ، ومسحت حبات العرق عن جبهتها ، ونفخت من صدرها هواء محبوسا : الجو نار .

وعلق يسرى على كلامها : لما العربية تمشى يتلطف الجو .

وعادت الى صمتها ، وتحركت السيارة ، لتدور حول الميدان ، وتخترق الشارع العريض الذى تنتشر البواكى القديمة على جانبيه ، يحتمى فى ظلها رهط من الرجال والنساء استغرقتهم الحملقة فى زجاج « فترينات » محلات الاحذية والاقمشة والملابس الجاهزة ، وقطعت السيارة شارع المديرية بالعرض ، حيث تتجه الى شارع الترعة الجديدة .

وحاولت زبيدة الانشغال بمتابعة مشاهد الشوارع التى تمر بها ، على يمينها الرصيف الواسع الذى قعد بعض المصورين فوقه ، على كراسى صغيرة يراقبون المارة ، ويروحون بالجرائد على وجوههم ، وبعضهم أخفى رأسه داخل كيس « الكاميرا » الاسود ، ليلتقط الوجه المثبت أمام الشاشة السوداء المعلقة على الجدار المقابل .

وعلى يسارها رات أكشاك الخشب التى يقبع فى ظلها رجال كبار السن يحفرون الاختام الحديدية ، أو يبيعون التمغات أو يكتبون العرائض والبلاغات ، وبالقرب منهم انتشر بائعو الطيور خلف الاقفاص التى رقد على سطحها البط والدجاج والحمام .

وسألت زبيدة أخاها عن الصفوف الطويلة من الفلاحين المتكالبين على طاقة صغيرة مظلمة ، مفتوحة فى احد جدران المديرية ، فقال أخوها متصعبا : مصلحة الجوازات .

وسالها مرة أخرى عما قاله لها الطبيب ، فأجابت باقتضاب زى كل مرة .. بس طلب يشوفنى على يومين ورآء بعض .
ــ بسيطة أوصلك بكره وبعده .
ــ ولماذا تتعب نفسك ؟
ــ ولا تعب ولا حاجة .
ــ انا افكر فى زيارة الحاجة انيسة ام محمد واقعد معها اليومين .
ــ والله فكرة .

● ● ●

لفت السيارة حول ميدان « الكوبرى الجديد » وصارت الان بمحازاة موقف السيارات واشار يسرى لسائق من البلد ، يقف تحت الشمس ، مرتكزا على بوز سيارته ، واقبل جهته ليسأله : تشحن البلد ؟ وقال له يسرى : اوصل مشوار ، وارجع اشحن . ومرقت السيارة بخفة من بين الزحام ، لتدخل شارع « الحمام » الذى ينتصب على ناصيته جامع « الشربينى » العريق الذى أعيد بناؤه ، فصار له مدخل رحب ، مسور بسياج مرتفع من الحديد ، مدهون باللون الاخضر ، وصار لمدخله أعمدة مرتفعة ، ونوافذ مغلقة بتعشيقات من خشب سميك ، ومئذنة نحيفة ، تسمق فى الفضاء ، وترمى ظلها الممتد ، وسط الاسفلت ، وفوق سور سكة الحديد ، ولمحت زبيدة عادل يقف أمام دكانه ، ساندا على الكراتين المصفوفة ، ويعبث بأصابعه الطويلة فى فتحة أنفه الطويل ، وانتبه اليهما داخل السيارة ، فانحنى بقامته الفارهة على النافذة ، ومد ذراعه الى الداخل ليسلم عليهما .

وسألته زبيدة وهى ترحب به : ماما فى البيت ؟.
قال : أيوه .. انزلا اشربا حاجة ساقعة .
وشكره يسرى الأن عليه أن يوصل اخته ، ويعود الى مشاويره. فهو لم يرزق من صباحة ربنا ، وتحرك بالسيارة ، ليدخل الى الحارة الضيقة ، المسفلتة بحجارة سوداء بارزة ، وجاهد فى الدخول الى الحارة ، غير أن عمود النور الواقف على أول الشارع منعه من ذلك .
فنفخ بغيظ ، وقال لأخته : انزلى هنا .
وفتح لها الباب ، وهى مدت رجلها على مهل ، حتى لامست حجارة الشارع ، وسارت مصعدة فى الحارة المرتفعة قليلا عن الشارع العمومى ،

ولم تلتفت الى الوراء ، حتى صاح يسرى : ارجع لك بعد كم يوم ؟

وأزاحت يدها فى الهواء ، وهمهمت بكلام ، لم تلتقطه اذن يسرى .

فصاح مرة أخرى بسؤاله ، فالتفتت اليه بوجهها السرقان : لما ازهق أرجع البلد .

واختفت فى الشارع الضيق ، وحاول يسري الرجوع بظهره ليحتويه الشارع الواسع .

ودعت عند المدخل الضوء الباهر ، والحر الشديد ، واستقبلت الدرج الضيق الذى تلتف درجاته المثلثة بالتواء مفاجىء ، يرهق الصاعد عليه ، وعلى بسطة الدور الرابع ، وقفت قليلا ساندة ظهرها الى الجدار لتلتقط أنفاسها ، وتضبط لهاثها العنيف ، ثم دقت الجرس ، وخرجت اليها ابنة العم فى جلباب خفيف ، وبيد مشمرة ، تقبض أصابعها السمينة على مغرفة ، يلمع الدسم على حوافها ، وتغيرت سحنة الوجه العريض المهموم بعمل اليوم ، وارتاحت ملامحه للضيف غير المتوقع ، وفردت ذراعيها على آخرهما ، فارتمت زبيدة بينهما ، واحتضنت الصدر الكبير : أهلا .. أهلا .. مفاجأة والله .

واعتذرت عن خروجها المتجهم ، حيث انها من الصبح بانتظار مصطفى الذى ذهب الى الفرن ليحضر قفص الخبز ، وهذا اللكع لم يعد بعد ، وموعد غداء سيده أزف ، وهو أبدا لا يراعى ، وحكت لها زبيدة انها فى زيارة للطبيب ، وبما أنها هنا ، فلا يفوتها زيارة ابنة العم الغالية .

ورفعت بعض الملابس والفوط الملقاة على كراسى « الأنتريه » ، وخبطت بها على تنجيدها قبل الذهاب بها الى الداخل ، وقالت لضيفتها : تفضلى .

واختارت زبيدة الكرسى المواجه للباب ، حيث اسلمت وجهها للمروحة الموضوعة فوق صندوق التليفزيون ، واستسلمت أنفها لرائحة الطبيخ القادمة من الممر المعتم ، ممتزجة برائحة الأثاث ، ودهان الحائط ، وراحت عيناها تتجول فى المكان ، فأكدت لنفسها ان الاشياء كما تركتها آخر مرة ، السفرة فى الحجرة المفتوحة على الصالة ، يلمع مفرشها السميك فى النور النحيل الساقط عليه من شيش النافذة البحرية ، وكمية الضوء كافية لاستجلاء دولاب الصينى و « الشفونيرة » الضخمة ، بخشبها الغليظ ومرآتها التى انتشرت

على سطحها خطوط سوداء وباب حجرة الصالون كان مفتوحا ، فرأت جانبا من الكراسى ، وقطع الكرستال المدلاة من الثريا الكبيرة ، فوق المنضدة البيضاوية ، فبعث هدوء المكان ، وهواء المروحة ، ونفس الشقة الأليف ، والضوء الخفيف السكينة فى روحها ، فارتكزت برأسها الى الخلف ، وثبتت عينيها فى نجفة الصالة الملونة ، وعادت الحاجة مرحبة : يا ميت مرحبا .

ووضعت أمام « زبيدة » كوبا طويلا يمتلىء الى حافته بعصير الليمون .

وقالت لها : بلى ريقك .

وسألتها متلهفة : بتعملى ايه عند الدكتور ؟.

وقالت لها زبيدة وهى تمسح جوانب فمها : بعافية شوية

وقالت الحاجة : ألف سلامة .

واستأذنتها لتصعد الى السطح ، لتلقى نظرة على الدجاج ، لأنه لم يطعم شيئا من الصبح ، ذلك ان مقصوفة الرقبة سكينة لم تأت اليوم ، وارسلت ابنها لتعتذر ، وتقول أنها مريضة ، قامت الصبح من نومها ، فوجدت جنبها وكأنما دقت فيه عشرات الأسياخ المحماة ، ولعنت الحاجة ـ قبل صعودها الدرج ، هذا الزمن الذى أحوجها لأمثال سكينة فالخدم صاروا ملاعين ، ليسوا كخدم الأيام الماضية ، أيام كانت تمسك الواحدة منهن من جدور شعرها ، وتمسح بها البلاط ، ولا تنطق بكلمة « اليوم الواحد منا يداديها ، ويراعيها ، ويدفع لها الأجر المرتفع ، ثم تصطنع الدلع ، ولا تقوم بواجها ورأت زبيدة ظهرها المريض ، وردفيها الضخمتين ، وهى ترفعهما الى أعلى بآخر ما عندها من قوة ، فطقطقت بجانب شدقيها ، وقالت لنفسها : مسكينة .. هاهى تعيش شيخوختها فى مجاهدة عنيدة ، هذه المرأة التى كانت تتمرغ فى العز ، لقد ودعت النعيم يوم ودعت زوجها .

ورفعت زبيدة عينيها لترى الحاج فى صورة كبيرة باطار مزخرف بماء الذهب ، يقف تحت الشريط الاسود الذى يقطع أحد أركان الاطار ، بجلبابه البلدى السابغ ، تعلو وجهه ابتسامة حلوة مهيبة ، وتلقى عيناه نظرة سمحة وطيبة ، فيها وقار محسوب ، أضفى عليها الشعر الرمادى وقارا على وقار ، فكان فى مجمله ، بطوله ، وجلبابه الفخيم ، وشعره ، وبسمته ونظرته رجلا تتمناه كل امرأة ، لأنه يوحى بالحماية والاحترام . هذا الرجل الذى بدأ من الصفر ارتبطت به ابنة العم وهو يسرح بالعربة « الكارو »

بضاعته فى أسواق القرى القريبة من المدينة ، يبيع الناس الصابون والحلوى والابر والسكر والشاى ، حتى جاءت حرب « هتلر » ، وفجأة عم الخير من كل جانب ، فصارت العربة « الكارو » دكان بقالة يبيع بالجملة ، وامتلك المخازن الكثيرة التى تشحن فيها البضائع من كل صنف ، تحملها اليها سيارة نقل بصندوق كبير ، تسافر الى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، لتجلب السمن والمكرونة والجبن والمشبك ، وابتنى هذه العمارة العالية ، واشترى قطعة أرض ، حجزها للأولاد ، وبعد الثورة شارك صهره الحاج محمد فى الأرض الزراعية ، التى ابتاعها من الباشا « شديد » امتلك منها ثمانية افدنة ، ونصف العزبة ، ولما رحل ـ فى هذه الليلة التى لا تكف ابنة العم عن سرد وقائعها ، بعد أن سقط فى منتصف الليل عند حوض الحنفية ، وجرح جرحا خفيفا فى جبهته ـ تفرق الأولاد ، فالأكبر يسكن القاهرة مع زوجه التى تعمل باحدى شركات الطيران ، فى شقة حجزها له أبوه قبل وفاته بعامين ، والبنات تفرقن مع أزواجهن فى بلاد العرب ، ما بين الكويت والسعودية والامارات ، وفرغ البيت ، فبقيت الحاجة وحدها مع ولدها الأصغر ، الذى ترك معهده ليدير محل أبيه ، ويساعده حسن الطامع فى خيرهم ، والولد رغم أنه لم يرغب أبدا فى وجود خاله الا ان الحاجة أجبرته على ذلك بالقوة ، فهى من جانبها تريد عينا تراقب أفعاله ، عينا يقظة على الولد الأهوج الذى قد يهدر اسم أبيه فى الأرض ، والولد يعامل خاله كشغيل ، لا أكثر ، فهو يأمره بالذهاب الى المخازن لرفع الصفائح والكراتين ، ويأمره آخر الليل باللف على البقالين لتحصيل ايراد المحل ، فهو لم يقتنع أبدا ، بأن هذا الخال الفلاح ، يقدر على فهم عالم التجارة الغامضة .

وهبطت الحاجة الدرج ، وابتسمت للضيفة مرة أخرى ، واعادت الترحيب بها : أنت منورة . ثم انتبهت الى أن زبيدة لم تخلع جلبابها الأسود بعد ، فطالبتها بالدخول الى حجرة النوم ، لتخلع الجلباب ، وتخفف عن نفسها .

ودخلت زبيدة الممر الطويل ، حيث لمحت الأوانى فوق البوتاجاز تطلق البخار الشهى ، ويدفعها الهواء الى نافذة المسقط ، ودخلت حجرة النوم فى آخر الممر ، علقت الجلباب على الشماعة ، ونظرت الى وجهها فى مرآة التسريحة : عتمة الحجرة أخفت الشحوب قليلا ، فرضيت عن نفسها ، وعادت الى « الأنترية » فوجدت الحاجة

على الكرسي الكبير تضع سماعة التليفون على اذنها ، وتحادث شخصا على الطرف الآخر : لا .. ما جاش .. ابعت شوف المضروب صاع فين .. لا .. لا .. متشكرة .. ولا حاجة .. غير البطيختين ، وهات معاك عنب .. سلام .

وانامت السماعة على جهازها الموضوع في سلة من خيوط البلاستيك ، ودق الجرس ، فتقدمت زبيدة وفتحت الباب ، فرأت الرجل بجلباب متسخ ومرقع في أكثر من مكان يرفع على رأسه المجعد الشعر قفص الخبز السخن ، كان الرجل يتصبب عرقا ، وذراعاه ينتشر عليهما الشعر الاسود الفزير ، يتقطر منهما حبات عرق عكرة ، تسقط على البسطة .

وقال وهو يلهث : العيش .

واطلقت الحاجة سيلا من السباب : لسه جاى .. كنت تنام لك كمان شويه .

ورد الرجل : اعمل ايه ؟ الفرن زحمة .

وقالت الحاجة : اتنيل على عينك ، أقعد على ما أجيبلك الغدا .

وارتاح الرجل على المسحة الخشنة ، وبدأ يمرر سبابته بعرض الجبهة ، وفوق الذقن النابتة بشعر خشن ، وينثر قطرات العرق على سور السلم ، وضرب عينه الوحيدة في المكان يتأمل الضيفة التى جلست على الكرسى عاقدة ذراعيها على بطنها ، والحاجة غرفت من الأوانى فى طبق كبير ، جعلت كل الأصناف على بعضها ، وأتت من الثلاجة بربع بطيخة ، ودفعتهما الى الرجل ، وقالت له : انت والولد « رزه » .. عمك حسن حيتغدى هنا .

وأعادت غلق الباب بقوة .

وبعد قليل .. دق جرس الباب مرة أخرى ، وفتحت زبيدة حيث واجهت جرم عادل الطويل ، ابتسم لها ، وأحنى رأسه ليدخل على عجل ، وجاء من بعده الخال حسن يسند على كرشه البارز بطيختين كبيرتين ، دحرجهما فى الممر ، وعاد ليسلم على ابنة العم : يا مرحبا .. هنا من زمان ؟ .

قالت زبيدة وهى تعود الى مقعدها : أبدا .

ورفع حسن اكمام جلبابه الواسعة ، واتجه الى الحوض ، والآن عادل كان محنيا تحت الصنبور يبلل شعره بالماء ، ركن على الحائط ، بانتظار دوره ، واختفى عادل بالداخل ، وكان قد أخذ الفوطة معه يجفف بها على مهل ، وحسن حينما فرغ من

غسل يده بالصابونة المعطرة ، سحب منديله الكبير من جيب الصديرى ، وبدأ يجفف يده السمينة ، وهو يجلس على الكرسى الى جوار زبيدة والحاجة مرت من امامهما ترفع الاطباق بكلتا يديها ، وقام حسن منتفضا ليأخذ منها أحد الاطباق : خلى عنك انت .

وزبيدة اتجهت الى المطبخ الذى لم يتسع لها مع الحاجة .
وقالت لها الحاجة : استريحى أنت . ثم هزت راسها نحو الممر :
وقالت لـ « زبيدة » : شفتى سيادته .. لازم يتمم عليها كل يوم فى نفس الميعاد .

ولم تفهم زبيدة تماما ، وهمست لها الحاجة بأن الاستاذ ، وهى تقصد ابنها عاد مغرم ببنت الست « جى جى » وهى بنت رقيعة مثل أمها ، من بنات هذه الأيام الخليعات اللائى يترددن على النوادى وصالات الرقص ، وأمها لا تكف عن صحبة الرجال من كل صنف ، وكل ليلة تحيى حفلا ، تدعو فيه علية القوم ، ليشربوا ، ويلعبوا الورق حتى الفجر ، وانا حذرته أكثر من مرة ، أن هذه البنت ليست من توبنا ، ولا من دمنا ، فلا هى تنفع لك ، ولا انت تنفع لها ، هى تراك نهيبة سهلة ، تريد أن تخرب بيتك ، وهذا المال الذى تتحكم فيه ، لا يخصك وحدك ، هو مال ورثة ، فحافظ عليه ، وهو لا ينصت الى أبدا ، كل يوم اسمع حكاية عن فسحاته معها ، وسفره خفية كل جمعة الى القاهرة مرة والاسكندرية مرة .

وكادت الدمعة تطفر من عين الحاجة ، غير انها لحقتها ، فمسحت بكمها على عينيها ، وربتت عليها « زبيدة » مهدئة : شباب ولازم ياخذ وقته .

وعلقت الحاجة ، وهى تحاول أن تتماسك : مفلبنى يا أختى .. مفلبنى .

وخرجت زبيدة بالأطباق ، ووجدت حسن واقفا على باب السفرة ينصت الى كلام اخته ، وشكل على وجهه ملامح الاشفاق ، ونظر بعطف جهة المطبخ ، وقال لـ « زبيدة » على عجل : مجننها .. والله .

وجاءت الحاجة بقارب الشوربة الصينى الكبير ، وجعلته فى المنتصف ، وحسن قام من فوره الى الليمونة المشقوقة ، وعصرها بعنف على الشوربة التى تطلق البخار الخفيف ، فيسبح متجها الى

لمبة « الفلورسنت » الدائرية المثبتة بالسقف ونادت الحاجة على ابنها الذى يركن على سور الشرفة القبلية .
وجاء الولد وهو يلتفت الى الوراء ، ويشير بذراعه الطويلة لشخص لا يبين واكتملت السفرة ، جلست الحاجة وزبيدة فى صف ، وجلس حسن فى مواجهتهما ، أما عادل فقد جلس على الكرسى الوحيد ، على راس السفرة وبدات الملاعق تنقل الشوربة الى الأفواه الجائعة ، وبدأ صوت الرشف يتناوب بينهم .
قالت زبيدة : سمعت أن سنوية عمى بعد يومين .
فزام حسن ونظر يده بعيدا ، وقال معلقا : خليهم يعملوها .. أنا اعملها فى بيتى .
وقالت الحاجة وهي تدفع ملعقة الأرز بحذر : يمكن ما أحضرش .. زى ما انت شايفة .. مفيش وقت .
وعلق حسن مرة اخرى : هم معتبرينه أبوهم لوحدهم ، عاوزين ياكلوا خيره وكأن ما لهمش اخوات .
وقالت الحاجة بتعقل : يا سيدى .. خليهم يشبعوا .
وزبيدة تعلم أن حسن غاضب على اخوته غير الاشقاء لأنهم يميلون الى أخيه الاكبر « حسين » وقرروا أن يبيعوا نصيبهم فى الطاحونة له محتجين بانه الأولى ، فهو يعمل بها منذ صباه الباكر ، أما حسن فقد دخل منافسا لأخيه الشقيق ، لأنه طماع يريد أن يلم كل ما ترك أبوه فى كرشه ، والحاجة تقف الى جانب حسن لأنه الوحيد الذى دافع عن حقها فى المسقى المشترك ما بين ارضها وأرض أبيها ، بينما أخوها الاكبر انحاز مع الآخرين باسم انه يقف مع الحق وحسن يراعى شئونها ، ومقرب منها جداً ، انه لم يتأخر يوما فى تسديد ايجار الأفدنة الاربعة التى يستأجرها من أخته أما الآخر فهو يهمل زراعة نصيبه المؤجر ، ويوزعها على الفلاحين بايجار من الباطن وقال حسن وهو يلوك قطعة لحم كبيرة خطفها خفية من الطبق : والله ان ما باعوا لى لاطلع عقد الفدانين الملك واخليهم يدوخوا السبع دوخات .
وقالت الحاجة وهى تصطنع صوت الحكمة والقناعة : لا .. الفدانين مالكش حق فيهم .. أنت تعرف ان ابوك كتبهم باسم امنا للتحايل على القانون .
وقالت زبيدة : وسمعت أن الحاج سناب لهم عقد .. أمك بايعة له الفدانين .

وقال حسن : هيء .. عقد ابتدائى ، ما ينفعش ببصلة ، انا معي عقد التسجيل النهائى .

وقالت الحاجة : احنا مش عاوزين مشاكل ، بس يدونى حقى فى المسقى وفى الارض الفضا آخد نصيبى على الواجهة .

وقام عادل منسحبا الى الداخل ، ونظرت اليه زبيدة باندهاش .

وانطلق حسن فى طعامه بحرية ، وبدأ يملأ فمه بكل ما تقع عليه يده ، ثم رفع قارب الشوربة ، وراح يعب منه ، وبعد أن انهى ذلك قال مبتسما : المعالق ما بتشلش حاجة .

وقالت الحاجة وهى تمد له يدها بفخذ دجاجة محمر : بالهنا والشفا يا اخوى .

والتفتت الى زبيدة لتقول : والله بيشقى بس عادل ما بيعترفش بجميل .

وقال حسن مطيبا خاطر اخته : لسه جاهل .. لو يخلع البنت دي من دماغه .

وقالت الحاجة : والنبى لاعمل زى ما قلت .

وقال حسن مهللا : والحمد لله .. اقتنعتى .

فنقلت زبيدة اليهما نظرها وعلى وجهها تساؤل مبهم فقالت الحاجة : انزل البلد يوم الجمعة ، وأروح للشيخ اللى بتقول عليه .

وقامت زبيدة متجهة الى الحنفية ، وقالت وهى ترجرج الماء فى فمها : آ... سمعت انه شاطر .

وقالت الحاجة وهى تلملم العظام المتناثرة على مفرش السفرة : يمكن تكون المرة دى سحرت له .

وقال حسن وهو يمصمص اصابعه الغليظة : كل شيء جايز .

القسم الثانى

- ١ -

لما راى شواهد الجبانة تدور بعيدا وراء جذوع الشجر المنتصب على الطريق ، قرا ياسر الفاتحة - فى سره - لأبيه وامه الراقدين هناك ، تحت مصطبتين متباعدتين ، واحدة على أول الطريق غربا ، والاخرى فى الطرف البعيد ، جهة البلد وتساءل فى نفسه : هل ستبقى هذه العادة ام سيمحوها النسيان ؟.

فى كل مرة ، يحاول الا يخضع لتكرارها ، ولكن ها هو الخفقان الدافق يلاحق قلبه كلما وصل الى هذه البقعة ، هل هو الاضطراب المعتاد للقاء البلد لما يطول الغياب ؟ أم لأن القلب يعلم أن الحبيبين هناك يشرئبان من عيون المصطبة فرحين بعودة الابن ؟ على كل ، هو لم يستطع الهرب من تلك العادة ، كما لم يستطع الهرب من عينه حين تروح تستطلع المكان حولها ، كأنما تراه لأول مرة ، هاهى مداخن وابورات الطوب ترتفع فى الافق ، وتتوزع مع المنحناءات النهر ، وها هو الصهريج يعلو الأبنية محاطا بالأشجار التى حذفها بالطوب طمعا فى ثمارها اللذيذة ، والنخلات التى جمع بلحها الاخضر صبيا . وبالقرب منه ،على الجانب الأيمن من الطريق ، تمر سراعا أسوار الساحة ، والمعهد الدينى وجدران مسجد النصر العالية ، وسبيل الماء الذى يرد عطش المشيعين بعد أن يكونوا قد واروا الأحبة التراب ، ويمر بسرعة مبنى المحكمة وشونة الحب والمدرسة الثانوية، واخيرا ها هو موقف الاوتوبيس .

فيرفع طوله ليسحب الحقيبة ، ويهبط الى الارض ، يلملم القميص والبنطلون ، يدارى عينه خجلا ، كمن يلتقى بالمحبوبة بعد قطيعة ظن كل واحد منهما انها الفراق ، سور سكة الحديد المبنى بالدبش الابيض مكتوب عليه اسماء يعرفها ، ولم يزل يداوم الاطلاع على اسماء فريق « الاسد المرعب » الذى كان أحد أعضائه ، مكتوبة باللون الأزرق ، بخط صبيانى ، وصورة الفدائى الملثم الذى يرفع رشاشه عاليا طلبا للثأر ، لم تزل بخطوط يده الفضة على منحنى السور ، ويتمنى الا تزول ، لتذكره ببكارة قلبه المنهك .

أعطى ظهره للدكاكين وكراسى المقاهى المزدحمة بالرجال ، واستقبل المزلقان ، ليمر من تحت بوابتيه المشرعتين فى الفضاء ، وانزلق هابطا الشارع المسفلت الواسع الذى كانت تقوم عليه يوما دور عمال الدريسة ، وحاول ضبط الدفع اللاارادى ليمشى الهوينى، مرتبكا فى خجله ، لا يريد أن يراه أحد حتى يضبط مشاعره ، ويألف عودته ، ويصير واحدا من ناس البلد ، أما الآن فان اللسان سيتلجلج، ولن يجد الكلام المناسب ، ولكنه سمع الصوت الذى ينادى : ياسر .. ياسر .

تجاهل الصوت مؤقتا ، ليتأكد أن النداء يخصه بالذات ، وسمعه مرة أخرى ، فالتفت وراءه ، ليجد أخاه غير الشقيق حسن يتدحرج من ارتفاع المزلقان نحوه ، واتجه اليه ليوفر عنه الجهد المبذول عن اللحاق به ، والتحمت الأيادى العرقانة ، وقال حسن « كنت قاعد هنا لما شفتك » .

وأشار الى المقهى الذى يبعثر كراسيه القديمة فى مواجهة المزلقان .

وأجاب ياسر بارتباك : ما اخدتش بالى .

ودعاه اخوه لشرب الشاى ، واعتذر ياسر لأنه يريد أن يغسل وجهه ويزيل عن جسمه آثار السفر ، وألح حسن فى دعوته : اشرب الشاى بعدين روح واتجها الى الطاولة التى ترك عليها حسن علبة سجائره ، ونصف كوب من الشاى وصفق اخوه بكفيه العريضتين ، وجاء حمام من الداخل بطاقيته الملقاة الى الوراء ، وبشاربه النحيل المفتول الى أعلى قليلا ، مال بجسمه الطويل على ياسر مرحبا : أهلا بالاستاذ .

وطلب كرسى الدخان ، وأصر حسن ان يشرب قهوة ، وابتسم له حمام وقال له محركا راسه وغامزا بعينه بحركات سرية يعرفها كلاهما : فينك يا عم من زمان .

وقال ياسر وهو يمسح العرق بمنديل ورقى : ابدا .. مشاغل .

ونظر حسن الى كليهما مندهشا ، ثم ابتسم لأخيه الأصغر كأنه كشف السر وأشعل سيجارة ، ثم مال بثقل جسمه على الطاولة سارحا فى البعيد ، وعلم ياسر من ملامح وجهه أن لديه كلاما كثيرا يريد الافاضة به ، وهو دوما يحتاجه فى زنقاته الخاصة ، فيظهر له التودد ، ويختلق الحيل لاصطياده ، ليقص له عن الأب الذى فهمه خطأ حين عزم عليه بالغداء « ويقول فى وجهى علانية : وماذا بعد

الفداء ؟ ويحرجني أمام الرجال على المقهى ، ويصرح بأنه لن يؤجر لي قيراطا من أرضه . » او يشكو له أمه التى قست عليه يوما وانحازت الى الخادمة التى جلبها أبوك ، وترك لها دار العزبة ، والبهائم ، والأرض ، لتسرح فيها على راحتهـا ، وأنا حين أردت الاعتراض عليها ، تتجرأ خالتي وتقول : هذه أشياؤنا ونحن أحرار فيها فلا تدخل بوزك فى أمورنا ، وأبوك يسمع هذا ولا يسكتها ، ثم تهينني ، وتقول : أخرج من دارنا . وحين أشهد أباك على ذلك . وأسأله : هل أنت موافق على طردي ؟ فيجيب بحسم : دار أولادها .. وهي حرة . واخرج دافعا الباب ورائى ، بعد أن أعلنت لهما : هذه الدار حرام على بعد الآن ، فلا يهتمان ، وحين أسقط فى الشارع مغشيا على ، يتلم الاغراب ، ولا تتحرك أمك ، ولا أبى ، لانقاذى برغم انهما يعلمان أن اللمة فى الشارع كانت بسبب سقوطى المفاجيء . »

وكثير من مثل هذه الحكايات ، يسمعها ياسر من أخيه ، ويهون عليه الأمر ، ويطلب منه السماح ، ويؤكد له أن أمه لا تكرهه ابدا ، وان أباه يفضله على كل الاخوة ، وهو ينطر ذراعه بعيدا ، ويقول : ياشيخ .. اسمع كلامك أصدقك .. ويقـول حسـن وهو مرتكز بكوعه على الطاولة ، يمتص دخان سيجارته ، ويرشف بقايا الشاى : حسين عزم البنات فى داره ، اشترى ثلاث دجاجات بيضاء وجمعهن فى غدوة ، ورفضن دعوتى لما طلبت منهن ذلك ، وأنا لا غرض لى غير حق الله مع صلة الرحم .

ويقول حسن : حسين زار الحاجة فتحيـة ليعـرض عليها بيع نصيبنا لزوجها وعرف ياسر انه يريد الدخول فى الموضوع الذى يعرف تفاصيله كاملة ، ولن يبوح بها حتى يعلم أغراضه ، فهو منذ أن اجتمع مع أخوته فى دار الحـاج على ليعرضـوا عليه شراء ميراثهم عن أبيهم فى الطاحونة ، وعرض الحاج ثلاثين جنيها للمتر ، وطالبوه برفع المتر الى أربعين ، وامتنع الحاج ، هددوا بعرض الأنصبة على الحاج حنفى العائد من السعودية والذى رفع السعر الى ما فوق الاربعين ، فى سبيل تمكينه قانونيا من الملكية ، وياسر يعلم أن ذلك مجرد ضغط على الحاج ، فهو لا يريد لحنفى أن يدخل الطاحونة أبدا . لأنه بذلك سيحقق حلم عائلته التى تدعى احقيتها فى الطاحونة التى نهبها الحاج « محمد » من أبيهـم عنـوة ، ذات يوم بعيد ، لا يعيه الأولاد ويقول حسن : سالت ريالة حسين على الحاجة ، فهى جميلة كما تعلم ، وسمعتها على كل لسان ، وكلنا يعلم كيف استخدمها زوجها فى سفره ، وكيف فتحت له أبواب

الرزق الواسعة مع الغرباء الذين يترددون على دارها ، وزوجها كما تعلم يستخدمه لاغراء أخينا العبيط .

وقال ياسر : حسين أراد من دخول الحاج حنفى الضغط على عمنا .

وألقى حسن عقب السيجارة على الارض ، وتفاداها حمام حين قدم بالصينية عليها فنجان القهوة ، وبيده كرسى الدخان الذى راح يطقطق ناره بشفتيه المزمومتين وامسك ياسر بالجوزة ، بينما حسن انشغل بضبط الصينية على الطاولة المهتزة ، وقال : دا كلام !.

وقال : المهم .. انا مستعد أدفع فى المتر أربعين جنيها . وعلى العموم أنا أولى من الغريب ، وأولى من الحاج على .

وتشجع ياسر ليقول له : لكنك لست أولى من حسين الذى يعمل بالطاحونة من صباه الباكر .. وأنا قلت للبنات ، واجتمع الراى على ذلك ، سنبيع لحسين حتى لو بثلاثين جنيها .

وبلع حسن ريقه ، وقال معقبا : وماله .. أنتم احرار ، كنت اريد مصلحته ، فسنه لم يعد يحتمل العمل فى الطاحونة ، واجدى له أن يبقى على قسمته من أرض الاصلاح الزراعى ويشترى بنصيبه من الطاحونة ماكينة رى ، يسرح بها على الغيطان ، وهو مشروع مضمون الربح ، وكثير من الفلاحين تركوا مزارعهم من أجله ، الآن رزقته واسعة .

وقال ياسر وهو يرشف وش الفنجان : وهل ترضى لأخيك البهدلة ؟.

وعرض عليه أن يقوم معه الى الدار ، فهو لا يحتمل الجلوس هكذا ، دون الاستحمام لازالة غبار الطريق ، وعرض حسن من جانبه ، أن يصحب أخاه الى داره ، فهناك يستطيع ان يستحم بماء الدش ، ويتناولان معا الغداء ، واصر ياسر على الذهاب الى دارابيه، فاليوم « السنوية » ولابد أن يهيىء نفسه لاستقبال المقرئين والمواسين من قبل اذان العصر ، وسأل أخاه السؤال المفاجىء : أم أنك لن تحضر « السنوية » . فأجابه الآخر متلهوجا : طبعا .. طبعا .

وفى الطريق ، قال له : أنا موافق على بيع نصيبى من الطاحونة لحسين .. والأمر لله .

وقال : أنا أراقب تحركاته من زمان ، ولم أسافر اليوم للحاجة ، وجلست على المقهى لاتابعه ، وهو على المقهى الآخر بانتظار مشتر لأرض الاصلاح وكان الأولى به أن يستعين بى بدلا من الغريب ، فأنا أخلصها له بثمن مجز ، لعله نسى أنى عضو بجمعية الاصلاح الزراعى

السنوية :

حسن يكره هذه الدار ، من يوم أن كتبها أبوه بعقد بيع لأخويه غير الشقيقين ويرى أن هذه مظلمة كبيرة من مظالم أبيه ، دفعته الى ذلك زوجه حرصا على حق أولادها وكرهها أكثر يوم أجبر على الموافقة على ترك متر يدور حولها ، اقتطع من حرم الطاحونة فقد فاجأوه فى جلسة ودية ، تجمع الاخوة والأخوات ، وتحدثوا فى ذلك ، وعرض ياسر أن يصوت الورثة للموافقة على المتر ، فوافق الجميع باتفاق سرى تم بدون علم حسن الذى كان رفضه متوقعا ، ولأنه رأى الجميع يرفع يده بالموافقة ، قال : يعنى أطلع أنا المكروه .. موافق .

وهو منذ طردته زوجة أبيه ، حرم على نفسه دخول الدار حتى كان مرض أبيه الاخير فأجبر على ذلك ، وعاش بين اخوته الايام الثلاثة التى سقط فيها الأب فى غيبوبة لا يفيق منها ، ثم تابع المجىء ليحضر « الثالث » و « الخمسان » و « الاربعين » وليجتمع مع اخوته ، حيث ينهون موضوع الميراث .

وها هو يتبع أخاه متواريا خلف ظهره ، ينظر بتردد الى الكراسي الفارغة للمقهى المواجه للدار ، وينتظر حتى يطرق أخوه السقاطة الحديد ، ويفتح الباب ، ويدخل وراءه من الفرجة المفتوحة فالدار لم تتعود — منذ قيام هذا المقهى أمامها — على فتح الباب على وسعه حتى لا يرى الرجال حريم الدار القاعدات بالردهة الداخلية .

وسلم ياسر على أخته زبيدة أم محمد التى أخذته الى حضنها بشوق ، ولمعت عيناها بحبات من الدمع ثقيلة ، انسالت ببطء على خديها الموردين ، وصاح العيال فى الصالة : خالى ياسر .. خالى ياسر .

فخرجت الأختان الكبريان زينب وزينات وزوجة الأخ الشقيق، والخالة ، خرجن جميعا من الحجرة العارية من البلاط والمفتوح بابها على حوش العدة ، رحبن بياسر وأخذتهن الدهشة لوجود حسن المفاجىء ، وسلمن عليه بفتور ، واختار حسن الجلوس على كنبة الصالة العريضة ، وتركه ياسر ليدخل الحجرة معهن حيث عدن جميعا لينكفئن على أوانى الطبخ ، ورأى أنهن مشغولات باعداد كميات كبيرة من الطعام ، دل على ذلك الكرنبات الكثيرة ، ووابورات الجاز التى حصلن عليها من الجيران لتسعف مع نار البوتاجاز المركون

عند نهاية الكنبة القديمة ، اسفل النافذة المسدود عليها قطعة المسمع التي تصفي الضوء في الحجرة ، وتحجز الهواء القوى .

وتحدث ياسر اليهن مداعبا : ايه دا كله انتم حتمزموا البلد ؟ .

وقالت الخالة : تعيش يا خويا وتفتكر .

وقدمت اليه زبيدة لتسأله : أعملك بيضتين بسرعة ؟ .

وقال لها : أنا شبعان .. عاوزين كوبيتين شاى تقال .

وسألته الخالة : جاى بكام يوم ؟.

وقال لها وهو ينفض طوله : كتير .. ازى خالي ؟ .

قالت : والنبى امبارح قال كدا ، ياسر عدى الشهر بيومين .

ومالت زينب على اذنه : وايه عترك في اخينا ؟ .

قال ياسر مبتسما : كان على القهوة .

وقالت زبيدة : يعني أخته ما جتش لسنوية أبوها .

وأجابها ياسر باهمال : هى حرة .

وقالت زينات : احنا حنبيع لحسين ، وحيقبضنا النهارده .

وقال ياسر : هو نفسه حيبيع معنا .

وعلقت زينب : خاله الطيب حضر .

وتركهن الى الصالة ليكسر عزلة حسن الجالس كالغريب . يلوك دخان سيجارته لا ينتبه الى العيال الذين تحلقوا في الصالة الصغيرة ، يطلقون الصخب ، ويضربون الكرة في ضلفة الباب الكبير .

وعادت زبيدة اليه : تتشطف قبل الشاى ؟.

وقال لها : على ما أشطف تكونى خلصتى الشاى .

ومال الى الحقيبة يخرج هدومه المتسخة ، وهى وقفت الى جواره تجمعها على ذراعها وتطلع اليها حسن بحذر ، وقال : ازيك يا زبيدة ؟.

وردت دون أن تنظر اليه : الله يسلمك .

حسن أراد بعد وفاة أبيه أن يتقرب اليهـا ، ويعاملها بحنان عوضا عن أبيها فهى « وليته » مكسورة الجناح ، وهى أحوج الأخوات للرعاية ، وزبيدة كانت تنفر منه ، ولا تميل اليه ، وتتحوط لحيله التي تعرفها ، فهو يقترب بطيئا ناعما كالثعبان ثم سرعان ما يخون ، ويلدغ ، ثم يختفي في جحره المظلم ، فلا تصل اليه يد ، وقلبهـا لا يرتاح اليه . لأنها تعتقد أن له يدا في طلاقها من زوجها الذى تقرب منه علّه يحصل على لقمة سائغة ، وهذه هى طريقته أبدا ، ما ان

يطل أحد برأسه ، يظن حسن أن وراءه شيئا حتى يتودد اليه ، يحصل على مرماه ، ثم يقبض على جلبابه فى أسنانه ، ويجرى .

بعد وفاة الحاج محمد دخل عليها حسن بأكياس الفـــاكهة ، وبالجنيه أو الجنيهين ، على فترات متقاطعة ، وكانت حين تثور على امها ، يستضيفها فى داره ، ويفح فى أذنها ، وينفث سمومه فى صدرها ، ليزيد نارها نارا ، فتكره أمها ، ولكنه حين يفعل ذلك تزداد محبة لأمها ، وتعود اليها فجأة ، مشفقة عليها ، وتخدمها بعينها ، ولما تكرر ذلك منه ، صاحت فى وجهه ، وبعلو الصوت : اخرج من هنا ، ولا تدخل دارنا أبدا .. أنت شيطان .

وخرج حسن فى التو ، ولكن هذه المرة ، لم يكن الأبله الذى يلقى الايمان المغلظة بتحريم الدار ، فى هذا الاوان بالذات ، وانحنى للعاصفة ؛ وعاود المجىء ، فان له حقوقا لم يحصل عليها بعد ، وهناك معاملات مع الاخوة والأخوات ، فهل يضيع نصيبه كواحد من ورثة الحاج ؟.

واستأذن ياسر من أخيه فى دخول الحمام ، وأجابه حسن بأدب شديد : تفضل .. الميه دلوقت ترد الروح .

لما عاد حسان من عمله مرهقا . يتصبب عرقا ، شد على يد أخيه ياسر وقبل خديه ، ورمى السلام على حسن الذى تقلقل فى مكانه ، بينما هو يعبر من أمامه ليدخل حجرته ، خلع ملابس العمل ، وارتدى الجلباب الأبيض الخفيف ، وانشغل بتشطيف وجهه على الحوض ، وقال لياسر وهو يجفف وجهه ، كنت تقدم اجازتك يومين .

وهمهم ياسر بكلام غير واضح ، بان منه أنه ليس ملك نفسه ، وتحكمه مشاغل العمل ، ولما ارتاح حسان لنظافة وجهه ، ورفع الاجهاد عن سحنته ، قعد على الأرض ، وخبط فخذ حســــن صائحا : ازيك يا أبو على .

وانتفض لها بدن حسن السمين ، ومصمص شفتيه مستغربا .

وأهمله حسان فجأة ، ومال بوجهـه نحو الحجرة المزدحمـة بالبنات : الغدا جاهز ؟ وأقبلت زوجته بالصينية الكبيرة ، وضعتها على الارض ، وافترشت عليها ورق الجرائد ، ثم بدأت تنقل الأطباق من الداخل ، والعيال تركوا لعبهم ، وتجمعوا فى حلقة بالقرب من باب المرحاض .

وقال حسان : خلوا العيال لوحدهم .

وجاءت زينب بقارب الشوربة ، انحنت فوق الصينية ، تزيح الأطباق لتجعل له مكانا وسطا ، وقالت لأخيها : احنا حناكل جوه ، والعيال معنا .

وقال ياسر لأخيه : حسن موافق على البيع .

وهتف حسان : صحيح ؟ وهو ينظر بابتهاج الى حسن المنكمش على نفسه بالقرب من الصينية وكأنما يريد أن يقول فلنبدأ «باسم الله » ليس هذا وقت الكلام فى البيع والشراء لقد أزف وقت الطعام.

بعد الغداء ، قام الاخوة برفع كراسى الصالون المدهب الى الحجرة الداخلية تركوا الكنبة الكبيرة فى المواجهة ، وأضافوا اليها كنبتين « اسطانبولى » على الجانبين وأرسل الصبية لاحضار بعض الكراسى من دار الحاج على وجعلت هذه الكراسى فى صفين بطول الردهة الصغيرة ، وأنزلت الستارة بين الردهتين لتحمى حريم الدار من عين الرجال .

وبعد صلاة العصر ، سمعت طرقات السقاطة ، وفتح الباب حيث دخل عثمان يسحب الشيخين المكفوفين ، وقام الاخوة، وأزواج البنات الذين قدموا من ساعة ، وهيأوا للشيخين مكانهما ، أسفل النافذة المضيئة ، وتربع الشيخ محمود والشيخ يوسف على الكنبة المدهب الطويلة ، وقبع عثمان على طرف الكرسى ، عند الباب ، يجفف عرقه بمنديله المكور . ومن حين لآخر يلقى نظرة الى الداخل ، ويصطرب انفه لرائحة الطعام الشهى .

ودارت بعض الاحاديث التافهة ، أكثرها حول عثمان ذلك الولد الذى لا يدع وليمة تفوته ، وطلبوا منه أن يريهم دفتره الصغير الذى يلقيه فى عبه ، حيث سجل فيه أسماء الأموات جميعا ، وتواريخ وفاتهم ، وتواريخ خمسانهم ، وتواريخ الذكرى ، وكل يوم يطلع على الدفتر ، ويمر على أهل المتوفى ليذكرهم بالمناسبة التى قد تفوتهم ويحجز لنفسه مكانا. حيث يصحب المقرئين ، وهو الذى يحفظ بعض الآيات التى تعاون فى التردد على القبور ، الخميس والجمعة من كل أسبوع ، قد يطلب منه أهل المتوفى ترتيل بعض الآيات ، لا لشىء ، الا للضحك على صوته الأجش ، وهو لا يمانع فى سبيل الحصول على ربع الجنيه أو الخمسين قرشا .

وانطلق كلا الشيخين يعاونان أهل الدار فى التفكه من عثمان ، فقال الشيخ محمود : هذا المجرم لا يعتق وجبة قط ، خذ اليوم

مثلا ، حجز معنا هنا ، وبعد قليل سينطلق الى الجبـانة ليلم محصولها ، وبعدها عنده سنوية جماعة أبو بلال وعنده ختمة فى كفر السوق ، ثم يختم ليلته للذهاب الى ليلة سيدى عبيد .

وسمع طرق على جانب الباب ، فقام حسان ليسحب الصينية من يد زوجه وضع فنجانين أمام الشيخين ، ثم دار بالباقى على أزواج البنات ، واخوته ، وبقي فنجان مد له عثمان يـده ، فضربها حسان : وكمان حتشرب قهوة !.

ورد الشيخ محمود مهللا : قلت لك يا أستاذ هو ما بعتقش .

وقام عثمان الى الفنجان بعد أن أدخل منديله فى فتحة الجلباب، وقال : والنبى يا أستاذ دماغي مصدعة .. شوف .

ورفع طاقيته ، فبدا راسه الحليق معقودا بمنديل على جبهته .

ورشف الشيخان الفنجانين . ودخنا سيجارتين ، عزم بهما واحد من أزواج البنات وبعد أن انتهيا من ذلك ، راح كل واحد منهما يدعو الآخر ليفتتح التلاوة ، فبدأ الشيخ يوسف ، ووقع صمت مهيب ، وانسحبت الابتسامات ، وتشكلت سحن جهمة ؛ وانعقدت الوجوه ، وأخذت بالعقول تأملات عميقة فى الآيات التى حركت الحزن الكامن فى القلوب .

وبدأ الرجال يترددون ، جاء الخال محمد والخال سيد وجاء الحاج على وبعض الجيران ، ثم جاء أخيرا يسرى بقميصه المتسخ ، تنتشر عليه بقع الشحم ، هلل لما راى ياسر ، وسحب الكرسى الى جواره ، وبدأ يدور بينهما همس خافت ، ينقطع حين تسقط عليهما نظرة الأخ الكبير حسين المحذرة ، بل ان حسن لم يتورع عن رفع أصبعه الى انفه ليقول لهما : هووش .

وبعد آذان العشاء بساعة حضر المشترى ، رجل فى الخمسين من عمره ، يرفع حقيبة سوداء تحت ابطه ، ويحرسه غلامان ينظران بصلابة كى يفهما من حولهما خطورة العمل الذى يقومان به ، وهو حراسة مال الأب الذى سينتقل بعد ان يخرج من هذه الحجرة ، من رجل معدم لا يمتلك قيراطا الى صاحب ملك ، حصل على فدانين خالصين له ، بعرق الغربة ، وجهد السنين .

ومال يسرى على أذن ياسر ليسأله عن القادمين .

وقال له ياسر : بعدين اقول لك .

بعدها قام ليستأذن من باقى الاخوة ، وقال ليـاسر : انـا منتظرك .

وشق حسين الرجال ليسلم على الضيف الذى اخذته المفاجأة ، واجلسه على احد الكراسى ، ولما انتهى الشيخ محمود من القراءة ، مال حسين ، على اخوته ، واستشارهم قائلا : أظن كفاية .

ومال على حسان : اديهم حسابهم .

- ونادى على الشيخ محمود : أحسنت يا مولانا .. اختم بقى شيخ يوسف .

ورد الشيخ يوسف مبتسما : من عينى .

وأشار الى كلتا عينيه المظلمتين .

وبعد أن قرئت الفاتحة للراحل العزيز ولأموات المسلمين جميعا ولكل أولياء الله الصالحين ، قام الأخوال الى الداخل ، ليسألا أختهما عما اذا كانت ستأتى معهما ، وقعدا قليلا مع البنات فى نسمة الليل الرائقة فى حوش العدة الورانى ، ولم تسمح زبيدة برحيل الخالة ، وقالت للخال محمد : خليها معنا يومين . ولكن الخال اصر على رحيلها .

اما أزواج البنات فقد سلما على الاخوة بأدب ، ودخلا ليصحبا الامراتين غير أن البنتين طلبتا منهما أن يرحلا ، ويصحبا معهما العيال ، وسيأتيان بعد قليل وسيقوم أحد الاخوة بتوصيلهما ، وخضع الأزواج لطلبيهما ، وسار كل واحد منهما فى طريق .

اختار الرجل كرسيا فى الزاوية الضيقة وراء الباب ، وقعد ولداه على كرسيين ، واحد عن يمينه ، والآخر عن يساره ، يرقبان المكان الغريب بحزم ، يتنقلان بنظريهما فى الوجوه الصامتة أمامهما ، ويمعنان النظر فى صور الحائط ، أو يلقيان النظرات المتأملة الطويلة فى الظلمة المسدلة وراء قضبان النافذة ، وأبوهما دفس الحقيبة فوق ركبيه ، وانحنى عليها قليلا ، وماتت أطرافه العظمية الجافة على جوانبها ، وظل مدة يتفادى نظرات حسن الشريرة ، فأخوه الاكبر لم يخبره بأنه سيكون بين الحاضرين ، وهو حين دخل ، وبوغت بكتلته الضخمة المفرودة على الكرسى المدهب ، كاد أن يرجع بظهره ، ولكنه اقترب منه بالذات ، كما يقترب الفأر الفزع من القط ، بعد أن عرف مصيره واقر بأن لا فكاك ، ولا مهرب ، فالمفاصل قد خدرت ، والدم تجمد فى العروق وأرعبته كثيرا نظرة حسن حين مد اليه يده ، وقال له : ازيك يا أبو سالم بطريقة تهكمية تحمل التهديد فى ثناياها .

وأبو سالم يخشى أن « يطربقها » على دماغه ، فهو يعلم أن هذا

الذي يفعله لا يقره القانون فالحكومة لم توزع بعد عقود الملكية على منتفعي الاصلاح الزراعي ، والبيع بالباطن أمر خطر ، اذا لم يوافق عليه أعضاء الجمعية الزراعية ، وحسن واحد منهم ، بل هو اخطرهم ، وأبو سالم يرجو ان يصفو الاخوة فيما بينهم ، ويرضى حسن عن هذا البيع ، حتى لا يظل مهددا ، ولا مانع عنده أن يعطيه ثلاثمائة جنيه نظير الموافقة وحسين هدأ باله ، حين قال له : ولا يهمك .. القرشين يسكتوه .

وحسان منذ أن رحل الشيخان والأخوال وأزواج البنات وهو يتحرك ما بين حجرة الجلوس والحجرة الداخلية ، رفع الأكواب والفناجين الفارغة ، وامر زوجته بأن تصنع شايا للضيوف ، وأجاب على أسئلة أخواته : من هو الرجل ؟ وبكم سيشترى ارض حسين ؟ وهل حقا ستوزع عليهن انصبائهن من ميراث الطاحونة الليلة ؟

وأراحهن بالاجابة على بعض الاسئلة ، ونفض نفسه منهن هربا من الحاحهن فى البعض الآخر صائحا : لسه ماتمش حاجة .

ونبهت زينب على الأخ الشقيق : ماتسيبش الاوضة ، واصحى لكل كلمة . زينب دائما متشككة فى كل أمر ، وهى تحصى أصابع يدها حتى لو كان الذى صافحها هو أخوها ، ومنذ وفاة أبيها ، حين ترى اثنين من الاخوة مندمجين فى علاقة طيبة ، يلعب الفأر الأبدى فى عبها ، وتدور على أخواتها فى بيوتهن لتعبر عن شكوكها ، فمرة انضم حسان الى حسين فى جمع القطن وسمعت من بعض جيرة الأرض أنهما باعا الكثير من المحصول للتجار ، خارج تموين الحكومة ، ومرة اجتمع حسين مع حسن ليوزعا أجولة الذرة التى نشرت فوق سطح دار العزبة لتجففها الشمس ، ومرة حسان ذهب الى العزبة، صباح هذا اليوم ليتصرف فى كمية من الحطب و التبن المخزون بالدار ، وهى فى اكثر المرات تجد آذانا صاغية لشكوكها ، وفى مرات قليلة تراجعها زينات بطيبة لتدفع الشك عن أحد اخوتها : ياشيخة .. حرام عليك .

ولا يستبعد بعد أن تسمع ذلك القيام بزيارة منفردة الى زبيدة لتقول : شوفتى تدافع عنه ، الظاهر انها مستفيدة ، فهو لا تحلو له القعدة الا عندها .

وفى حجرة الجلوس ، فرك حسين يده ، بعد أن فرغ الضيوف من احتساء الشاى ، وبدأ الكلام : سمعونا الفاتحة للنبى .

وانتشرت فى الحجرة وسوسة القراءة الخفية ، ورفع أبو سالم يده عن الحقيبة لحظة ليمسح براحته على وجهه ، ثم أعادها بسرعة

لتقبض على جوانب الحقيبة المنتفخة ، وياسر وحسان قرآها بحركة الشفتين بينما الجميع كان يسمعها حرفا حرفا من لعلعة صوت حسن القوى .

وتحدث حسين عن رغبته فى شراء نصيب اخوته من الطاحونة ، وتحدث قليلا عن ذكرى المرحوم ، وأنهى كلامه فى هذه النقطة ، بأن هكذا حال الدنيا وأن لا شيء دائم غير وجه الله ، وبأن الملكية ما هى الا أمانة بين أيدينا يسلمها الواحد للآخر ، والملك فى النهاية لصاحب الملك .

ورد « أبو سالم » بحماس : ونعم بالله .

وظل حسن راكزا بكوعه فوق مسند الكرسى ، ونفخ هواء من انفه وأطلق تنهدة عميقة ، وسأل اخاه : وبكم ستشترى ؟

وذكره حسين بالثمن الذى كان قد اقترحه الحاج على وأنه قد رفع ثمن المتر عشرة جنيهات ، وانه يظن أن هذا الثمن مناسب جدا ، والبنات موافقات على ذلك ، فنهره حسن قائلا : تكلم عن نفسك .. لهن ألسنة يتكلمن بها . ونظر الى أبو سالم ليسأله : وأنت بكم تشترى أرضه ؟

وفرد الرجل هيكله ، وتنحنح ليسلك زوره قائلا : بسبعة آلاف للفدان ان شاء الله . ثم اعاد النظر الى أخيه ليسأله : وأنت موافق على الثمن ؟.

فقال حسين وهو يرفع طاقيته ليروح بها على وجهه : السعر كدا النهارده .

وقال حسن وهو يعتدل قليلا ليريح بطنه الممتدة أمامه : بدل اللف والدوران .. طلع يأبو سالم فلوسك .

وارتاح الجميع فى جلسته ، وسمعت تنهدات الخروج من الموقف العصيب ، وسمعت قدم تجرى بالخارج والبنات لم يتحرجن من اظهار أصواتهن ، وصار همسهن كلاما ، ثم استمال الى صخب ، حتى تجرأن فى النهاية على الدخول الى حجرة الجلوس ليتوزعن على الكراسى الفارغة ، وعلى أطراف الكنب ، دون أن يشعر بهن أحد ، ورحن يراقبن الجنيهات الحمراء ترف فى يد حسن البارعة ، ويضحكن بخفاء على ارتباك حسان فى العد ، ويغمزن فيما بينهن ليشرن الى حمرة وجه حسين الذى فرح كثيرا بهذه النهاية السهلة حتى أنه مال على احداهن قائلا : بعدما نعد الفلوس ، وامضى العقد للرجل أوزع عليكم نصيبكم ، وبعدين نكتب عقد الطاحونة .

بعد أن ضربت كل بنت نصيبها فى صدرها ، نفض حسن جلبابه، ودس نصيبه ونصيب الحاجة أنيسة فى جيب الصديرى ، واتجه الى الباب الكبير ، دون سلام أو كلام ، والشر يطقطق من عينيه ، وشده بقوة وراءه حتى أن جدران الدار ارتعشت رعبا ، وساد صمت اليوم على الحاضرين ، وتأمل كل منهم وجه الآخر ، وقالت زينب : الظاهر ناوى على الشر .

وازدادت الحمرة على وجه حسين وقال متجرئا : أعلى ما فى خيله يركبه . .

وسحب ياسر نفسه من الجلسة ، بعد أن اتفق مع أخيه على زيارة العزبة ، واتجه نحو باب العدة بعد أن أعطى ما يخصه لـ زبيدة لتحفظه فى دولاب الحائط الى أن يحين موعد السفر .

رفع جسمه كتلة الظلام الراقدة وراء الدار ، ولف خياله حوله عن يمين وعن شمال حين سار فى الظل الباهت عند حجرة الميزان .

دفع زجاج الشراعة ، ومد يده بين القضبان ، وشد الدوبارة المتصلة بترباس الباب ، وكان قد رأى يسرى هناك بالساحة التى بآخر الدار ، يراعى نارا كبيرة ، أشعلها على الارضية ، وأقبل عليه ، ولم ينتبه يسرى حتى رأى خياله يسقط على يديه المشغولتين بتنظيف الحجارة .

وجلس ياسر على كرسى الخشب ، وفرد ذراعيه على آخرهما ، ليستقبل النسمة اللطيفة التى تتخبط حائرة بين الجدران مطلقا آهة أفرغت كل هموم القلب .

قال له يسرى : خلصت ؟

ـ الحمد لله .

ـ شكلك يقول انك قبضت فلوسا .

ـ يعنى عارف !.

ـ ودى عاوزه فهلوه .

وقام ليسحب « الدومة » من صفيحة الماء ، جعل فوهة القلب تحت الصنبور ، وترك الماء يندفع من الفابة ليرش تراب الارض ،

فذعرت الأرانب الطليقة ، وهربت بخفة الى جحورها ، وظل بعضها في فتحة الفرن ينظر بعينين واسعتين براقتين .

وياسر أخرج ورقة « السوليفان » الحمراء ، جعلها في راحته ، وراح ينفخ فيها ويضغط عليها ليمنحها الدفء حتى لانت بين أصابعه، وأخيرا صف القطع الصغيرة فوق علبة الكبريت ، وعاد يسري ليجمع نفسه فوق كرسي الحمام وبدأ يردم الجمرات ، ويحوطها بالتراب ، ثم بدأ يسحب جذوات صغيرة مصهللة ، ويرص الحجارة المصفوفة بين قدميه .

وقال لياسر : اتمنى لو أنهى ايجارى مع الحاج « قرد » وابيع نصيبى مثلكم .

وقال لياسر : انا يا عم لا بتاع طواحين ، ولا بتاع أراضى ، انا رجل سواق .. بدل ما اهلك عمرى فى عربيات الناس ، اشترى عربية ، تكون خالصة لى ، ما عاد العمر يحتمل البهدلة ، وكمان ياريت تقول لخالى يسيب الارض .

ووافقه ياسر على كل ما قال .

وحدثه يسرى عن حضور أخته زبيدة ، وعن طرده لسعدية وقال له أن صحة زبيدة تتدهور يوما بعد يوم ، ولم ينجح الاطباء فى توصيف مرضها بعد ، وقد جاءت هنا لتجد من يخدمها ، غير أن بنت الكلب قليلة الأصل ، تجرأت عليها ، وتشاجرت معها على مرأى من زوجها ، فقررت انهاء عيشها معنا .

وذكره ياسر بكلامه الذى يردده عليه منذ أن كانا معا بالقاهرة : قلت لك مائة مرة تزوج غيرها لتنجب لك الولد ، فهى لا مال ولا جمال ، ولا انجاب يعنى عديمة المزايا ، ففيم الحرص عليها ؟ .

قال يسرى : كنت أقول العشرة .. انما خلاص .

قال ياسر : طلقها .. خليك تشوف حالك .

ــ تصدق ان القسيمة فى جيبى من يومها .. وخايف اعملها .

وأخرج ورقة قديمة مطوية من جيب جلبابه ، ركن الجوزة ، واخذ يفك طيات الورقة وأعطاها لياسر ليقرأها ، وقربها ياسر من اللمبة المدلاة على حائط المطبخ .

وأكد ضرورة ان ينتهى ذلك ، فى أقرب فرصة ، وقال : ابن المأذون كل ليلة على المقهى المواجهة لدارنا ، أنا أشوفه بكره ، ونطلع على أبيه ننهى المسألة .

ــ انا بكره راحة .. وانا من ايدك دى لايدك دى .

ومد له يده بالجوزة : غير الميه على ما انظف الحجارة .
وقف ياسر امام الحوض ، وحاذر من رشاش الماء ، قلب الجوزة لينثر ماءها على الارض ، ثم جعلها تحت خيط الماء ، فقال له يسرى :
لا .. ادفسها خلى الميه تجرى فيها .
وقال ياسر : يا أخى انا مش مطمئن لحسن .
ــ حيعمل ايه ؟ .
ــ لا تنس أن العقد المسجل للأرض الملك معه .
ــ لو فى استطاعته كان عمل من زمان .
ــ بيعنا لأخيه حسين وتنازله عن متر الدار ، وتوكيلنا لحسين بعد وفاة الحاج يخليه يستغله ضدنا .
وطالبه يسرى بأن يخلع الهموم من دماغه ، ليستمتعا بخلوتهما ، وصاح فجأة بتهليلة عالية رفع على أثرها الجوزة عاليا نافخا الدخان من فمه ، ومن طاقتى انفه : ملعون أبو الدنيا .
فضحك ياسر لمنظره ، واستقبل دوره ، وبدأ يطقطق النار بشدة حتى تناثر فتاتها على الارض .
وبعد أن أنهى يسرى ضحكه المفاجىء ، ومسح الدموع عن جانبى عينيه مال عليه ليسأله همسا : فين يا عم المسائل ؟.
وصمت ياسر بحسرة : وتفادى نظرته ، وهو يعطيه الجوزة الفارغة ، وكرر يسرى السؤال : ايه .. خلاص ما عدوش يطلعوا ورق سرى ؟.
واراح ياسر صدره بتنهيدة عميقة ، ولم يجب ، وظل متفاديا النظر الى وجه الرجل الذى بص عليه من بين ذراعيه اللتين تنقلان الجذوات الى البلاطة ، ليقول له : والله تعلمنا منه الكثير .. فتح ضلمة الدماغ .
وكرر يسرى كلمته الخالدة « كما قلت لك ، لترى هذه الاشتراكية مطبقة على الواقع محتاجة لخمسين سنة ، على الاقل . » ذلك ان يسرى يعتقد أن أدمغة الناس جميعا قد أكلتها العتة ، وخربت فى السعى وراء القرش ، أو كما يقول دائما : كيف ستلجم هذا الرجل عن غرضه ، وتقول له كف عن التفكير فى كوم اللحم الذى تحمله على كتفك ، ولا تفكر فى السفر الى الخارج فى سبيل ان تبنى لك ولعيالك دارا تأويك ، أو فى سبيل أن تضع على جسمك هدمة نظيفة ، وتطعم نفسك وعيالك لقمة لائقة ، كل الناس صمموا على هدف ثابت ، وهو كيف تقلع القرش من عين العفريت ؟ أن توقفهم عن هذا الفرض

ليطالعوا هذه الورقة أو تلك ، سيقولون لك هذا كلام جميل ، ولكنه احلام مجرد احلام . هذه الورقة لن تعيننى على شراء تليفزيون ملون كما فعل فلان ، ولن تساعدنى أن اضع قرشين فى البنك استفيد من فوائدها كما فعل علان ، أو لن تقدم لى يد العون لأهيل تراب دارى القديمة لأقيم غيرها بالحجر الأحمر كما فعل ترتان .

وهكذا .. وكان ياسر ينصت لهذا الكلام المحبط ، ثم يستوقف يسرى فجأة ليقول له : لكن ..

فيرد عليه يسرى بحسم : لا تقل « لكن » هذا هو الواقع ، واحد عبيط مثلى سينصت اليك ، وسيؤمن على كلامك ، ربما لان لا أولاد لى ، أو لأنى أقدر على نفسى قليلا ، كم واحد فى هذه « المخروبة » سينصت اليك ؟ بل قد يواجهك احدهم بالسؤال ، وكم عددكم أنتم أيها الاشتراكيون ؟ عشرة ، عشرون ، مائة ، ماذا ستفعلون فى هذه البركة العفنة ؟.

ويصمت ياسر تماما ، ويدع ذراعيه يسقطان الى جنبيه ، ويميل براسه على كتفه ليسرح فى لا شىء ، ويعود اليه يسرى ليقول له : أنا لا أقول هذا الكلام لأحطمك .. أبدا .. أنت تعلم بأن قلبى معك .

وحين لا يستطيع اخراج ياسر من حالته ، ويخشى ان يكون قد أصابه الغم ، يخبطه على ساقه ، ويمد له يده بالجوزة ، ويقول مهللا : يا عم ان شاء الله تخرب ، ولا تحمل هما .. خذ .. شد .

ويهدىء من لهجته قليلا ، ويتحدث جادا على حين غفلة : ولا يهمك ستحكمون البلد ، وتؤدبون كل أولاد الكلب ، لكن فى هذه الحالة أرجوك لا تنسنى ، فأنا معك منذ فترة ، اقرأ أوراقك ، وأسلم لك عقلى ، ومقتنع بكثير مما تقول ، فلا تنسى .

ويظل ياسر عاقدا على تكشيرة وجهه المهموم ، فيدفعه بكوعه ليقول له بغمزة من عينه : ما فيش ميعاد الليلة .. والا ..

ويبتسم ياسر ويبدأ يطقطق نار الحجر ، ويطلق الدخان على دفعات من فمه ، ليأخذه الهواء غلالة زرقاء شفافة ، ثم يبدأ يمزعها بعيدا ، ويلقى كل قطعة منها فى ناحية ، من فضاء الساحة الواسعة .

— ٣ —

قام « ياسر » من نومه على هزات خفيفة فى كتفه ، فرأى فى ضباب نظرته النائمة زبيدة تقف الى جوار السرير ، طافت بسمة لطيفة على وجهها الحزين وقالت له : حسين وصل .

وثنت ركبتيها على الكنبة لتدفع شيش النافذة المغلق ، فاندفع نور الشمس قويا يملأ الحجرة الضيقة ، وسمع صوت حسين يأتيه من الخارج : صح النوم فقام يمط جسمه ، ويضرب ذراعيه فى الهواء ، ليفك تكبيلة النوم المستحكمة وفى الصالة وجد حسين فى جلباب أبيض خفيف ، وطاقية بيضاء من القماش ووجهه مشرق ومضىء ، أزال عنه شعيرات الذقن التى كانت تنتشر عليه بالأمس ، وانمحى عنه الاجهاد ، وصار رائقا كمن رفع عن عاتقه كابوسا ثقيلا كان يرهقه ، وزوجة اخيه كانت بحجرة الكرار تنحنى على المكنسة ، وترفع الفضلات المتبقية من عمل الامس ، وزبيدة انشغلت بالداخل لتحضير الافطار أكل ياسر لقمة سريعة ، وارتدى قميصا خفيفا على بنطلون قديم ، ليتحمل غبار الطريق ، وخرج هو وحسين الى الشارع ، كان المقهى لا يزال مغلقا كذلك الدكاكين القليلة الموجودة بالشارع الجانبى ، وكان السكون شاملا الا من صياح بعض الأولاد الذين يمرقون فجأة عبر تقاطعات الشوارع ، والطاحونة كانت مغلقة ، وأبوابها العريقة وقفت فى صمود تستقبل اشعة الشمس الطازجة . وخرجا الى الشارع الكبير المسفلت ، ولم يلتقيا بأحد ليلقيا عليه تحية الصباح حتى انحرفا عند «السنترال» ليسيرا بموازاة السكة الحديد ، فرأيا عن يسارهما زينات تقف مع بناتها فى شرفة البيت ، يستروحن نسمة يوم الجمعة ، فصبحا عليها ، وعزمت عليهما بالشاى بحرارة وود ، واعتذرا لانهما — كما تعلم — ذاهبان قبل صهد الشمس لينهيا الموضوع ، ومرأ على البناء الجديد الذى تحوطه سقالات الخشب من كل جانب ، وصعدا تلال الرمل والزلط الملقاة فى الشارع والتى تمتد حتى شريط القطار ، وأشار حسين وهو يتصعب : مال حكومة بصحيح .

وقال الأخيه : بلدنا حتتنور خلاص ، هنا سيقام فرع للبنك الأهلى ، وفرع لصيدناوى .

وسأله ياسر : لكن البلد فيها فلوس تكفى كل فروع البنوك التى انشئت أخيرا ؟.

وأجابه حسين : امال يا سيدى الناس مدروزة فلوس ، شفت المشترى بتاع امبارح دا كان بيشتغل عندنا بالأجرة .

وسارا فى صمت بعد أن فرد حسين الشمسية ، ودخل ياسر فى ظلها ، ينظر الى الرسوم المعلقة على مدرسة البنات والعبارات المكتوبة على واجهة مدرسة التجارة التى كانت يوما مدرسته الابتدائية، هذه المدرسة الواسعة التى انشئت على آخر طراز ، فيها الحديقة الكبيرة ، وحجرة للادارة مستقلة ، وصفان من الفصول على هيئة حدوة الحصان ومراحيض ومسجد فى زاوية بعيدة ، وحوش واسع به جميع أدوات الالعاب الرياضية ، استكثروا كل هذا على الأولاد الصغار فضموهم فى بيت كبير ، استأجرته الادارة التعليمية ، واطلقوا فى رحابة هذه المدرسة أولاد وبنات التجارة التى تروج حكاياتهم على السنة البلد جميعا .

ولمح ياسر الخال محمد يشرب كرسى الدخان مع عمال ماكينة المجارى الواقعة على راس حقله ، فنادى عليه ، وترك الخال الجوزة، وجاء بخلعته الدمور وصدره المفتوح ، وبقدميه العاريتين اللتين تدوسان ندى الارض ، أقبل عليه ببشاشة فاردا له يده .

ـ على فين بدرى كده ؟

وقال حسين متجهما وهو يدور حول نفسه يريد أن يستعجل اخاه ، فلا يقف للثرثرة مع الخال الذى لا ينتهى له كلام ، ومال ياسر على اذن خاله ليقول له : لا تزعل منى .. ما على الرسول الا البلاغ .

ـ اللهم اجعله خيرا .

ـ يسرى يا سيدى يريد أرضه .

ـ أنا أشيلها على رإسى وأوصلها لغاية داره .

ـ ربنا هو الرزاق .

ـ بس أنا الاحق على أرضى .

ـ بيقول انه حيزرعها بايده .

ـ هو حر .

ـ بينى وبينك عايز يبيعها ليشترى عربية .

ـ عربية تانى ، نسى العربية اللى قلبها فى ترعة الاسماعيلية .

وصاح حسين وهو ينفخ ، ويضرب الحصى برجله .

ـ يالله يا عم .. انت فاضي .
وصافح ياسر خاله ، وقال له مهدئا : أعدى عليك بالليل .. لا تزعل .
وهتف الخال اليه ، وهو يعود الى مكانه : ابدا .. بس يدينى حقى .
وغمغم بكلام كثير ، لم تتضح عباراته لياسر ثم بدأ صوته يعلو ، وهو يحادث الرجال من حوله ، وعاد ياسر الى ظل الشمسية وبدا التراب يتناثر على قدميه ، وحول ذيل جلباب أخيه ، وسارا بتصميم فى مواجهة الشمس التى برزت قوية فوق العبل المصفوف فى طريق السيارات والذى تبدو أطرافه وراء شريط القطار الممتد الى البعيد .
وأوضح ياسر لأخيه أن يسرى كلمه فى حاجته لأرض الاصلاح الزراعى المؤجرة للخال ، وهو قد وجد الفرصة ليتحدث مع خاله ، وقال له : يبدو ان المسكين سيتأثر بالمسألة دى جدا .
ورفع حسين يده ليمسح العرق الذى نضح على جبينه : ويسرى حيعمل ايه بالارض ؟.
ـ لما سمع بموضوعنا عاوز يبيع كل حاجة ويشترى عربية .
ـ لما ربنا يسهلها وأبيع نصيبى من ميراث الارض الملك اشترى منه فى الطاحونة .
ـ بالك حسن ممكن يتجنن بعد ما كان طامع يلم كل حاجة أبيه يطلع من المولد بلا حمص .
وبدأ حسين يحكى لأخيه عن ذلك الطمع القديم فى نفس حسن وذلك الجشع الذى يسرى فى دمه ، من أيام العائلة وأن السبب ميل امه اليه ، من يوم تزوج هو الغريبة ، بينما ضم حسن اليه ابنة أختها ، القروية التى تعرف أصول التودد الى الأمهات العجائز .
وحكى له ان الأب أيضا كان يميل اليه ، ويفضله عليه ، وظهر ذلك من يوم أن أسلم له أذنه ، مما كان يدفع الاب للغضب على حسين ويتهمه بالسرقة ، وحسين كان يراه بأم عينه ، وهو يرفع أجولة القمح ، وزكائب الذرة عينى عينك ليبيعها للتاجر ، ولا يقدر أن يفتن عليه ، بينما الآخر كان اذا رآه يقطع بعض كيزان الذرة ليشويها مع « المرابعين » يهرع الى الاب ليقول له ان حسين عمل ، وعمل ، وعمل .. وأنهما حين أرادا الانفصال والعيش فى حياة مستقلة عن الاب ، فاز هو بكل شيء ، بل لقد عاركه من أجل صينية العشاء ، وانحاز الاب اليه ، بل ميزه ، فأعطاه البقرة بعجلها ، ولم يعط حسين غير

البقرة العجوز العجفاء التى لا يدر ضرعها اللبن ورضى بقسمته ونصيبه، وأنه حين احتاج للمال فى جواز ابنته البكر ، وطلب من أبيه المساعدة ، تدخل حسن وقال : وهل سيعيش لنا أبونا ليجوز أولادنا ؟. وعرض أن يشترى نصيبه من دار العائلة ، ووافق على ذلك ، فخرج حسين ليسكن فى دار زوجته الموروثة عن أبيها ، واستحوذ على القطعتين معا . وأنهى حسين كلامه بتنهيدة قائلا : يووووه .. احكى ايه والا ايه ؟. خليه يشبع .

وكانا قد استقبلا دور عزبة « شديد » ووصلت اليهما رائحة الخبز المحمص مع الدخان المتصاعد من طاقات الدور ، وكانت الكلاب قد لمحتهما من بعيد ، فأطلقت النباح عاليا ، ولما اقتربا من الدور خرجت الكلاب عليهما ، وحين تشممت جلباب حسين هدأ نباحها ، وعادت الى الظلال التى ترقد تحتها فى سكينة .

امام الارض :

وقف ياسر وحيدا يتأمل المكان ..

هذا هو سور الجامع الذى حاول أبوه أن يقيمه قبل وفاته ، طوب احمر ، تشقق أسمنته فى أكثر من زاوية هاهنا وتذكر كلام ابيه « سيكون المحراب ، وسأكلف نجارا من البلد ليصنع منبرا من الخشب ، ويزخرفه بنقوش جميلة ، سيكون صغيرا جدا حقا ، ولكنه يتسع لرجل يقف عليه ، ويرفعه الى أعلى فيظهر واضحا للمصليين ، وهنا ثلاث نوافذ قبلية ، ومن هنا سنفتح بابا صغيرا يؤدى الى الميضة التى سأجلب لها عشرة صنابير ، لن اترك الناس يتوضأون بماء الترعة، كما تفعل العزب الأخرى ، سأنشىء صهريجا من الصاج ، وطلمبة ، يتولى أحد رجالنا ضخ الماء فى المواسير ، وسأقيم هنا ثلاثة مراحيض، أخشى من أن رجال العزبة «المناجيس» لا يستفيدون من الجامع الا بقضاء الطبيعة ، سيجعلونه اذا تركته مفتوحا على « البهلى » مرتعا ، لأنهم سيهجون من قذارة بيوتهم المظلمة ، ليتمطعوا فى نظافة الجامع الذى سأفترشه بحصر كبيرة . »

ولم يكتمل البناء ، جاء الى الاب من قال له : من يكمل مسجدا يقضى نحبه ..

ودومت الفكرة فى عقل الأب ، ثم قصرت يده فى أواخر أيامه ،

فأهمله ، وتركه على هذا الحال ، واقنع نفسه فى النهاية : عليهم أن يكملوه ، انا جهدى لهذا الحد ، وعليهم بالباقى .

وتحرك ياسر ليلمس جذع الكافورة العجوزة ، تقشر لحاؤها ، وبان لحمها من الداخل جافا ومكرمشا ، والكثير من فروعها جف ، ونزع منه الورق ، وبعضها مدد على الارض ، ودقت به المسامير الحدادى الغليظة ، لتربط بها الماشية .

كم من الساعات الطوال قضاها تحت ظل شبابها الوارف ، كان يلذ له فى السنتين اللتين قضاهما هنا الصعود الى السطح لينام تحت أغصانها الخضراء الممتدة ، يتمدد على الحطب ، وتستره الشجرة بأوراقها التى ترمى عليه ظلة دسمة ، فكانت تجعل من هذه البقعة بالذات فردوسا حقيقيا ، فى عز الهجيرة تكون الارض هناك حارة ، تنفث بخارها فى وجه السماء ، بينما النسمة هنا تتحنجل حوليه بخفة وطرب .

ما أصاب الشجرة انتقلت عدواه الى الدار القديمة ، هل تشعر الاشياء بأصحابها ؟ سقطت الدهاكة ، وبانت الاحجار الطينية ، وكثير من جحور الفئران ، ورغم ان قفلا أسود كبيرا اغلق على الرزة الصدئة بين ضلفتى الباب الا أن الدار بحالها ، لا تستر شيئا البتة ، السقف مخلوع من أعلى ، والابواب ضعيفة هشة ، أهلكتها الشمس التى تدور حولها من الصبح حتى آخر النهار .

هذا هو باب حجرة الجلوس التى جعلت يوما حجرة خاصة به ، ينكفىء على « الترابيزة » الكبيرة بعد أن تشعل له أمه لمبتين نمرة عشرة ، ويقعد من العشاء حتى نطقة الفجر ، ثم يلمه غطاء السرير الصفير الذى وضع تحت النافذة المطلة على جسر الترعة ، وحين يلم الضيوف الكبار بالدار ، ترفع الترابيزة ، وتفك الواح السرير ، ويركن فى الردهة .

وهاهى الآن قد جعلت مخـزنا للتبن ، ومأوى للفأر والثعبان والحشرة الغامضة . وهناك فى الحجرة الاخرى التى جعلت مقـرا لزوجة الأب ، ما زال السلك الذى يحمى من البعوض متشبثا بآخر خيوطه فى المسامير الصدئة .

وانتقل بسيره البطىء ، يلف حول المكان ، كمن يتلذذ بألمـه ، ويجرح القلب بالذكرى الحميمة ، مؤملا الا تكون هناك عين من العزبة ترقبه ، فتضحك فى عبها متشفية ، وهو يود الا يلتقى بأحد من أولاد هذا الرجل الذى كان يقود أهل العزبة فى النزاع مع الاب على

أرض الباشا ، سيلحظ الأسى فى عينيه ، وقد يقول له مجاملا ، كما قالها يوم جاء مع اخوته لجمع المتأخر من ايجار الارض عقب وفاة الاب بيومين : لا شىء يدوم . . جمعوا هذا الطين أبى وأبوك لكن ماذا أخذوا معهم فى دار الحق ؟ لا شىء . . لا شىء .

هذه هى « زريبة » الغنم ، هكذا سماها الأب لأنه كان يحلم بامتلاك مراح كبير ، يدعه لأحد رجاله يتولى شئونه ، ولكن غنماته بعد سرحة كل يوم ، هنا كانت واقعة ابنته عزيزة مع حسان رآهما من الشباك الصغير بحجرة الفرن ، وسمع لهاثها بين ذراعيه : وصوتها الخائف : بلاش هنا .. بلاش هنا .

واخوه الذى كلبشته الرغبة ، استماتت فى احتضانها ، وفى جرها اليه ، الى الركن وهنا .. وهنا .. قضى حسان وزبيدة ليلتهما حين عادا من البلد ليلا ، ورفض الأب أن يفتح لهما الباب صائحا فى وجهيهما : اذهبا .. الى حيث تعيش أمكما . وكانت الام فى غضبة طالت أيامها ، تركت دار الأب مع زوجه وعادت هى الى دار أبيها .

وهنا الحوش الصغير ، وسمع صوت أبيه يوم جلب أولاد العائلة جميعا ، ليساعدوا فى رفع الطوب للبنائين فوق السقالات « سأربى النحل فى خلايا بالقرب من الزرع ينطلق اليه يأكل ربيعه ، ونجمع عسله فى السنة مرتين ، نأكل منه ، ونوزع على الأهل ، ونربح بالباقى فلوسا حلالا » .

ووصل أخيرا الى الشجرة الصغيرة التى غرسها أبوه فى سنواته الاخيرة ، بعد أن صار المكوث فى الدار جحيما ، لا يطيقه بشر ، لأنها هجرت من زمن بعيد ، فعاثت فيها البراغيث فسادا « وصار الواحد منها بحجم الكف » هكذا كان يقول الأب « فلا افضل من فرشة نظيفة تحت توتة ، أعلق عليها شربة مائى ، على رأس الغيط . »

وجلس ياسر لينظر الى مساحة الارض الممتدة أمامه ، وجعل من كفه مظلة ، فارتاحت العين ، ووضحت رؤيتها ، فرأى حد الارض فى غبشة العبل المنتصب هناك عند حدود أرض الاصلاح الزراعى .

كم مرة انحنى فوق هذه الارض ، يكبش الكيماوى ويلم غلة الرز ، ويبحث عن الدودة فى خطوط القطن .

كم مرة دخل بين عيدان الذرة ليجمع ورقا للماشية ؟ .

وكم مرة سهر فى الخص ليحرس زرعة الطماطم والخيار و . . و . . و . . و . . وأحس الأرض وقد تجمعت على نفسها ، وانكمشت حتى صارت جسدا اليفا ، يقعى بين ساقيه ، يتمسح به ، ويقترب

فى تلمس حان ، وشعر وكأنه يشم ريحها ، ويتسمع لأنفاسها ، وهى تضمه اليه : أهلا بالغالي ابن الغالي .. ها انت ذا تعود الى.. الاتعلم انى اشتاق اليك .. لقد رفعتك صغيرا لينا بين يدى هاتين .. فلا تتخل عنى ..

وشعر بالدمع ينساب على خديه ، فرفع يده ليمسحه ، ومرة اخرى راى الارض بساطا اخضر ، ولكن شيئا ما يربطها بقلبه ، كاحساسه بالبلد حين يمشى فى شوارعها ، كاحساسه بأخته زبيدة تحوم حوله ، وتقضى له أغراضه فى صمت ، كشعوره بحضن أمه حين كان يرتمى عليها ، فيشعر باتساعه وعمقه ، وكشعوره بقامة أبيه ، وسيره وسط الرجال فارها ، وبهيا ، بجلبابه الفخيم ، وعمامته الوضيئة ، فيستمد من وجوده الراحة والأمان ، كشعوره بـ ... وسمع صوت حسين فاستفاق مرة واحدة ، وغاضت أحاسيسه ليرى حسين بنيته الصلبة فوق مدار الساقية ، والى جواره رجل يتلفع بشملة خشنة ، ويلم جلبابه الأسود هيكلا خشبيا جافا ، فألقى نظرة اخيرة الى الأرض ، وتسلق المدار ليمد يده ويصافح اليد الصفراء الباهتة ، وما كانت هذه اليد الا يد « ابراهيم الفار » شيخ العزبة .

الجامع :

دور العزبة تقع ما بين الفدان المزروع بأشجار الجوافة والليمون وجسر ترعة « المورية » تصطف هذه الدور القليلة فى قطاعات عرضية ، تبدأ بمساحة مستطيلة فارغة يستغلها أهلها فى قعدة أول الليل ، وفى ركن أدواتهم ، كالمحاريث والنوارج والطنابير ، ثم باب كبير بضلفة واحدة ، لا يغلق ابدا الا على زمهريرة الشتاء القاطع ، ثم ظلمة ابدية لا يظهر فيها شىء غير حزمة من ضوء الشمس ، تسقط على فرن ، أو على منخل معلق على الحائط ، أو على قاعدة الزير الاسمنتية .

ودار ابراهيم الفار واحدة من هذه الدور ، غير أنها تتميز عنها ، بهذا الصندوق الخشبى الصغير ، المدقوق على الجدار عند المدخل ، وهو « البريد » الذى يسقط فيه أهل العزبة رسائلهم النادرة لبعض الأولاد الذين رحلوا الى العراق وبلاد الخليج فى الايام الأخيرة ، يأتى البوسطجى من البلد فى الأسبوع مرة ليفتح الصندوق ، ويدس فى جعبته ما تجمع فيه ، ثم يجلس على الحصير المفروش دائما أمام الباب راكنا دراجته بالقرب من خلايا النحل البلدية المصفوفة أسفل

الصندوق ، حتى تأتى اليه زوجة شيخ العزبة بكوب الشاى السخن ، وقد يلقاه زوجها على الجسر ، فى أول العزبة ليقول له : لا تتعب نفسك ما حدش رمى جواباب .

وقبل أن يتجه ياسر بصحبة أخيه الى دار « الفار » نزلوا عن المدار ، واتجهوا الى الدار حيث وقفوا عند الباب القديم لحجرة الجلوس ، وكان حسين قد تسلق ذكر التوت ، ونتش منه فرعا طويلا مستويا ، نزع الورقات الخضراء وجعل من الفرع « بوصة » انحنى بها تحت الدار المهدومة من أول الجسر حتى الكتف الذى يفصل حجرة الجلوس عن الردهة ، ثم قام بوجهه المزرود ليقول للفار : كده يكون عرض الجامع .

واتجه ليقيس بالبوصة عرض الدار ، من أول المدخل حتى الحجرة الوسطانية المدفوس فى طاقاتها كرات القش والخيش ، ثم قام مرة أخرى ليقول للفار : وكدا الطول .. معقول ؟.

وردد الفار وراءه : معقول .. كتر الف خيركم .

وهمس حسين فى أذن أخيه الصغير : شفت الرجل مبسوط ازاى .

وعلق ياسر بصوت عال : لازم نحقق حلم أبينا ، ولو كان هذا السور الذى ابتداه يصلح للاكتمال لكنا اتممنا بناءه .

ورد حسين مدعما كلام اخيه : هنا واجهة الجامع تكون افضل .

ولم ينس ياسر أن يؤكد على الرجل بأن يلصق رخامة تشير الى اسم أبيه مؤسس المسجد ، بعد انتهاء البناء .

دعاهما الفار ليشربا الشاى فى داره ، فانحرفوا جهة المدار ، ثم انحدروا من الجسر لتطرق أنفهم رائحة تختلط فيها روائح النوم والسباخ واللبن المتخثر ، هى رائحة دار الفار .

ووجدا الحصير مفروشا على الأرض المكنوسة ، ونادى الفار على أهل بيته ليخرجوا مساند الكنب النظيفة ، وليصنعوا الشاى للضيوف الأعزاء ، وخرجت ابنته ترفع المساند على رأسها ، وجعلتها ما بين الجدار الطينى ــ الذى ينهال ترابه من اللمسة الخفيفة ــ وظهر ياسر وأخوه الحريص على جلبابه النظيف من التراب .

وجر الفار « المنقد » المركون على جنب ، وبدأ يشعل نارا فى الجمرات الخامدة واخرج من كيسه القماشي صندوق معسل ، وبدأ يملأ الحجر منه ، وينفخ في النار فتصهلل من جديد ، ثم التفت الى الأخوين ليقول : « كده أبوكم ارتاح فى تربته » .

وقال حسين كانت أمنية عمره أن يبني الجامع ويوصل الميه للعزبة .. الله يجازيهم وقفوا فى وجهه ، فعاندت الحكومة ، واكتفت بحنفية عند ملتقى الكفر بالعزبة .

وقال الفار : الله يرحمه كان شهما ؛ علمنى درسا لا أنساه فى حياتى ، لما التقينا كخصمين فى جلسات المحاكم ، قال لى بص يا ابراهيم وتأمل المحامين ، تراهم شديدى الخصومة امام القاضى ، وحين ينتهون من المرافعة يذهبون معا ليجلسوا فى مكتب المحامين كأصدقاء ، علينا أن نكون مثلهم ، فى الحياة أصحاب ، وفى الجلسات يقدم كل منا أقصى ما عنده ضد الآخر ، وامن حسين على كلامه : كان عاقلا وحكيما .

وقال الفار : عاندنا معه فى البداية عنادا شديدا ، بعد أن قامت الثورة ، وحددت ملكيات الباشا ؛ قلنا تخلصنا من الاقطاع ، ثم حين أراد الباشا أن يلحق نفسه ، ويبيع هذه القطعة قبل أن تصادرها الحكومة ، وعرضها بثمن رخيص ، لا يذكر ، قلنا هذه فرصتنا لنصير ملاكا ، وأصحاب طين ، فجمعنا الفلوس القليلة المخزونة فى شقوق الدور ، وبعنا حلى النسوان ، وجرجرنا مواشينا الى الأسواق ، وتقدمنا الى وكلاء الباشا ، فعرفنا بأن الحاج قد سبقنا ، فاشترى دور العزبة بالأرض الملحقة بها ، بحق شفعة الأرض التى كان قد اشتراها فى فترة سابقة ، ووقع النزاع ، فصرنا نحشد له ، ويحشد لنا .. أتذكر يا حسين يوم أن عبأ أبوك عربة نقل من رجال البلد ؛ يرفعون السلاح ؟ وزعهم حول داركم ، فلبدنا لهم فى دورنا ، وأطلقنا الرصاصات الطائشة .

وقال حسين : كيف أنسى ؟ يومها اتلم على أولادكم ، وجردونى من هدومى ، وأرسلونى الى أبى عاريا تماما ، واستقبلنى بصفعة لم أزل أسمع صفيرها فى أذنى .

وجاءت زوجة الرجل من داخل الدار ، ترفع الصينية عليها البراد الأزرق الذى يحوطه السواد من القعر الى « البزبوز » ، رحبت بالضيفين ، ولمت شاشها على وجهها ، وقعدت الى جوار زوجها ، تجمع أطراف الثوب المزق ، وتنظر بعين واحدة جهة حسنين لتسأل عن الجماعة ، والبنات عاملين ايه ؟ بخير ؟ والنبى السلام أمانة .

وذكرت الحاجة بالخير ، وأيامها الطيبة معها ، وقالت : ان اليوم الذى يمر لا يأتى مثيله أبدا ، وذكرت الحاج بالطيب .

وقالت ان زمن الرجال الحقيقيين قد ولى .

وقام حسين وأخوه مستأذنين من الرجل ، وقال حسين : الأرض تعتبر تبرعنا نحن كورثة جميعا ، وعليكم بالباقى ، لا دخل لنا لا بالطوب ولا بالأسمنت أو خلافه .

وقال الرجل بأدب جم : « كتر الف خيركم . »

وأكد عليه ياسر : ان جاءك احدهم لا تسمع لتهديده .

وفى الطريق مال حسين على أذن أخيه قائلا بابتهاج : كدا ضمنا رجال العزبة فى صفنا ، وليخبط رأسه فى الحيط .

عطش الصبار :

بنات الحاج ارتدين جلابيبهن السوداء ، والتقين فى الدار الكبيرة ، وسرون فى ظلال الدور الخلفية ، تفوح منهن رائحة خفية لعطر رخيص ، وأمام مبنى المحكمة ، قطعن قضيبى سكة الحديد اللامعين ، وطرقعت تحت نعالهن زلطات صلبة ، ودافئة .

واستقمن فوق أسفلت الطريق الجديد حتى انحرفن مع الانحناءة المفاجئة للترعة التى تترك البلد عند مدخلها ، وتلف حولها من بعيد ، واستقبلن الشواهد الرابضة تحت شعاع الشمس الراحلة ، ورأين الجلاليب السوداء تشفى فى الشوارع الضيقة وعلى التلال الصغيرة بينها .

فى الشارع الترابى الموازى للمصرف ، رأين العربة « المرسيدس » ترقد تحت جذع الجميزة العجوز ، والأرض مرشوشة بماء خفيف ، من أول الجبانة الى السبيل الذى دهن بجير أبيض ، وجدد ماؤه ، وأعيد له الحياة ، بعد أن أزيحت عنه الحشرات التى جعلت من عيونه مرقدا .

وانزوت البنات بعيدا حتى حافة المصرف الرخوة ، ليتفادين حلقة النسوة القاعدات على كراسى « بيلاج » مخططة ، وتتوسطهن الحاجة الكبيرة ، تبرق أساورها الذهبية فى شعاع الشمس الأخير ، وكان السن الذهبى يلمع فى ظلمة فمها وهى تتحدث لمن حولها ، وظهرها الى الرخامة الكبيرة ، المكتوب عليها بخط كوفى جميل اسم ولدها الذى رحل منذ عام .

زغلل بريق السن والأساور عين البنات ، وتنشقت انوفهن روائح العطر التى سبحت فى فضاء المقبرة .

قالت الكبيرة وهى تلم طرحتها حول عنقها : المقابر للموعظة لا « للفشخرة . »
وردت أختها : تذكرى أصلهم .. الفلوس تعمى .
وسرن يجمعن ذيول الجلابيب ، ويتوارين بين الشواهد ، يكتمن ما اهتاج فى قلوبهن ، ويتفادين النظر الى الوراء ، رغم حاجتهن الشديدة لذلك .
وقفن ضارعات باكفهن ليهمسن بالفاتحة أمام مقبرة « الحاج » وتنبهن بأن مقبرة الأب المهملة ، تنتشر عليها شروخ كبيرة تتسع للفأر وليد الرجل تمتد الى ظلمتها ، ورأين دهان الزيت الأخضر الكثيف قد سقطت قشرته ، وبانت الحجارة القديمة ، وانتبهن الى البلاطة المكتوب عليها اسمه بخط ساذج تكاد تنزلق من اطارها المشقق ، فرحن يزحن براحتهن الورق الجاف المتراكم فوق المصطبة ، ويكنسن بأقدامهن وبالغصن الناشف الورق المتناثر أمام العين . واخترت مكانا بين السور القصير ، وحاذرن الا يضغطن عليه بظهورهن .
وقالت واحدة : لم يهتم واحد من الأولاد بتجديد « تربة » أبيه .
فردت الأخرى : لحس الميراث عقولهم .
وقالت الكبيرة : أكثر من مرة اقول لهم فليساهم كل واحد منا بجزء من نصيبه لنرمم مقبرة « الحاج » .
ومصمصن بجانب أفواههن ، ثم قعدن فى سكون ، رءوسهن على أيديهن ، وعيونهن ترنو للحشرة الزاحفة على بطنها بالقرب من الفتحة .
وطلعت عليهن أم قاعود بهيكلها الناحل ، تستره خرق ممزعة من جلباب أسود كالح ، جعلت عقدته الكبيرة على ناحية ، فبانت سيقانها الجافة ، وكانت بمجملها بهيئة جثة خرجت ـ على غفلة ـ من احدى الفوهات المفغورة التى لا نهاية لظلامها .
أقبلت ترفع صفيحتها المطبقة من كل الجوانب ، فرفعت شاشها الساقط على كتفها ، ونشرته على فرع الشجرة القصيرة المائلة على مقبرة « الحاج » واتجهت اليهن فاتحة ثغرها المظلم : أهلا بالغاليين .
وانحنت على رأس المصطبة تقبلها : أبوى الحاج انا لا أهمله أبدا .
وسحبت المكنسة من تحت الابط ، وبدات تكنس فوق المصطبة ، ونزلت الى الارض ، تلملم الورق المتبقى ، وتنظف حوض الصبارة الوحيدة بالقرب من العين المسدودة بالحجارة والطين .
وسمعت البنات حديثها الى نفسها وهي على انحنائها : وهل

نعوض أمثال هؤلاء الرجال ، انقضى زمنهم والأجر على الله ، لم تعد العين تقع على رجل حقيقي يقشعر الجسد لمنظره .
وحركت البنت الصغيرة يدها الى صدرها لتجر الصرة ، وسحبت منها عشرة قروش فضية ، جعلتها فى كفها حتى تنتهى المرأة من عملها .
وعادت أم قاعود بالصفيحة ملآنة على آخرها بماء القناة القريبة ، وأمالتها على حوض الصبارة ليسيل ماؤها دون أن يخلخل الجذر الهش ، وادارت الى البنات وجهها العرقان لتقول : وهل أنساه ؟! أيام كنت أذهب اليه بكيسى فى جرن القمح ، وينادى على .. تعالى يا نفيسة تعالى ، ويملؤه على أبيه .
وأشرقت وجوه البنات ، وبدان يرفعن الطرح عن وجوههن ، وينصتن الى كلام المرأة التى قعدت قبالتهن على المصطبة المجاورة ، ومدت الوسطى يدها الى صدرها ، لتخرج ورقة لم تنظر اليها ، وأخفتها تحت فخذها : تصدقوا بالله .. أنا لم أخبر أحدا بهذا قبل اليوم ، كان المرحوم ــ ربنا يجعله في نعيمه ويوفق له أولاده ــ يمر على كل رمضان ، فى هدوة الليل ، ويقف جنب شباكى ، ويطرق حديده بعكازه ، فأبص بين القضبان استطلع الطــارق ، فاذا يده المبروكة مطوية على « اللى فيه النصيب » ويخفى وجهه فى العباءة عنى ، ثم يدخل فى ظلمة الحارة ، حتى لا أعرفه ، ولكن كيف أتوه عن وجهه ؟ اليوم يصفوننا فى طوابير أمام دكاكينهم ليرانا « اللى يسوى واللى ما يسواش » لنكون فرجة للبلد ، وتصير فضيحتنا بجلاجل ، انهم لا يريدون وجهه ، عيونهم على العبد .
وتضيق حلقة البنات ، ويمسكن أطراف الطرح ليروحن بها على وجوههن التى وردها الاضطراب ، وتفرد الكبيرة صرتها فى حجرها ، وتختار ورقة من لفة الفلوس وتطويها فى يدها .
وتواصل المرأة حديثها : كنت ــ ألف رحمة ونور على روحك يا بركة أذهب اليه فى الطاحونة بكيلة الحب ، وبصرة الحلبة ، فلا يقبل أن ارفعها على الميزان أبدا ويدفعنى فى ظهرى ، ويقول ، ادخلى يانفيسة ادخلى . ويشير الى الرجل القاعد امام القادوس ، ويأمره « شف اللى عاوزاه وانا أجيب لك النمرة . »
وسمعت من يناديها عند شجرة الكافور العالية ، فهرعت الى طرحتها لتلقيها على عجل فوق كتفها ، وسحبت الصفيحة التى أفرغت ماءها ، وأعادت ضبط المكنسة تحت الابط .

واستأذنت من البنات ، فقمن جميعا مرة واحدة ، يلفمن قروشهن اليد المعروقة وهى تتلوى وسطهن ، تبحث عن مخرج ، وسط الحلقة المحكمة : خيركم سابق .. يا حبايبى .. خيركم سابق .

والبنات ضغطن عليها ، واجبرن أصابعها لتقبض علي القروش ، وصحن وراءها : لما تشوفى احدا من الشيوخ ابعتيه .

ورت عليهن ، وهى تقفز كعنزة ضامرة فوق المصاطب : حاضر .. من عينى .

وقالت لها الكبيرة : لما تعوزى حاجة عدى علينا .

وسمعن « كتر خيركم » من بعيد ، وهى مشغولة بتنظيف المصطبة التى مال عليها ظل الكافورة الممدود .

ووقفن يترقبن مرور المقرئين ، متحررات من أغطية الرأس ، وتجرأن على فتح صدورهن ليستقبلن هبات النسيم الذى انطلق من مكمنه .

بعد أن زالت حرارة الشمس ، وانسحبت الى أطراف السماء الملامسة لجريد النخيل البعيد ، نظرن الى مدخل الجبانة فلم يرون الا السواد يشفى بين المصاطب والأسوار التى مدت ظلها .

وقامت الصغرى الى الشجرة القصيرة ، وقصفت منها غصنا اخضر والقته بحنو فوق مصطبة الأب .

- ٤ -

استيقظ ياسر من نومه على صوت أخواته بالصالة ، فقام الى النافذة ، ودفع شيشها الى الوراء ، وفوجيء بالظلمة التى انسحبت من تفريعات الشوارع ، وحطت فى حوش الحمير ، فحجزت حجرة الميزان ، والحوائط القديمة للطاحونة ، وباب « العدة » ، وفوجيء بأن مصابيح النور بدأت تبزغ على امتداد الشارع ، وتوزع بقعا من الضوء الاصفر حولها ، فقال لنفسه : ياه ..

وخرج الى الصالة يرفع ذراعيه الى أعلى ويخفضهما الى أسفل ، ويلوى قامته ليا شديدا حتى سمع طرقعات الجذع ، واحس بانفراد عضلاته ، فشق لمة الاخوات الموزعاتعلى الكزاسى، واتجه الى الحنفية لينعش وجهه بالماء ، وتردد قائلا لنفسه : آخد « دش » .

وسمعهن يتحدثن عن الحاجة أنيسة التى رأينها - فى عودتهن من الجبانة - عند موقف السيارات عائدة من زيارة حسن ، وقلن انها انحرفت بوجهها بعيدا ، وهى جالسة فى الكرسى الامامى لسيارة الأجرة ، وحسن ينحنى عليها يحادثها فى أذنها ، واندهشن من هذه الزيارة ، وعبرت زينب عن شكوكها : يا ترى بيدبرونا ايه ؟.

وقالت زينات : يعنى ما تحضرش سنوية أبيها ، ولا تنكسف من نزول البلد بعدها بيوم .

وقالت زبيدة : على يدك .. ابوها كان بيموت ولم تزره ، وحضرت العزاء على سبيل الواجب .

وتحدث اليهن ياسر مطمئنا : وماذا يمكن أن تفعل هى أو حسن ؟

وحكى لهن عن زيارته للعزبة مع حسين ، وكيف أنهما حسما موضوع الجامع وحددا المساحة المطلوبة ، وكيف هلل لذلك شيخ العزبة ، فلن يكون بمقدور أى منهما المطالبة بواجهة الأرض ، وانهم ضمنوا أهل العزبة عند اللزوم ، وسعدت البنات لهذه الانباء .

وتركهن ياسر ليدخل الحمام ، وبين رشاش الماء ، كان يسمع أصواتهن الغاضبة تسب هذه الأخت الجحود ، والاخ الطامع الذى لا يكف عن تحريك جمرات الشر كلما خمدت .

وبعد أن ارتدى ملابسه النظيفة ، خرج الى المقهى المواجه للدار ، فاختار كرسيا فوق الرصيف المرتفع ، وركن عليه كوعه ، مسلما وجهه للهواء الذى يركض من شارع الفرن الضيق الى فضاء الشارع الواسع .

وبعد فترة قال لنفسه : ابن المأذون لم يأت بعد ، اشرب كرسى الدخان مع الخال ، واعود اليه .

وفى الطريق تذكر أيام الجد ، قبل أن يضموا له الكنبتين ، تحت النافذة المفتوحة على الشارع وقبل أن يرفعوه من حصير الارض الذى يوجع العظام العجوز ، ويحيطوا جذعه بالمساند ، كان يشترى « باكو » المعسل كل ليلة ، ويدخل عليه ، وكان الجد يحفظ مواعيده ، فحين يدخل يلتفت اليه — وهو لا يراه — ويهتف باسمه كطفل ، وتكون الخالة مفترشة الارض تحت قدميه ، تزود شعلة المصباح المعلق على الجدار ، وتهم بسحب الموقد من تحت الكنب ومعه الصينية عليها عدة الشاى ، « تدلق » الجاز على القوالح ، وتشعل نارا صغيرة تسوى بها الشاى ، وتدفن الباقى تحت الرماد ، لتستخدم جذواته فى رص الجوزة التى يقوم ياسر بتغيير مائها من آلصنبور القريب من الباب الكبير ، ويمسى عليه الخال الذى يكون قد عاد من حقله ، وشطف وجهه ، وارتدى الجلباب النظيف خارجا الى المقهى على اول الشارع ، فهو لا يجرؤ أبدا على شرب الدخان أمام أبيه .

انحرف الى الدكان الموجود على الناصية ، ووجد صاحب الدكان على الكرسى ، فوق الرصيف ، لما رآه ، وقف ليسلم عليه ، ثم دخل من تلقاء نفسه ، ومد يده الى الرف ، وسحب ورقة الدخان ، أخذها ياسر وسأله : كيف الاحوال ؟ قال : نحمده .

قال فى نفسه : ضمنا « درج » واحد ، ها قد ترك تعليمه ، بعد أن مات أبوه ، ليفتح الدكان ، ولو جلست معه الليلة سيحدثنى عن أحلامه التى لم تتحقق ، وسيلغى الزمن والبلد الضيق الذى لا تروج فيه تجارة .

تركه لينزل الى الشارع ، رأى النور يخرج من المضيفة عرف أنهم يكملون العزاء لميت من الحى ، فأقرباء المتوفى يصطفون عند المدخل ، وتحنحنات الشيخ تهيىء الميكرفون للتلاوة قال فى نفسه : لن أمر عليهم .

دخل الشارع الصغير ، عن يمينه ، وكانت النسوة على عتبات

الدور يتبادلن الحديث تجاهلهن وسار فى طريقه المظلمة ، ثم تجاهل أصحاب المأتم المصطفين فى مستطيل النور دفع باب الدار المواجهة للمضيفة ، عبر بقعة الماء بالقرب من حوض الحنفية ، ونادى بصوت مرتفع ، وكان قد سمع الاصوات تأتى من حجرة الخال ، والدخان كان خارجا من أعلى الباب الى فضاء ما بين الحجرتين المبنيتين بالطوب الاحمر والزريبة المبنية بالطوب النى .

برزت رأس البنت الصغيرة من فتحة الباب ، وصاحت : الاستاذ ياسر .

وسمع صوت خاله يقول : أهلا وسهلا .

عند عتبة الباب رآه وزوجه يقفان بانتظاره ، والغريب الجالس معهما على الحصير ، ركن الجوزة ، ووقف يبتسم له : أهلا .. أهلا .

ولمح خالته جالسة فى حجرتها وحيدة فوق الكنبتين المضمومتين، أسفل النافذة التى يتسرب منها صوت المقرىء .

قال لهم : اسلم على خالتى . قال الخال : واجب .

عبر العتبة العالية ، ومد يده اليها : ازيك يا خالة .

رفعت يدها من تحت الغطاء الملموم على خصرها : نحمده .

سألها : مالك ؟ قالت : أبدا .

كانوا يقفون فوق الحصير بانتظاره ، قبل أن يسلم عليهم شم رائحة طبيخ مختلطة برائحة المعسل ، قال الغريب : يا مرحبا .

ولم يستطع ان يمد يده الى أولاد الخال الراقدين على السرير يطالعون كتبهم ، فأشار اليهم بيده من بعيد ، فردوا على تحيته بحياء .

وقال الخال : تفضل . ومسح بكفه الشمع المنشور على الكنبة ، فقعد على الطرف .

قال الخال : اقلع الجزمة وربع .. قال : خلينى فى الهوا .

قالت زوجة الخال : « السقسيقة » عدت على دارنا عرفت انك حتزورونا الليلة . حين سقط الشال عن وجه الغريب ، تأمل ملامحه ، قال فى نفسه : لقد صار رجلا ، له شارب ، ويلبس الجلباب النظيف . هو ابن ذلك الرجل الذى أمسك لنا العصا ، وقادنا فى خطوط القطن ، نجمع الدودة ، كان أبوه يحبنى ، ويقربنى ، ويقربنى اليه ، يجعلنى اقف وراء ظهور الاولاد المحنية لاشرف عليهم ، وكان يأخذنى ـ آخر كل شهر ـ الى داره ، يضع أمامى « الطبلية »

الصغيرة ، عليها لمبة الجاز ، ويجمع الاولاد بالردهة وينادي عليهم اسما اسما ، وانظر انا الى الدفتر ، وأعمل علامة « صح » أمام الاسم ، وأعد له القروش المكتوبة بخانة الاجر . » _

ابتسم الغريب بخجل ، وقال : اظن ما تخدش بالك منى يا استاذ ؟.

قال : انت « العربى » .

بدت السعادة على وجهه ، وقال : الله ينور عليك .

طلب الخال أن يواصل الرص ، فسأل العربى : والاستاذ له فى المعسل ؟.

قال : طبعا . وأخرج ورقة الدخان من جيبه ، وألقاها في حجر الخال ، فانتفض الخال فجأة : الدخان كتير . قال العربى : أرص لك كرسى « قص » ؟

قال : ادخن « باكو » قال العربى : جوزة خالك عليلة .. أجيب لك جوزتي .

قال : لسه حتروح ؟

ـ بانط من الحيطة على دارنا .

ضحك الخال : زى الجن .

ركن العربى الجوزة على الدولاب ، وقبض على ذيل جلبابه بأسنانه ، ونزل من المرتفع الذى تقام عليه الحجرتان ، أخرج رأسه ليتابعه ، فاستراح للنسمة الخفيفة التى لامست وجهه ، رآه يتسلق ظهر الفرن ، ليخرج من العشة الى حائط داره المجاورة ، لمح الخالة على وضعها بين الغطاء ساندة رأسها على كفها ، وزوجة الخال سحبت الوابور من تحت الدولاب ، وراحت تكبسه ، فخرج خيط رفيع من الجاز ، بلل رأس الوابور ، ثم حكت عود ثقاب فى جانب العلبة ، وألقته فوق الرأس المبلل ، وأعطت البراد للبنت الصغيرة لتملأه ، والخال سحب القوالح من تحت الكنبة ، وكدسها فوق الوابور فازداد وهج النار ، وفكر فى الخالة التى كانت ـ بعد وفاة الجد ـ تتلهف لرؤيته . فتترك حجرتها لتقوم هى باعداد الشاى والدخان ، وتحكي عن أيام ابيها التى لن تعود ، ويلاحقها الخال كمن يردد مقاطع الأذان عقب المؤذن : الله يرحمه .. الله يرحمه . امال رأسه الى الخال ، وهمس فى أذنه : خالتى زعلانة ؟ .

عدلت زوجة الخال الشاش على رأسها ، فشخللت أساورها ، قالت : لا .. أبدا .

سألها : ماجتش تقعد معنا ؟ قالت : بتسمع القرآن .
قال الخال : الواد العربى عفريت .
قال له : لم يكن صاحبك . قال الخال : طول عمرنا أصحاب .
وكانت زوجة الخال تتابع الحوار بأذنها ، وهى منكفئة على الوابور ،
وقال الخال فجأة : بص ياسيدي بالنسبة ليسرى لن أعمل معه مثل الأغراب وأطلب خلو .. بس يديني حقي .
ـ انت مسجل كل حسباتك فى ورق ؟
ـ لا ورق ولا يحزنون ، هو بيكتب أولا بأول .
ـ وما المانع أن تقعدوا سوا ؟.
ـ لا .. بينى وبينه ربنا .. انا لا اعرقه .. كفاية .
وعاد العربى يلهث ومعه جوزة نحاس ، قال: شوف يا استاذ .
قال : ماشى .
قال العربى : شوف الغابة . قال : غير ميتها .
واشار لواحد من أولاد الخال : افتح الشباك يهوى .
قال الخال : قفلناه علشان الميكرفون .
ـ ابتعته لكَ بكره تتفاهموا سوا .
ـ اقفلَ على السيرة دى دلوقت .
لما عاد العربى بالجوزة يقطر الماء من اسفلها ؛ وبقع الماء انتشرت على جلبابه ، قال للخال : الحنفية خربانة . قال الخال : بكره اصلحها .
جلس مكانه بين السرير والدولاب ، جمع طرف جلبابه ، فظهر سرواله على سيقان نحيلة ، اغلق ضلفة الدولاب المفتوحة ، فاختفت الهدوم المبعثرة على الارفف ، خبطت زوجة الخال يده وسحبتها بنعومة وبطء ، وقالت : سيبها ، ما بتتقفلش .
ابتسمت له ، فقال العربى وهو يخبطها على كفها : حاجتكم كلها خربانة .
ونظر الى ياسر منتبها بعد فوات الأوان .
قال الخال : عاوزه مسمارين .
قال العربى : اديها مسمارين .
واراد أن يغمز بعينه ناحية زوجة الخال فانتبه الى وجود ياسر .
وقف ابن الخال على السرير يمط جسمه ، وقال : اروح اشوف المسلسل .
سأله ابوه : خلصت الواجب ؟
ـ خلصت .

قام أخوه وراءه ، وبكت البنت الصغيرة ، فدفعتها أمها غاضبة في داهية .

سأل ياسر : اشتريت تليفزيون يا خال ؟

رد العربي : بيتفرجوا عندي .

قال الخال : عنده كل حاجة .

قال العربي : البركة في الجرى .

سأل ياسر : جرى ؟.

قال العربي : ماخليتش بلد .

ضحك الخال ، وامسكه من فخذه ، ثم أدار وجهه : بقول لك عفريت .

وقالت زوجة الخال : هو قعيدة زى ناس .

ومدت يدها بكوب الشاى الى « ياسر » رفعه الى فمه ، فتحركت بطنه لرائحة الجاز وشعر انه لن يقدر على شرب الدخان معهما ، فقام فجأة ليقول للخال : زى ما اتفقنا .

الطلاق :

لما عاد ياسر مرة أخرى ليقعد على رصيف المقهى المواجه لداره ، سمع من يطلب له الشاى من جانب الشارع ، فمال نحو الجدار ليستطلع صاحب الصوت ، كان حسان بين مجموعة من الاصدقاء بينهم ابن المأذون وصاحب المقهى بالصديرى والسروال الطويل ، يقعى أمامهم ، يحرك المصفاة في الهواء ، ويرص طقم الحجارة الملقى على الارض ، فرفع الكرسى ، واتجه اليهم .

دخن معهم الحجرين المتبقيين من الطقم ، ثم مال على ابن المأذون: عاوزك في موضوع .

ــ انت تؤمر .

ثم طلب من حسان أن يصحبهما في مشوار بسيط .

ــ ماشي نشرب كمان طقم .

واستأذنهما على أن يعود بعد دقيقة .

شد دوبارة الباب ، ونادى على يسرى فخرج اليه من ظلمة الحجرة بالفانلة والسروال ، يدعك عينيه متجها الى مفتاح النور ، فوضحت بلاطات الصالة وجدرانها ، فأقبل عليه ليكلمه : فين القسيمة ؟.

ــ في جيب الجلابية .

وامره ياسر باحضارها حيث أنه عثر على ابن المأذون ، وهو الآن على المقهى ، وعليه اذا كان جادا ان يقطع عرقا ويسيل دما ، لانه اذا تقاعس فلن ينهى هذا الموضوع ابدا ، وقال له يسرى : لا .. انا جاى معاك .

وادخل هيكله النحيل فى الجلباب على عجل ، ثم نثر من ماء القلة على وجهه ، وسار معه فى الشارع وهو يجفف تجاعيد وجهه بالمنديل .

وقفا عند نهاية سور الطاحونة ينظران الى الماشيين ، ويرقبان المقهى من بعيد ، وشد يسرى ذراع رفيقه على غفلة صائحا فيه : بص .. بص .

وأشار الى امرأة تلبس الجلباب الحرير الأسود ، جسدها القوى المدملج يتلقى تيار الهواء الذى اندفع بين طيات الثوب ، فاظهر الفخذين المدورين ، وتكويرة البطن ، والسرة والنهدين البارزين ، والمرأة كانت مشغولة بضبط الطرحة الخفيفة التى كادت ان تطير عن رأسها ، بيد بيضاء تشخلل أساورها الذهبية البراقة فى نور المصابيح ، ثم انتبهت للرجلين الواقفين ينظران اليها بانبهار ، قال يسرى بحسرة : عاوز حاجة زى كدا ، تتحملنى وترمى لى عيلين حلوين .

وقال له ياسر وهو ينظر الى وجهه المهموم : تقل جيبك .

وواصل يسرى كلامه ، ولم يرفع عينه عن ظهر المرأة ، وردفيها الكبيرين اللذين يرفعان الثوب : دى الهنا كله ، تقلب فيها طول الليل على راحتك ، لا تقول بطنى ولا جنبى .

وتركه ياسر ليشير الى ابن المأذون الذى قدم اليه بصحبة حسان وبدأ ياسر الكلام قائلا : الموضوع يا سيدى فيه طلاق .

فهتف ابن المأذون بذعر مفتعل : أعوذ بالله .

وتبرم حسان كأنما يريد أن يعود الى جلسته ، بعد أن كشف الأمر ، وسأل ابن المأذون : طلاق مين ؟ .

فأكمل ياسر حديثه : يسرى يريد تطليق امرأته .. وبعدين أوضح لك .

فانبرى يسرى اليه : ولا توضح ولا يحزنون .. أبدا .. عاوزين نخلص من الخرابة اللى عشت عمري فيها ، ونجيب قمر ينور الدار ، ويبدرها ذرية ، العمر ما عاد يحتمل صرمحة .

وقال ابن المأذون بخضوع : انا تحت أمرك .. آخدكم للحاج .

وسأل « يسرى » بحسم : قبل ما نروح للحاج .. حياخد كام ؟ .

ــ ابدا .. عشرة جنيهات .

واخرج يسرى بعض الجنيهات من جيبه ، وورقة القسيمة ، ودفسها في جيب ابن المأذون : سبعة جنيه ، وحلاوتك عندى ، وآدى الورقة .

وانسحب حسان بعيدا ، وقال : ارجع انا .

فشده ابن المأذون من ذراعه : عاوزين اتنين شهود والبركة فيك انت واخوك .

ساروا فى الشارع حتى قطعوا الطريق العمومى ، ثم انعطفوا يسارا ، فوق الطريق المسفلت المتجه الى النهر ، مارين على المساكن الشعبية ، وبيت المأمور ، والمدرسة الاعدادية ثم انعطفوا مرة أخرى يمينا ، فنزلوا الى الطريق المترب ، وعبروا أمام الحنفية العمومية ، ثم ساروا على جسر الترعة الضيقة ، واستقبلوا مقام « الحاجة آمنة » .

عبروا القنطرة الصغيرة التي تحجز الحمار المنتفخ السابح فى ماء الترعة القليل ، فسدوا أنوفهم بأصابعهم ، وسبقهم ابن المأذون ليدخل الدار الصغيرة المقامة ما بين الجسر والمسجد الملحق بالمقام ، وقال لهم قبل أن يصعد العتبات : انتظروا انده عليه .

واتجه يسرى نحو المقام ، ووقف تحت نافذته الكبيرة التى يبدو من وراء قضبانها النور الابيض الباهر الساقط على أطراف المقصورة ، بدا شاهد الحاجة آمنة بين زخرفتها بحريره الاخضر ، وراسه المعصوب بشال حرير أبيض ، يلمع الترتر من جوانبه ، ويفوح العطر من أركانه ، وقف يسرى فاردا كفيه مرددا الفاتحة بصوت خفيض ، وباستغراق حقيقى ، انساه رفيقيه اللذين وقفا خلفه ، يرقبانه بدهش ، والتفت اليهما باسما بعد أن مرر راحتيه على وجهه : واجب برضك .

ثم أمسك ياسر من جنبه ، وقرصه مداعبا : دى بركة البلد .

وسمعوا نداء ابن المأذون فعادوا اليه ، وسبقهم الى الداخل ليفتح الحجرة بالدور الارضى ، أضاء مصباحها المدلى من السقف ، ففرش ضوءا مريضا ، اظهرهم كأشباح باهتة صفراء وراح ابن المأذون يفتح النوافذ ، فانطلق فى الحجرة هواء حرر ركودها . وازال النفس القديم المستقر بين جدرانها الضيقة ، واستطاعوا أن يلمحوا عمائم الصور المبعثرة على الحائط ، نطل من تحتها وجوه كهلة ، تتسع عيونها بين اللحى السوداء الكثيفة لتحملق فى الناظر اليها بالحاح .

ونفض كل واحد منهم مكانا على الكنبات الموزعات ، ثم ثبتوا نظرهم على المكتب الذى اتضح فجاة بعد ان اضاء ابن المأذون أباجورة

عتيقة ، انخلع رأسها ، وتدلى ساقطا على عمودها الصدىء ، بين كتب كثيرة صفراء ، تراكم عليها الغبار .

وسحب من الدرج منفضة مصنوعة من شرائط القماش ، وحركها بحذر فوق الكتب ، وعلى راس الأباجورة ، وفى المساحة الفارغة جهة الكرسى الموضوع على قاعدته حشية منتفخة . وسمعوا نحنحة الحاج فى الصالة ، فتأهبوا لحضوره ، ودخل عليهم بجرمه القصير ، يلملم أطراف القفطان اللامع ، ضيق عينيه ، وتأملهم واحدا واحدا وهو يتجول بينهم مادا يده البيضاء الخفيفة ، وعاد نحو الباب ليدخل ما بين المكتب والنافذة المطلة على المسجد ، وانجعص الى الوراء ، رافعا العمامة قليلا ليهرش بهدوء فى مقدم راسه ، فضبط فتحتى القفطان ، ثم عقد يديه ، راكزا بكوعه فوق المكتب ، وضيق عينيه فى نظرة أخيرة فاحصة ، قائلا بصوته الهادىء : أهلا وسهلا .

وقدم ابنه الرجال للوالد الوقور ، ذاكرا القابهم ، وردد الحاج وراءه : ونعم .. ونعم وقال للرجال أن آباءهم — جعلهم الله جميعا فى نعيمه المقيم — كانوا من أعز أصدقائى وانه هو الذى زوج أمهاتهم ، ونقل نظره الى ياسر وحسان فجأة ، اظن أنتم ابناء الجديدة ؟

فقالوا فى نفس واحد : أيوه .

وعقب على اجابتهما الحازمة : كان جدكما لأمكما — الله يرحمه — من اجدع الرجال . ثم التفت الى يسرى : ويعتبر جدك أيضا .. أنتم أبناء خالة ، على ما اظن .

واقترب يسرى حتى صار على طرف الكنبة فى مواجهته بالضبط : وابناء عم .. الموضوع يا مولانا انى متزوج من امراة دامت عشرتى معها اكثر من عشر سنوات ، ولا يعيش لى أبناء منها أبدا ، وأولاد الحلال ينصحون بتطليقها ، والزواج بغيرها ، فأنت كما ترى ..

وقاطعه الشيخ : يا ابنى الطلاق ليس بالكلمة السهلة .

وسحب يسرى القسيمة من جيبه ، وفردها أمام الشيخ : أنا فكرت فى الموضوع الف مرة .. لا فائدة .

ومال بوجهه على الورقة يتصفحها ، وهو يحرك أصابعه النحيلة بين شعيرات لحيته الشهباء ، وقال كمن يحادث نفسه : انه أبغض الحلال .

ثم رفع عينيه ليبحث عن ابنه بين الجالسين ، وأشار له براسه : قل لهم يعملوا شاى .

وأمسكه يسرى من ذراعه ، واقعده غصبا : لا داعى .

ونسى الحاج الأمر ، وعاد يتفحص الورقة ، ورفع وجهه مرة اخرى ، واصابعه داخل فتحتي الأنف تعبث فيهما : يا ابنى راجع نفسك .

وقال يسرى وهو يسحب المنديل على جبهته : لا حياة لى معها بعد أن شتمت أهلى وعابت فى أمى .

وهز الحاج رأسه : وصلت لهذا الحد !.

وعلق يسرى بقرف : وأكثر من هذا .

وفتح الحاج الدرج : وفرد ورقا أبيض ودفترا بدفتين طويلتين، وسحب قلما من بين الكتب : الأمر لله .

وساد الحجرة صمت عميق ، فلم يسمع غير نقيق ضفدع الترعة، وأصوات الرجال داخل المسجد ، والحاج انغمس ما بين الدفتر ينقل اليه بيانات القسيمة المعلقة بين اصابعه المرتعشة ، ويسرى يلتفت الى رفقائه مفتعلا ابتسامة على كرمشات وجهه المتوتر ، ويده لم تكف عن مسح العرق السائل بغزارة على خديه وعلى عنقه ، ثم انتبه على صوت الحاج يقول له : ردد ورائى .

فتحفز يسرى واقترب حتى لامس المكتب ، وبدأ يردد وراءه ، بصوت مبحوح حاول بشدة أن يجعله مرحا ، وحسان ترك المشهد ، وانشغل ، بالنظر من النافذة مستطلعا القبة البيضاء المحاطة بأغصان الشجر المرتفعة التى رقدت عليها عصافير ، تحاول احكام نومتها فى الأعشاش الكثيرة المدلاة بين الورق الأسود ولم يعد بنظره حتى طلب منه الحاج بطاقته فسحبها كالمنوم من جيب البنطلون والقاها الى جوار بطاقة ياسر التى برزت منها صورته المبتسمة فى نور الأباجورة الكثيف.

ونقل الحاج بيانات البطاقتين ، ثم تنهد بعمق قائلا : لو كانت تسير الآن على قناة او فى شارع ، او نائمة على سرير ، لسقطت على وجهها دون ان تعلم السبب .. هذا الطلاق تهتز له السموات السبع.

وتقدم « ابن المأذون » من ابيه ، والقى أمامه الفلوس ، جعلها الرجل بين أصابعه يقلب فى اطرافها ، ويحصى عددها ، ثم ركنها بهدوء فوق الدفتر ، وقال ليسرى : سبعة جنيهات !!

وتقدم اليه يسرى يقبل كتفيه ، ويقول مازحا : انت بركتنا .

وانقلبت سحنة الحاج ، وقال بتكشيرة : والله ما ينفع .. انا لا يدخل جيبى من هذه الفلوس مليما ، كلها رسوم ، وتمغات ، ومشاوير تسجيل ، وانتم والحمد لله متعلمون ، وتعرفون كل هذه الأمور .

وعاد يسرى اليه ليقول بجد : البركة فيك .

وادار الحاج ظهره منشغلا بأمر ما : ابدا .. والله لا ينفع .

وتحدث ابنه الى يسرى مبرئا ذمتــه : قلت لك من قبل عشرة جنيهات .

واخرج يسرى من جيبه جنيها ، فرده فوق الجنيهات الأخرى ، وشد يد الحاج من خلف : كدا تمام .. سلام عليكم .

وخرج مسرعا ، وفى أعقابه ياسر واخوه .

ثم لحقهم ابن المأذون على جسر الترعة ، فنظـر اليه يسرى بغضب ، ولكن الولد لم يهتم بنظرته ، ووجه كلامه الى حسان : نكمل سهرتنا .

وقال له يسرى : لو وفقت مع ابيك كنت سهرتك فى دارى أعلى سهرة .

ورد عليه ابن المأذون ضاحكا : احنا فيها .

بعد منتصف الليل ، ودع ياسر اخاه عند الباب ، وقال له : ادخل انت .. سأتمشى قليلا . وسار مع ابن المأذون الذى سحب سجائره ، وعزم عليه بواحدة ، اشعلها ياسر وهو يقول : لم اضحك كما ضحكت هذه الليلة .

وعلق ابن المأذون وهو يطفىء عود الثقاب : حتة يسرى كانت عظيمة .

وقال ياسر : هو لا يدخن الا حشيش الزيت ، ويشتريه من بلده الأصلى .

وغمرهما نور شارع الزراعية القوى ، ونظرا الى امتداده ، فلم يقع نظرهما على دركيين يعلقان سلاحهما على الذراع ، ويسيران جنبا الى جنب بين الدكاكين المغلقة ، ويدور بينهما حوار هامس ، ولمحا الكلاب المتجمعة على طاولات محل الجزارة الذى يئن بداخله موتور ثلاجة كبيرة .

قطعا الشارع باتجاه الجامع الكبير ، وهناك فارق ياسر ابن المأذون .

وقال له : سأتجول جهة المستشفى .. سلام .

وانطلق ابن المأذون يعدو متجمعا على نفسه ، وهو يحنى رأسه الى الأرض فى خطوات سريعة متلاحقة ، بينما انحرف ياسر الى الحارة الضيقة ، فاشتم انفه رائحة خبيز مقبلة من آخر الحارة السد المظلمة ، وخفق قلبه حتى سمع ضرباته العنيفة بين جنبه وفركت يده المبللة « فلتر » السيجارة ، والقاه بعيدا ، وحاول أن يحبس حشرجة الكحة التى هيجت رئتيه ، واقبل بحذر نحو البيت المبنى بحجر قديم والذى سقطت دهاكته من الزوايا ، وتآكلت حجـارته الراشحة ، نظر بغتة وراءه ، فرأى الكلاب تمرق صفا تحت نور الشارع الكبير ، وازداد وجيب قلبه ، واقترب أكثر من عمود النور المطفأ ، ووجد النافذة مواربة ، ولا أحد يبين فى ظلمتها القائمة ، فطرق بظهر السبابة ، ورأى الوجه يشرق بياضه بين الضلفتين .

وهزت له رأسها المحلول الشعر ، وابتلعت الظلمة بياض الوجه ،

فاستوحش المكان وأنصت لمعالجتها ترباس الباب ، فاقترب ، ليدخل بكتفه من الفتحة الضيقة ، وأمسكته من يده ، وسار وراءها ، وهو يرى - على نور لمبة سهارى بآخر الصالة - أبواب الحجرات المغلقة ، واحتواه ظلام الحجرة ، وكان قد ارتاح على صدرها الممتلىء ، وهى التفت عليه بذراعيها ، تهصر عوده ، وهو يستجيب للضغط ، ويقتحم لحمها القوى ، ويفور حتى ليكاد يتلاشى فى مسامها ، وهى تهمس له فى اذنه : تأخرت . وهو ظل يدور براحتيه على الكتف ، وعلى الجنبين ، وفوق اكتنازة الفخذين حتى عثر على كفيها اللذين انزلقا الى أسفل ، وهما فى انفلات حذر ، وقال : كنت فى سهرة .

وقالت له بدلع ، وهى تفك جسدها منه : تسهر مع أصحابك ، وتنسى نفسك . وجرته من يده ، ليقعد على كرسي الصالون العريض ، واستطاع الآن رؤية اشياء الحجرة بالنور الشحيح المخنوق فى فرجات الشيش ، واقترب منها ، ليلم خصرها بين ذراعه ، وليشم فوح عطرها الحبيب الى قلبه .

وسألته : كنت مع يسرى طبعا ؟

- لم يعد لى صاحب غيره .. تصدقى بيسال عن الورق ، وأنا خجلت منه .

- قل له الحقيقة .

- اترك الرجل على وهمه ، فماذا يمكننى أن اقول له ، يكفى ما خسرت من أصحاب .

- لكن بصحيح ، لم تعد تحضر معك أوراقا كالأيام السابقة ؟.

وقال وهو يوارى وجهه بعيدا عنها : خط الاتصال انقطع لأنهم قبضوا على الصديق الذى كان يمدنى به .

وأراد أن يغير الموضوع ، فحدثها عن رحلته مع اخيه وابن المأذون ليخلصوا يسرى من زوجته المتشبثة بجلده كالعلقة .

وقالت بحسرة : حرام عليكم .

وحدثها عن قلق يسرى وتوتر أعصابه ، وهو يردد وراء المأذون بخوف ، وقال لها أن حسان لم يطق هذا المنظر ، وقام يتأمل الشارع من النافذة ، وأنه مال عليه فى طريق العودة ليقول له : ارتكبت عملا حراما أخشى ان يجازينى الله عليه وختم كلامه قائلا : ما كنت أظن - قبل اليوم - أن الطلاق شىء رهيب ، وأن قلوب الرجال ترتج له بقوة .

وقالت وهى تعود لتمسك كفيه ، وتستدير بكامل وجهها اليه : يكفينا الشر .

ثم اطرقت قليلا ، وهى تعبث بأصابعه ، ومد يده ليرفع ذقنها ، ويميل عليها بشفتيه ، وانامت وجهها على كتفه : اقول لك خبرا يزعلك .

وانتفضا على صوت نحنحة متقطعة ترددت بالصالة ، وقامت واقفة ، ووقف وراءها ينظر بترقب ، وانفلتت منه متجهة الى الباب: انتظر .

وفتحت الباب ، وحاذرت الا تزيق مفاصله ، واختفت في الصالة ، ونزل ليمدد جسمه على السجادة مائلا على المنضدة الرخامية ، وسمع خطو قدميها الحافيتين فوق بلاط الصالة .

كم هى رائعة هذه البنت ، ها هى تحاول مواجهة الخطر ، كما واجهته من قبل ، حين رآهما اخوها ــ ذات ليلة ــ فوق سور النهر ، يدفعان سيقانهما فى لهو ، مستمتعين بنسمة الليل ، تحت الظلام الذى رمته اغصان شجرة كثيفة الورق ، مر اخوها بين اصدقائه ملقيا بنظراته على الأرض ، مدعيا أنه لم يرهما ، ولكنه علم ان الأخ انتظر عودتها وجرها من ضفائرها ، ودفعها أرضا ، وراح يركلها بقدميه ، وينام عليها ، ليعض لحمها ، ويخمش بأصابعه الخشنة وجهها حتى سال منه الدم .

كم من سنوات انقضت منذ رآها على سكة الحديد ، تلقى اليه النظرة التى اهتز لها فؤاده ، وقف مبهوتا . ومرت هى مسرعة ضمن حلقة من رفيقات المدرسة ، وكانت هى فى الزى ، أفرعهن طولا ، واصحهن قواما ، وصار يرقبها كلما عبرت ، واعتاد طريق المدرسة ، وبدأ يصحب زملاءه فى رحلة صباحية ، ليخط بقلم الفحم صورة الفتى الذى يقبل بنهم فتاة ، سقط شعرها المهوش بين الزهر واوراق الشجر ، حتى استطاع يوما أن يدس لها الورقة فى كفها ، لم يكتب شيئا ، رسم القلب كتفاحة ريانة وبه ثقب الباب ، وانام المفتاح كعصفورة مفردة ، فى جانب من الورقة ، وفهمت الرسم ، وانفتح له القلب ، واستطاعا أن يمهدا الطرق بينهما ، بصديق منه ، وصديقة منها ، وعرفا الموعد ، واللقاء المختلس ، وصار يكلمها عن القصص التى يقرأها ، وصارت تحدثه عن كتب أبيها فتمده بها ، وهو يقرأ . ويحكى لها عما يقرأ ، ويشدو لها بالقصيدة التى بات الليل يصوغ أبياتها .

وانقضت أيام اللعب لتأتى أيام الجد ، وعرف القلب الهم ، فراح يحادثها بكلام جديد بعد أن عرف العاصمة التى أطلعته على بعض أسرارها ، وكان يعود اليها بأوراقه السرية يفك لها طلاسمها ، وهى تتنهد بعمق : كلام جميل بصحيح ، لكنه يدفعنى للخوف عليك وانفتح الباب مرة أخرى ، ودخلت تجمع ثوبها الشفاف ، وتعيد خصلات شعرها الى الوراء ، وجلست الى جواره فاردة ذراعها على فخذه ، وقالت : بابا كان فى الحمام ، وانتظرت حتى جمعت أنفاسها المضطربة، ونظرت اليه بوجه ضاحك ، يضىء بهالته الفراغ القليل بينهما،وأدرك أنها تريد تذكيرها بالأمر الذى قالت انه مزعج ، وسألها وهو يعود الى احتضانها ، فقالت معابثة : جانى عريس انما ايه .. نكتة .

ـ مبروك .

وخبطته على صدره ، وهي تفتح ازرار القميص لتسعى اصابعها فى براح الصدر : والنبى دمك تقيل ، انا اتكلم جد .

وقالت ان اباها أجبرها على الدخول اليه ، فرات المسكين يقعد غارقا فى عرقه ، وينظر اليها خلسة بارتباك وقلق ، وأن أمها نصحتها بأن تخلع ياسر من دماغها ، فهو لا يصلح لها ، لأنه لا يملك أن يسعدها، كما يملك هذا الشاب الذى عاد من الخارج ، فهدم بيت أبيه ، وأقام عمارة مرتفعة ، وملأ احدى شققها بقطع الأثاث الحديثة ، وفرشها بالموكت ، ولصق الاوراق الملونة على حوائطها .. و .. و .. و ..

وتحدث ياسر مضطربا : انا لا أقدر ان اتقدم اليك الآن .

وقال : كما تعلمين أنا لا املك مسكنا خاصا ، ولم ارتبط بوظيفة، ومصيرى لا يزال غامضا ، ولا أعرف شيئا سوى أنى أحبكِ .

وارتمت عليه لتجمعه فى حضنها : وأنا باموت فيك .

والتقت يداها فوق عرى لحمه ، تحت القميص ، وتشابكت اصابعها وراء الظهر ، وضمته بشدة حتى ضل أنفه فى غابة شعرها المظلمة ، ينشق عبيرها ، فانتعشت روحه وانعدل ليأخذ وجهها بين راحتيه ، ومال بطيئا ، حتى التقت الشفاه الظمأى وتهالكت فىتقبيل حار ، لم يفيقا منه حتى سمعا صوت الجامع يهيىء الميكرفون لصلاة الفجر ، واقتحم الصوت الحجرة من الفرجة المضيئة ، فقام ياسر ليجمع أطراف القميص المبعثرة ، وينسحب خارجا ، قبل أن يقوم أبوها للصلاة .

- ٦ -

أخيرا اتضحت ضربات السقاطة القوية ، وكانت جزءا من الرؤيا الآخذة بخناق يسرى ، انها هنا ، فى هذه الدار ، وعلى بابها الكبير ، وبرزت من ظلام العيون المغلقة ، الحوائط ، وعروق السقف ، والواحه الممدودة بالطول ، والدولاب الصاج ، والشماعة المدقوقة وراء الباب ، والحصير ، والكنبة الملقى عليها خلقات كثيرة ، ومرآة مشـــطوفة الجوانب ، ومشط ، وفرشاة ، وطقم الأسنان الغارق فى ماء الكوب، وتوارت سعدية وكأنما ابتلعها الماء الذى كانت تسبح فيه عارية ، وسط لحم أجنة كثيرة مفقودة العين ، تتخبط فى تيار الماء بأذرع صغيرة واهنة ، كانت تنحل من جسدها ، وتعوم من حولها مع باقى الأطراف المبتورة ، وسعدية بين بقع الدم الحمراء ، تحاول ألا تفلت يدها من قدم يسرى المتشبث بالبر ، والأجنة تتقافز حولها فى البقع الحمراء ، متوهجة فى نور لا يعلم مصدره ، تخبط وجهه ، وتعاون المرأة التى تجر بعناد « ما هذا الذى أرى ؟ » وهرب من ظلام الحجرة، وفاجأه جسد الشمس المفرود بطول الصالة « من ؟ من ؟ أيوه .. » ولم يهتم أنه يخرج بملابس داخلية ، وبدون طقم الاسنان ، وانفتح زجاج الشراعة عن وجه اسمر لفتى ينز عرقه تحت العينين القلقتين فى مواجهة خيوط الشمس القوية .

ـ الحاج فرج يقول لك تأخرت .

ـ رح يلعن أبوك لأب الحاج خرا .. مش شغال النهارده .

وانصفقت الضلفة ، ولم يبق من الوجه غير شبح فى الزجاج ، لا يريم ، وعاود الطرق على السقاطة .

ـ امشى يا ابن الكلب ، واختفى الشبح .

« ما هذا الذى أرى ؟ ما معناه ؟ »

الدار هامدة ، يطن ذبابها الكثير المنتشر على بقع الشمس ، يحوم بالحاج كلما داس بقعة ، ثم يعود مرة أخرى ليفترش الضوء .

« هل يجزع القلب من وحشة الدار ؟ لم يحدث هذا من قبل ، لماذا لا اطيق الدخول فى ظلمة الحجرة ؟ لماذا لا اطيق صوت السكون

فى الدار ؟ وكنت اعود من ضجيج المدن متلهفا لهدوئها ! » .
وغسل وجهه على عجل ، ولاك لقمة من فطيرة متبقية من امس ، بعد أن القم فمه الطقم ودخل فى جلبابه ، متجها الى الخارج .
الحاج على يمد بوزه بين صفحات الجريدة ، متشاغلا بها وانا لن اصبح عليه أبدا وشحته وأبو عليوة على باب الفراكة بين نسوة منتظرات أن تدور الطاحونة فى أوانها : صباح الخير يا أولاد .
ــ صباح الفل يا اسطى .
ــ ناموسيتك كحلى .
ونطر يده لحسين الذى اطل من شباك الطاحونة ، وقف على آخر سور الحوش يتلفت فى الشارع ، مرة جهة اليمين ، ومرة جهة اليسار ، وقدمه تثاقلت على الارض لا تريد أن تتلحلح . الى أين يذهب ؟ لا طاقة لدخول الدار ، لقد طالت زيارة زبيدة للحاجة، فهل يذهب ليعود بها ، هل اخطأ فى تطليق سعدية ؟.
كان سعيدا البارحة ، كمن أزاح القمة عن عينيه « لماذا كل هذه المرارة فى الحلق كان الطريق معها مسدودة . وانا كبرت .. كبرت ، من العدل ان يكون لى ولد يبهج شيخوختى المقبلة ، وسعدية جدباء .. جدباء . »
ــ يا اسطى .. يا اسطى يسرى .
« سيد الخياط ، ماذا يريد هو الآخر ؟ لا وقت لثرثرته التى لا تنتهى ، سيملأ دماغي بكلامه الفارغ . »
ــ واقف ليه كدا ؟ تعالى اشرب مهى كرسى الدخان .
« لا بأس .. كرسى الدخان جاء فى أوانه . »
وقعد على « الكرويتة » المفككة الأوصال ، وسيد قام الى المنقد الصغير المركون تحت « آلبنك » وقطع من ورق الجريدة على الفحم المدفون فى الرماد ، واشعل النار ليحيى خموده .
ــ ايه مالك ؟
ــ ولا حاجة .
وظل مشغولا بمتابعة النسوة العائدات من السوق واللائى يرجعن بظهورهن الى الوراء مع نزولهن انحدارة الشارع ، وسحب من الورقة الموضوعة تحت راس الماكينة لقمة بسكويت ، لم يقدر على بلعهـا الا بجرعة ماء من القلة المعلقة فى مسمار الباب .
ــ ما لكش مزاج فى اصطباحة .
وترك سيد يعد الجوزة .

ـ عن اذنك .
وغادر الدكان الى زحمة شارع الزراعية . النسوة ، بملابسهن السوداء غاديات رائحات ، يرفعن السلال ، وينحنين فوق اكوام الطماطم والباذنجان والبطاطس وبائعة الكرشة مدت ذراعها على آخره تقطع مصرانا طويلا ، كومته على كفة الميزان وراحت تكور ورقة على هيئة قرطاس « ربنا يقرفكم .. من هذا ؟ معقول !! ..
بعد كل هذه السنين ، هو .. هو بقفاه السمين ، وبشرته الحمراء التى أعرفها ، ونظارته السميكة ، وما آلذى رماه الى هذا البلد بعد السنين الطويلة ؟ » .
ـ عدلى .. عدلى .
« ها هو يلتفت الى .. هو .. هذا الأعمش آلذي تنغلق عيناه فى الشمس ، فلا يقدر على النظر ، هو من كنا نسميه « عدو الشمس » وسحبه الى ظل السوق .
ـ من .. يسرى ؟!
والحضان ، وضربات على الأكتاف ، وقبلات فرقعت على رءوس الشاريين والبائعين .
ـ ايه الصدف السعيدة دي .. تعال .. تعال .
ـ تعال انت اشرب الشاى عندى .
ـ بس تعال ..
وازاح عدلى الورقة عن رأس زجاجة مسدودة بفلين احمر .
ـ ايه ده .. خمر ؟
ـ تعال بس .. أخى اشتراها من المطار واعطاها لى لما عرف انى جئت خصيصا لزيارته .
وسارا الي نهاية الشارع بين زحام السوق ، يجهدان فى تفادى اجساد النسوة ويكتمان انفيهما ليمنعا روائح العرق النتنة . وينزلقان بعيدا ، لتمر من بينهما عربة « كارو » يجرها حمار هزيل ، لم يفق من نومته بعد ، ويشيران الى رجال العزب النازلين الى البلد بطواقى مبرومة ، يرفعون سلالا قديمة على الأذرع الضامرة .
ـ فاكر أيام المولد لما كنا ننتش منهم الطواقى .
ـ جمعت مرة فى دارى أكثر من عشر طواقى .
وعبرا قنطرة النهر القديمة ، وسارا بموازاة النادى الذى تملأ الشمس ساحته الفارغة ، وهبطا ارتفاع الجسر ، أمام كشك المرور ، ليسيرا بين صفى العبل المرتفع ، واختارا مكانا معزولا بين ماء النهر

الرائقة ، وسور المصلى الواطىء ، تنسدل عليهما صفصافة ، تلامس اطرافها سطح الماء ، وتصنع دوائر رقيقة ، عند الحافة ، ورفع عدلى الورق عن الزجاجة ، وشد الفلينة بأسنانه ثم صب منها فى الغطاء .

ــ اشرب .

وتشممت أنف يسرى رائحة الخمر القوية « أين أيامك يا مصر ؟ هل تعود مرة اخرى ؟ » .

ــ كنت يا عدلى اعود بالتاكسى آخر الليل ، وامر على بار الحرية اشرب الكأس والكأسين ، واشترى زجاجة ، تكفى ليلتى ، وليلتين بعدها .. أنا يا عدلى منذ أن عدت الى البلد لم تمس شفتاى طعم الخمر أبدا .. هنا أنا اتوه فى الحشيش لأنه الكيف الوحيد المتاح .

ــ الخمر نعمة أم نقمة ؟.

ــ خلقها الله لحكمة عنده .

وانتعش جوف يسرى للجرعة ، وأحس بأن امعاءه انتبهت لها ، وبدات تتمطى داخله ، لتقوم من ركود طال أمده .

ــ أنا أحس يا عدلى بأن معدتى كان مغشيا عليها ، وهذه الجرعة كأنها ماء الورد الذى نثر عليها فاستفاقت .

ــ اشرب .

ــ فاكر يا « عدلى » أيام مدرسة « الاتحاد الوطنى » ؟

ــ وكيف انسى .. الناظر عبد السيد !

هذا الرجل كان يبث الرعب فى قلوبنا الصغيرة .. اذكر أنى عدت يوما من المدرسة ، تغديت غداء ثقيلا ، وقضيت قيلولة طويلة ، ولما استيقظت رأيت الشمس اختفت وراء الدور ، ولم يتبق من أثرها غير ضوء خفيف ، وظل باهت ، وهواء رطب ، فظننت أنه الصباح ، وانى تأخرت عن موعدى ، وقلت فى نفسى أن حضرة الناظر لن ينجينى من عقاب الفلقة ، فأسرعت الى القميص و « والشورت » ورفعت الشنطة على كتفى وجريت ، وأمى تصيح ورائى ، ياولد ، يا يسرى ولم أجبها ، كنت مرعوبا ووصلت الى المدرسة ، فوجدت بوابتها مغلقة ، ونوافذ الفصول فى الدور الثانى مسدودة ، ولا حس ولا نأمة هناك ، وأدركت أن الوقت آخر النهار ، وعدت مكسوفا أجرجر ساقى .

ــ وانا اذكر أن أمى أرسلتنى يوما بقفة الحب الى طاحونتكم ،

وانا أنحرف من الشارع الضيق وراء الطاحونة ، وجدتني - فجأة - في مواجهة حضرة الناظر ، وليس في الشارع الا أنا وهو ، واحترت كيف أقدم له التحية ، ويداي متشعلقتين في أذن القفة ، رفعت اليمين فاهتزت القفة ، رفعت الشمال فارتجت ، رفعت الاثنيين في لهوجة لاقدم تحية حازمة تليق بحضرة الناظر ، فتشخلعت القفة ، وسقطت على الأرض ، وتناثر الحب ، فبكيت ، وحضرة الناظر اقترب مني ، يربت على كتفي قائلا : ياجحش .

- كانت أيام رائعة يا عدلي .

- اشرب .

- كانت الآمال وردية ، لا تكف عن الاحلام ، لم اكن اتوقع أبدا ان اكون على حالي اليوم ، مجرد سائق ، يرهق أعصابه على عربات الناس . ولا يقدر أن يمتلك عربة خاصة به .

- كل حي يحصل نصيبه .. اشرب .

- ألا تعلم يا عدلي انى طلقت امراتى بالأمس .

- أعوذ بالله .

- عندك كم عيل ياعدلي ؟

- اربعة .

- أما انا فلا شيء ، كل أولادي يموتون بمجرد خروجهم من الرحم .

- ربنا يعوضك خيرا ، استأذنك لأن الجماعة عندنا مجهزين غدوة ، ولمين العيلة بمناسبة عودة اخي ، كما تعلم نحن قليلا ما نلتقي هذه الأيام .

اليوم خمر :

وعلى سور الكوبرى : جعل يسرى رأسه بين يديه ، يتأمل ثعبان النهر الفضي يتلوى وسط وأبورات الطوب ، مغادرا البلد بانحناءة قاسية ، ليختفي في البعيد وليترك النخل والشجر الملتف كتلة عالية تحجز الافق الذى ينفث دخانه الحامي .

- هكذا يا عدلي تحي الشوق ثم تتركني .. اشتاق لساني الخمر ، ولا خمر في البلد .

وتردد اكثر من مرة في الهبوط الى جسر النهر من الضفة الأخرى .

ـ يلعن أبو الدنيا ..

وتفادى التراب الذى هاج حول قدميه ، وسار على رافد الترعة الصغيرة التى تخرج من باطن النهر ، وعبر الأرض الواسعة المحجوزة للمولد ، ورأى قبة الحاجة « آمنة » يضىء بياضها اخضرار الشجر النائم حولها ملقيا ظلا دسما يرد الروح ، واستقبل « الخص » المقام تحت التوتة الكبيرة التى تفرد أغصانها الكثيرة فى دائرة واسعة فوق الساقية . ورأى هناك الحوزية ، ينتشرون على القش ، يراعون الأحصنة القلقة التى تنفض الذباب عن جلدها . وهى واقفة بين العريش ، تعلك التبن من كيس معلق فى بوزها .

ـ سلام عليكم .

ـ سلام ورحمة الله وبركاته .

وتوقفت الأفواه من مضغ لحم السمك المشوى ، المفرود فى المناديل المحلاوى ، وحملقت العيون الراشحة باندهاش ، وثبتت الأيادى بأكواز البلاستيك ، فلا هى ترفع الى الأشداق ، ولا هى تنزل الى الأرض ، واختار كومة قش بالقرب من باب « الخص » ، وصفق احدهم : هات هنا واحد « دبل » للأسطى .

وخرج « الديدامونى » بظهره المحنى ، وبذراعيه المشمرتين ، عن فانلة قطنية مخروقة فى أكثر من مكان ، نقل قدميه ببطء جهة يسرى وهو يحاذر ألا تندلق البوظة الخامرة من حواف الكوز ، تحرك نعله المزروع ، ليزيل الحصى ، ونظف بقعة دائرية صغيرة أمام يسرى ثبت عليها الكوز ، وقام يتأوه من عظام ظهره التى طقطقت بصوت مرتفع ، وعاد ممسكا جنبه الى « الخص » ثم التفت : اجيب لك سمك ؟

ـ لا .. عاوز حاجة خضرا .

ورفع الكوز الى شفتيه ، شفط من الرغاوى السابحة على الحافة .

« الفرق كبير بين لدعة البوظة ولدعة الويسكى ، الطبقية فى الخمر ايضا ؟ صدقت يا ابن الخالة ، كله طبقات ، كان الويسكى فى قديم الزمان وقفا على الناس « الهاى » الآن .. الناس من أمثالنا عرفوا طريقه ، منذ عرفوا طريق المطارات والأسواق الحرة ، وعادت الخمور الجيدة مرة ثانية الى البلد ، بعد خمارة الخواجة « طناش » لم تر البلد الخمر فى زجاجات ، وراجت بوظة « الديدامونى » .

* * * * *

* * * * *

أهؤلاء من يقصدهم حين يتحدث عن البؤساء والكادحين ؟

أين هم من كلامه الصعب ؟ كيف تقدر عقولهم على فك ألغازه ؟

ياه .. ولا مليون سنة ، أنا نفسي أفهمه بالعافية .

ورقك يا ياسر فى بر ، واصحاب المصلحة الحقيقية ـ كما تقول ـ فى البر الآخر ثم هل أنا خير من هؤلاء ؟ لماذا اضطربوا لما راونى ، أنا مثلهم « عربجى » لكن « عربجى » تكنولوجيا .. هىء .. هىء .. هىء .. حصانى حديد وحصانهم من لحم ودم ، أنا مثلهم اعمل بلا اجر عند الناس .

« وها انا ذا أقعد وحيدا ، يخشون الاقتراب منى ، على ظن أنى أفضلهم ، وفيما أفضلهم الله وحده يعلم ، الأنى ابن فلان الفلانى ؟ أم شكلى يوحى بأنى لا انتمى اليهم ، لماذالا يأتى واحد منهم ويجالسنى؟ وأنا اذا قمت وانضممت الى حلقتهم ، سيقول الماشى فى الطريق ، رأينا الأسطى يسرى من عائلة كذا ، يفرش الأرض مع العربجية كلامك بعيد جدا يا ابن خالتى .. بعيد .. ولن يتحقق أبدا » .

ـ وحدووووه .

ـ هات يا « ديدامونى » كوز آخر .

« تقصد يا ياسر أن تجعل من هؤلاء ناسا حقيقيين ؟ هذا يتطلب منهم أن يرتدوا الملابس النظيفة ، ويحلقوا لحاهم ، ويرفعـــوا عن رءوسهم المناديل المتسخة ، ليمشطوا شعورهم ، ويدهنوها بالشامبو ، ثم يعملوا على قدر طاقتهم ، ويأخذوا بقدر حاجاتهم تعال ياعم .. لاكلمك عن هذه الدنيا الجميلة ، عن الجنة .. »

وكيف ستكون الدنيا بدون عربجية ؟ ربنا خلق الحمـــار ليجر العربة ، وخلقنى لأسوقه بعقلى .. قل كلاما آخر .

ولكن ياعم هذا فى الامكان ، المساواة ، اذا تجمعت قوتك على قوة الآخر ، وجمعكم الهدف الواحد ، تسقطون الاستغلال ، وتقيمون هذه الدنيا الجديدة ، دنيا العدل . نسقط من ؟ قبل أن يفكر احدنا فى هذا سيأكل ضربا على وجهه ، لا يأكله حرامى بلغ فى جامع .. قل كلاما آخر .

هل رأيت يا ياسر أن احلامك بعيدة ..

هذا الرجل خير منى ، على الاقل هو يمتلك هذه العربة ، وهذا

الحصان ، وله زوجة وعيال يؤنسون وحدته ، اما انا ، لا شيء . لا شيء البتة .

وهذا ما يجعلني أسلم لك رأسي ، لتعبئها كلامك ، انك تغازل حرماني ، كلامك مخدر آخر ، يؤخذ مع جرعة الحشيش ، أسبح معك ، ومع ورقاتك طوال الليل ما ان يأتي الصبح واخرج لسيارتي، وأدخل بين الناس ، أحمل أشياءهم ، وأوصل بعضهم ، هذا في زيارة ، وهذا في طريقه للعمل ، وهذا ذاهب لينهي صفقة وآخر في طريقه الى بور سعيد ليهرب البضائع ، ويتجول بها في الشوارع ليغير قشرة الناس القذرة ، وتسيح زبدة كلامك في صهد الزحام ، وأشعر بك بعيداً ، وكنت بالليل بين ضلوعي » .

ـ هات يا « ديداموني » كوز آخر .

« وهل يستطيع كلامك تزويجي من بنت الحلال ، الجميلة ، التي تصون شرفها ، وتنجب لي ولداً ، وولداً ، وولداً ؟ هل يستطيع كلامك أن يملكني سيارة ، ويمنعني من ذلة العمل مع رجال كان أبي يستخدمهم في أرضه ؟ هل يستطيع كلامك أن يبتني لي بيتاً بالحجر الأحمر ، يصمد للآيام بدلا من هذا المتداعي ؟ »

ـ هات يا « ديداموني » .. هات .

الى الأمام سر :

لما سقط ظل الجدار الوراني لحوش العدة ، واقبلت نسمة العصاري تلهو فوق ترابه الناعم فتحت زبيدة أم محمد باب الحجرة العارية من البلاط ، ونثرت الماء على التراب ، ووضعت صينية القلل فوق صندوق الحب لتبردها النسمة اللاهية ، وافترشت الحصير بالقرب من عشة الفرن ، وضعت كوبين من الشاي ، غمست فيهما أوراق النعناع الريانة ، وامتد ياسر بطوله على الحصير الى جوارها ، يرشف الشاي ، ويحادثها عن سفره في الصباح الباكر ، ليلحق بعمله ، وسألته عن لقائه بسامية .

وقالت له : من الخسارة ان تضيع منك هذه البنت ، ووصفت له لهفتها حين مرت عليها لتخبرها بالموعد الليلي ، وقال لها انه لا يملك القرار في ذلك الآن ، ثم انه لا يستطيع حسم هذا الموضوع قبل

الإطمئنان على مصير اخته ، وانه يستطيع ان يقرر ارتباطه بالبنت بعد أن يرى زبيدة في بيت العدل .

وقالت له زبيدة : ان عليه أن يهتم بنفسه ، ويدعها لمصيرها الغامض .

وقامت لتفتح الباب الذى ترددت طرقاته البعيدة من الباب الكبير .

ونادت عليه من الداخل قائلة أن شخصا لا تعرفه يسأل عنه .

وجرع ياسر ثمالة الشاى ، وعبر الصالة الكبيرة ، ثم الصالة الصغيرة ، ورأى المعلم زهير ـ الذى يسهر معه على مقهى حمام ـ فى ضوء الشارع بعمامته المزهرة ، وقفطانه اللامع تحت الجلباب الأبيض ، شد ياسر على يده : تفضل . والرجل خلع يده ، ومال عليه بوجهه الجهم : الحق ياأستاذ قريبك لم عيال البلد وعامل مظاهرة من أول شارع البحر لغاية السويقة ، وانا مسكته بالعافية ، وحبسته فى دكانى ، وقلت انك الوحيد الذى يقدر عليه .

وارتدى ياسر هدومه بسرعة ، وخرج مع الرجل متجها الى السوق .

وهناك التقى بصديق له يقف تحت مظلة السوق المقامة على الأعمدة الأسمنتية رحب بياسر وأخذه من يده ، وهمس فى أذنه : الحق لة .. دا بيقول كلامك كله ، وانا حاولت منعه ، وضربنى بكوعه فى جنبى ، بعدين قلت اروح لك .. ولم يستمع ياسر اليه ، اتخذ طريقه وسط أوراق الخضار المختلطة بطين الأرض وبين زحام العيال الواقفين على طوار الدكاكين المغلقة ، يصفقون ويهللون جهة باب الدكان الموارب الذى يحرسه رجلان من حمالى السوق »

وانفتح الباب على يسرى القابع فى ظلمة الدكان ، بين روائح خضاره المعباة فى أقفاص كثيرة تنتشر فى أركانه .

وهتف يسرى بعلو الصوت : ياسر .. ياسر .

وبدأ يتدفق فى الكلام : كنت نائما فى دارك ، وأنا عملت الثورة وحدى .

ـ تعال .. تعال .

ـ قم يا ابن الحلال روح مع ابن خالتك .

ـ تحركت من هناك الى المركز ، وحدفته بالطوب ، لم يخرج كلب

منهم ، الكل اختفى وراء حيطانه ، قلت لهم اخرجوا لى ، فخافوا ، لأنى كنت فى حماية الجماهير •
ـ تعال بس نروح •
ـ لن اعود الى الدار فى يوم مجيد كهـــذا •• هل تدرى كيف بدأ الأمر ؟
بدأت الشرارة فى بوظة « الديدامونى » حاولت أن انقـــل ؛نوعى العربجية الذين كانوا هناك ، ولكنهم الانذال أبدوا الخوف والحذر ، ايدونى فى البداية ، ثم تراجعوا قائلين ، كلامك مضبوط ، ولكن من يضمن لنا الحماية ؟ فانطلقت وحدى الى معلف المعلم بسيونى هناك وحدث العمال يكدحون فى رفع السـباخ على الحمير ، قلت له ان هذا يستغلكم ، وينهب رزق عيالكم ليبنى العمارات العالية ، فثوروا ، نظروا اليه ، وقالوا لى ياعم نحن نخافه ، وحاول الراجل الاقتراب منى ، ليستقبلنى ومد لى يده ليسلم على متخاذلا : فقال ياابن النـــاس الطيبين ، وقلت له فى وجهه انت بورجوازى عفن . وكانت الجماهير قد التمت ، وخرجت لى من دورها ، واختفى الرجل ، قلت يا يسرى خذ حذرك ها هو يختفى بالداخل ليتصل بشرطة المركز فيقبضوا عليك ، وقلت على أن افسد خطته ، هاهى الجماهير حولى ، فلننطلق الى هناك لنفاجئهم ، وحصل رفعونى على الأكتاف ، وسرت بهم ألقى الشـعارات والهتافات ، ومرة « يسقط » ومرة « يعيش » وهم ورائى يرددون بحماس « يسقط ، ويعيش » حتى التففنـــا حول أســـوار المركز ، وقلت لهم احدفوا الطوب داخل السور ، فحدفنا ، حتى سـقط المركز بمن فيه ، وقلت لهم علينا أن نحتفل الآن بثورتنا ، فالى البلد ، ليعرف كل الناس بأن زمن العدل قد جاء ، فتحرروا ، لن تخسروا غير قيـودكم ، فاخذنا طريق الزراعية بطوله ، وهاهم الآن بين يديك ، فافعل بهم كما تريد •• خذهم الآن الى الحكم •
ـ بس تعال •• بلاش فضايح •
ـ فضايح !! لا •• لا تأكل حقى •• أنا متفق معك من قبـــل • لا تأكل حقى أنا لا أريد شيئا ، اريد عربة ، اشغلها أجرة ، ألف بها بين البلاد ، وزوجة جميلة بيضاء تخلف لى الذرية الطيبة •
ـ تعال بس •• ونتفاهم فى البيت •
ـ ماشى •• ولكن لا تأكل حقى •
وانخلعا من العيال المتهافتين عليهما ، وزجرهم المعلم زهير •
ـ لا حول ولا قوة الا بالله •• ربنا يهدى •

وتأبط ذراعه متجهين الى الدار من الشوارع الجانبية البعيدة عن عيون الناس ، وسار يسرى بخطوات عسكرية حازمة ، وياسر يحاول ألا يفلت يده ذراعه الذى يتحرك الى أعلى والى أسفل بانتظام .

واختار شارعا ضيقا يتصل بشارع الطاحونة ، فشد يسرى ذراعه بشدة صارخا : لا امر على الحاج « قرد » أبدأ .. هذا بورجوازى آخر يأكل أموال اليتامى. خذني الى المقهى .

ـ حاضر .. بس اهدأ .. وبلاش زعيق .

وأخيرا وصـــلا الى الدار خفية ، وادخله ياسر الحجرة الاخيرة ، وعاونه فى تغيير ملابسه ، ومدده على السرير .

ـ أنا لا أريد النوم .. لازم اشارك فى المهرجانات ، لن تسـهروا وحدكم ، سأكون الى جانبك .

ـ نام شوية .. سأعمل لك قهوة مضبوطة ، بعدين نروح معا .

ـ لن تنسى نصيبى .. آ .. أنا قريبك ، لا أريد شيئا لنفسى ، أنا اريد للناس .. كل الناس ، فقط اريد سيارة ، اعمل بها بين المدن ، وسأنقل الفقراء أسبوعا كاملا ، هدية للثورة .

ـ ماشى .. ماشى .

وخرج ياسر الى المطبخ ، وضع الماء فى الكنكة الصغيرة ، وضـع عليه قليلا من السكر وملعقة من البن ، وقلب الماء فوق نار هادئة ، ولما اقترب الوش من الحافة ، صبه فى كوب صغير ، وحين عاد الى الحجرة ، وجد يسرى تحت الغطاء ، يردد غطيطا عاليا ، والنفخـة التى تخرج من جانب فمه ، تملأ فراغ الحجرة المظلمة ، فركن الكوب على « الكوميدينو » وجلس فوق الكنبة الى جواره يتأمل وجهه المرهق الذى يسيل منه عرق غزير .

القسم الثالث

زوجي العزيز / كمال

عدت من فترة قليلة الى البيت ، بعد أن قضيت عدة أيام مع الحاجة انيسة ابنة عمي ، وقد استقبلتني استقبالا حسنا ، وسألت عليك كثيرا ، وتقول انك لم تدخل بيتها من قبل سفرنا الى ليبيا ، ووعدتها بأن اكرر الزيارة بصحبتك حين تعود في اجازة آخر العام .

وكان سبب قضائي هذه الأيام معها حاجتي الى التردد على عيادة الدكتور ، ولكن صحتي تدهورت بشدة . والمسكينة لا تقوى على خدمتي ، ففضلت العودة الى البلد لاكون بين أهلي حيث سأجد أكثر من واحدة لتقوم على خدمتي ، فلا تشغل بالك ، وان كان لي رجاء ، أن ترفع المبلغ الذى ترسله قليلا ، فقد كتب الدكتور أدوية جديدة وطالبني بنظام في الاكل ، ألغى منه كل النشويات وخلافه ، واكد على تناول اللحم بشكل مستمر ، وأنا لا اريد ارهاق أخي ، وعلى العموم « كتر ألف خيره » فهو الآن يراعيني بأقصى ما يستطيع ، ويضطر مرات كثيرة لترك عمله ، ليكون الى جانبي ولا يتركني وحيدة أبدا .

ارجو أن تمر الايام القليلة القادمة بأقصى سرعة ممكنة ، حيث تأتي الى ، ونقضي بعض الايام هنا ، فتخفف حمل أعصابك المرهقة بجو الريف الجميل ، ثم نعود الى شقتنا التى اشتقت اليها كثيرا ، اهتم بنفسك ، وراع صحتك ، ولا تشغل بالك بمرضي ، على أن ترسل المبلغ المذكور في أقرب فرصة .

زوجتك المخلصة

زبيدة

الجزيرة البيضاء — يونيه

سيد « تعال كلم » :

سمع الطرقات بينما هو جالس على الكنبة أمام أخته يمسك كوب الماء بانتظار أن تفض يدها المرتعشة الورقة عن علب الدواء ، ولما كانت الطرقة القوية داخله عليهما بعنف من الضلفة المفتوحة ، هيىء لهما أن الريح الصرصر انطلقت من مكامنها وزوبعت فجأة بين جدران الحجرة المرتفعة الجدران ، وتناثرت علب الدواء فوق اللحاف المطوى على سيقان زبيدة ، فتفلت فى عبها مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم ، وقال يسرى : حمار من هذا المستعفى على السقاطة .

وخرج من ظلام الحجرة منخلعا من سكونها ومن رائحة الادوية المنتشرة ، الى صخب النور فى الممشى لتحوم حوله هذه التكتكات الازلية المقبلة من وراء الباب الكبير ، وتتلمس عيناه شبح الواقف وراء الشراعة ، انه لشخص لا يعرفه ، لهذه الشراعة لغة معه ، يفك طلاسمها منذ كان يحبو على أرض الصالة يعرف دون حاجة للعين السحرية ملامح الشخص الواقف ، فيفتح له ان كان فى حاجة اليه ، أو يعود على أمشاط قدميه عائدا الى دفء الغطاء كاتما أنفاسه فلا يعلن وجوده ، أو يرفع سبابته الى أنفه ب « هوووس » خافتة ، زاجرا سعدية أيام كانت تقبل من الحوش نصف عارية ومبتلة ، ثم يشير الى لحمها المندلق من مزق الثوب ، ويشدها من ذراعها ليرجعها الى مكانها : اخزى على دمك .

ادار المسمار النائم على ضلفة الشراعة في نصف الدائرة المحفور كمجرى له فبان وجه سيد امام خفير المأمور ، والمسئول عن جر الخلق الى مكتب سيادته اذا كان الواحد منهم طرفا فى قضية أو مرفوعا عليه البلاغ من خصم .

وقف سيد بكتفيه العريضتين يتلمظ بفمه المختفى تحت كثافة الشارب المبروم من طرفيه ، يرفع يده الى فتحة الجلباب البلدى الذى أبرز اكتناز الصدر والكرش الكبير ، فهو لا يرتدى ــ منذ عين فى هذا المنصب ــ البدلة الميرى الا حين يلجأ الى الطابور الاسبوعى حيث ينضم لباقى الخفراء ، يتمم عليهم الشاويش ، ويدورون فى خطوات منتظمة بين أسوار السوق ، ويقضون نصف النهار فى « سلام سلاح » و « كتفا سلاح » وغيرها من التدريبات للحفاظ على اللياقة الواجبة .

و سيد ليس كالآخرين ، يعود من طابوره ليراعى الأرض ، أو يلتحق بفواعلية المعمار ، وفي آخر الليل يرفع لبدته وسلاحه الى « النبطشجية » على المستشفى أو على المدرسة الثانوى أو على المحكمة وغيرها من الأماكن الواجب حراستها ، فهو قد ترك الأرض لولده يرعاها ، لأن عمله لا ينتهى أبدا ، بالنهار أمام مكتب المأمور مهيأ لسماع الأمر باستدعاء من يشاء ، وبالليل يأخذ مكانه فى الخص بجوار البوابة الحديد الكبيرة التى تغلق على « فيللا » المأمور ٠

ــ نعم ٠

ــ تعال كلم ٠

سيد لا يقـــول أكثر من هذا ، وعلى من ســـمع هاتين الكلمتين الاستجابة فى الحال فهو لن يتعتع قدميه عن الأرض حتى يصحبه معه ٠ وعلى يسرى أن يعود بظهره ليرتدى القميص والبنطلون ، أو يضـع على بدنه الجلباب المكوى النظيف ليدرأ عن نفسه اهانة المأمور ، فالهدوم تصنع من الرجال مظهرها ، وفى مثل هذه الحال يمكنها أن ترفع الى أعلى أو تسفل الى أبعد درك ٠

رأته زبيدة يعود الى الحجرة بوجه تكاثف عليه الظلام قبل حلوله، فسألته عن الطارق ، فاخفى وجهه فى ناحية بعيـدة ، وجاءها صـــوته تائها لا وضوح فيه : مشوار للمركز ٠

ضربت صدرها ، وازاحت علب الدواء بعيدا : خير !

وانحنى عليها يهدىء روعهـــا ، ويمد اليها يده بكوب الماء تبتلع الحبات ٠

ــ لا تقلقى خمس دقائق واعود ٠

ــ عملتْ حادثة ؟

ــ أبدآ ثم اننى سليم قدامكَ .. كما ترين ٠

ورفعها الى الوراء ليسند ظهـــرها على الوسادة ، وعاد ليقف بين السرير والنملية ليدخل ساقيه فى البنطلون من تحت الجلباب وليسحب حذاء المناسبات المركون بين النملية والحـــائط ، نفخ فيه نفخة اطارت خيوط العنكبوت الواهنة المنسوجة بداخله فطـــار الغبار نحو السرير فسعلت أخته وسحبت المنديل من صدرها لتضـعه تحت فمها وامتدت السعلة طويلا ، وانقلبت ســـحنتها ، وصـــارت حمراء كرأس الديك الرومى وخرج من الحجرة يتلوى بداخله ذنب فعلته ، وشعور بالاشفاق على الأخت التى سيتركها وحيدة ٠

وقام سيد عن طاولة الميزان ، وقطع حديثه مع الحاج على ناصبا طوله ليسير مع يسرى في الحوارى الضيقة ليتفاديا السير فى الشارع العمومى ، فلا يتعرض يسرى لكل من هب ودب ، يسأل عن السبب ، وهو يجهله حتى هذه اللحظة وان كان لديه شك بعيد بأن الموضوع يتعلق بمخالفات المرور المتراكمة ٠

●●●

قال يسرى لأخته وابن عمه : قبل أن اخرج من دارى ظننت أنى مطلوب لسداد مخالفات مرور محسوبة على من سنوات ، ولما خطوت فوق العتبة ورأيت الخفير يحادث الحاج « قرد » حسبت أنها دسيسة من هذا اللعين ، وكدت أن أبصق على وجهه قبل السير مع الخفير ، وقلت ان فعلتها ستحسب من الاخطاء ، وسيشهد على الخفير أمام المأمور ، فلأتماسك ، وعلى طول المسافة من الدار الى المركز حاولت أن اخلع شيئا من الرجل غير أنه ظل محتفظا بالسر ، ولا يبغى البوح ، قلت لنفسى فلأنحنى على حجر كبير من هذه الحجارة الملقاة فى الطريق واهشم رأس هذا البغل الكتوم الذى يفضحنى بمسيرى معه ، ومرة أخرى تمالكت أعصابى ، وسرت متسواريا ، ادور حوله ، مرة اسبقه فاكون أمامه ، ومرة اتخلف عنه فاكون وراءه ، ولا اكون بمحاذاته أبدا ، ابتعت له علبة السجائر عله ينطق ، ولكن المجرم اخفاها فى جيب صداره وكأنما حصل على حق شرعى له ، وطوى فمه تحت شاربه ، ولم يبح ، فقلت اسلم أمرى الى ربى ، فركة كعب واعرف كل شىء ، كان قلقى من المفاجأة ، لاغير قلت : يا سيد رسينى حتى لا اؤخذ على غفلة ٠ ولم يزد عن : والله ما فى حاجة موضوع بسيط لا يستحق الدوشة ، فقلت : يا سيد لا تحاول الخروج بى الى شارع كبير مزدحم بالناس ، اختر معى الشوارع الصغيرة البعيدة عن الزحام ٠ قال : أمرك وسرنا نتشمم روائح البطيخ الفائحة من الدور المدفوسة فى ظلمات الأزقة ، نحاذر الدحرجة فى فتحات الابواب الهابطة الى أسفل ، واحمى حذائى النظيف من الماء المدلوق ومن « جلة » الماشية وفضلات العيال المرصوصة تحت الحوائط ، حتى خرجنا الى الشارع المسفلت ، ورأينا جدران المركز السميكة وقضبان نوافذه المرتفعة واسطبل الخيل المفتوح من خلف ، ودرنا حول هذه الجدران لنصعد المرتفع الهابط علينا من جهة النهر ، وتركنا الحديقة الصغيرة الى يميننا ، ودخلنا من البوابة الواسعة التى يقف تحت مظلتها عسكرى بزى خشن يرفع سلاحا فى وجه الداخل عليه ٠

اضطرب قلبي ، وانقلبت معدتي ، فأنا لا أحب هذا المكان ، واعمل جهدي الا أدخله أبدا ولم تخط قدمي هذه البوابة منذ اليوم الذي عدت فيه من الصعيد بجرار « أبو عيشة » يشيل حمولة العدس ، قضيت في الرحلة ثلاث ليال في جو الشتاء الكافر ، دخلت به شونة البلد ، ورفع الحمالون الأجولة الى الميزان ، ورحت اترقب النهاية لأعود الى داري ، الم عظامي في دفء الغطاء ، واستسلم لنوم عز على عيني لأيام ، ولكن هذا الافندي عديم النظر ينظر الى في الختام ليقول : الحمولة ناقصة عشرة كيلو ٠

قلت في نفسي : نهارك أسود ٠ وقلت له : يا افندي اعتبرها خطأ في الميزان ٠

قال : يدي تزن الذهب ٠ قلت : اعتبرها فاقد طريق ٠ قال : لازم تحسب عليك فلم أع كيف رفعت يدي اليه ، وأمسكت بياقة قميصه لاضرب رأسه في الحائط حتى سال منه الدم ، وسبقته الى المركز لاقدم الشكوي ، وكان المأمور ابن حلال بحق ، ضغط على الافندي ليوقع بالاستلام استجابة لرغبة أبو عيشة وهو صديق له يقضي معه السهرة في داره ٠

ولكني خائف من هذا المأمور الجديد ، و « أبو عيشة » بالتأكيد ليس طرفا في هذا الموضوع الذي طلبني من أجله ٠

واتجه بي سيد نحو الحجرة المكتوب على نحاسة بابها المأمور ارتقينا الدرجات الثلاث ، وعبرنا بين الدرابزين الساقط عليه ثوب أصفر شفيف نشرته الشمس الغاربة ٠

ورايتهما على الكرسي العريض في جانب الحجرة ، والمأمور يميل على أوراقه مشغولا بها ، فارتاح قلبي ، انحرفا بوجهيهما بعيدا لا يريدان النظر الى ، بعد أن حدجاني بنظرة الاحتقار التي تليق بفعلتي مع ابنتهما ، ضرب سيد بلفته على خشب الأرضية ، ورفع كفه المفرطحة الى أعلى ذوائب عمامته « تمام يا افندم » فانتفض المأمور المستغرق في أوراقه ، وألقى نظرة موبخة لهذا الجلف الذي دخل عليه كالقضاء المستعجل ٠ واشار اليه بظاهر كفه كمن يطرد عن وجهه ذبابة ملحاحة ، فعاد سيد بظهره ، وتقدمت أنا لاقف في مواجهة سيادته ، ولم يعزم على بالجلوس ، سألني عن اسمي وسني ومهنتي ، فأجبته بأحسن لسان ، وبمنطوق واضح لا خلل فيه ، ولا اضطراب ، بعد استعادتي ثقتي لنفسي ، وبعد أن ألجمت القلب الخائف ، وادركت تفاهة الأمر ،

وانحرفت بدانة المأمور نحوهما وسألهما وهو يدفع قلمه الطويل جهتي، هو الشخص المذكور ؟ وانحشر الرد في البلغم المخزون ، فتنحنحا في آن معا ، وقالا في نفس واحد : أيوه هو ياأفندم .

فاستدارت البدانة المحشورة في الكرسي العتيق الي ، وارتكز المأمور بوعيه على الورق المفرود أمامه . واندفع النسران المحبوسان على الكتفين ليبرقا في نور اللمبة المدلاة من السقف : يا اسطى يسرى لهذين الرجلين حقوقا عندك فلماذا لا تدفعها ؟ قلت له : يا أفنـــدم لم يأت أحد من قبل ليخبط على داري ويطالبني بها ، ثم آنني لم أنكرها من قبل ، وعليهما اثبات ذلك ، ثم كان من الأولى أن يحضرا الى قبل القدوم الى هنا ويزعجا سيادتك .

فطافت بسمة على سمنة وجهه ، وصر الكرسي تحته حين عدل ظهره الى الوراء قائلا : ياسيدى لم نخسر شيئا ، كانت فرصـــة لنراك ونرى الرجلين الطيبين يعنى انت معترف بحقهما ؟ قلت : ياسيادة المأمور هذا ليس بحقهما انه حق الله ولا يجوز النكران ، بيني وبينهما القسيمة ليأخذا كل ما هو مسجل فيها . فزمجـــر الرجلان ، وطرقت أذنى كلمات مثل « المؤخر » و « النفقة » غطت عليها كلمة المأمور : عداك العيب ، وأشار الى بالجلوس ، فأخرجت المحفظة من جيبى وسحبت الورقة المطوية ، وفردتها أمام عينيه ، فقال للرجلين : هنا بيان بالأثاث والمصوغات ، والجملة ١٥٠ جنيها .

فزأما مرة أخرى ، وتحركا من موضعهما ليريحا جلستهما قليلا ، وقال أحدهما : ما تراه سيادتك ولحقه الآخر بقوله : ولكنها « ولية » ولها مثل الأخريات مؤخر متفق عليه من قبل فوجهت كلامى للمأمور: مؤخرها خمسون جنيها ، وذلك من خمس عشرة سنة فأجعله مائة على خيرة الله .

فهز المأمور رأسه ، وضرب بالقلم على شـــفتيه وعلى جبهتـــه العريضة ، وسأل : ومستعد للدفع ؟

فقلت : ياسيادة المأمور أما عن العفش فهو شيء لا يذكر ، بقايا خشب أتت عليه القراضة والسوس ، فلايعود ينفع لشيء، وعندى أخت مريضة تنام عليه في الدار ، فبدلا من رفعه من تحتها ، فتخلو داري من كل أثاث، ادفع المبلغ الموضح بالقسيمة وعليه المؤخر وبالزيادة على .

فاندفع أحدهما ليقول بعصبية : عفش بنتنا ولا ينقص خردلة .

فأشار اليه المأمور بالصمت ، وعاد ليسألني : وهل انت مستعد للدفع الآن قلت : معى مبلغ قليل ادفعه مقدما ، أما الباقي فيأخذان به ورقة على ضمانة سيادتك . حاولا الرفض والامتناع غير المأمـــور حسم الأمر وكتب الورقة بيده ، ودفعت ما كان بجيبي ، وقمت من عنده بوعد الا يمر شهران بدون قضاء هذا الدين ، وخرجت لأسير في هواء الشارع الذى مسح عن جبهتي عرق الحبسة في الحجـــرة المغلقة ، ورأيتهما يندفعان الى ليبصقا بغل وليرمى كل واحد منهمـــا سبة تريح نار صدره الملتهبة « ياندل يا قليل الأصل » « تأكلهـــا لحما وترميها عظما » « هى بنت أصول وستتزوج سيد سيدك » ، وانا تفاديتهما ، ودخلت الأزقة الضيقة التي يجهلانها ، وتركتهمـــا وراء ظهري في الشارع المسفلت ، لا يقدران على تجاوزه حتى لا يضلا طريقهما في البلد الغريب .

وقال يسرى : وبهذا تنتهى حياتي كلية مع سعدية وعلى أن أبدا حياة جديدة .

قالت زبيدة : الحمد لله انك تخلصت منها ، ولا أعرف كيف كنت تحتملها ، انا نفسي كنت أقرف منها ، ولا أستسيغ لقمتها ، يكفى العمر الذى قضيته معها دون فائدة ليصلح الله حالها ويوفقهـــا مع كهل لا يريد منها غير الخدمة . . أما أنت فعليك تعويض ما فات، أبحث عن بنت شابة تملأ دارك بالذرية ، أما عن خدمتى فلا تهتم . سيأخذ الله بيدى ، وبقدر طاقتى سأعمل على خدمة نفسى فلا تشغل بالك ، والبركة في الخالة سنضغط عليها لتبقى معنا هذين اليومين ، ولا حاجة لابنة العم التى تتأفف حتى من التردد على للسؤال عن صحتى ، ولا حاجة لأحد من القريبات فكلهن يتهربن منى كأنى أحمل الطاعون في صدرى .

قال حسين : حاشا لله ، انت تأمرى ، كلنا تحت أمرك ، فأنت الخت لنا ولكن كما تعلمين كلنا مشغولون ، وزبيدة أختى كان الله في عونها ، لا يمكن لأحد منا تصور قدر معاناتها ، وانا – ياولداه – أراها كلما دخلت حجرة « العدة » جالسة في الشباك ساندة رأسها على خدها أصبح عليها وأمسى فلا أكاد أسمع لها رداً ، وفى مـــرات كثيرة أرى الدمع يسيل على خدها ، وكلما رأتنى تسرع الى كفكفته ، وفى كل مرة أحاول الاقتراب منها لأطبطب على كتفها وأسألها : مالك يازبيدة ؟ فيه حاجة ؟

وتكتفى برد احس فيه العتاب وفقدان الأمل فينا جميعا كأخوة: متشكرة . فارجوكي لا تلومينها ، خالتك أولى الناس بخدمتك ، فهى لا ضرورة لها فى دار اخيها ، عنده زوجة تهد الجبال ، وهنا ـ سينوبك من الله الثواب ـ ستجد اللقمة النظيفة والهدمة النظيفة والنومة النظيفة .

وقبل كل شىء على يسرى التفكير بجدية فى بنت حلال تحى هذه الدار ، وأنا أعرف أن اليد الآن قصيرة ، ولكنى أقول : البركة فيك ، فكل شىء مرجوعه لشجرة أبيك ، بيدك أنت احياؤها ، ثم انى ـ لامؤاخذة وهذا تطفل منى سمعت أن زوجك لا يدفع لك حقك كما ينبغى ، ولم أره يهتم بزيارتك منذ اليوم الذى تركك هنا ، وكان الأولى له أن يرعاك ، ويستطيع ـ والحمد لله ـ أن يكترى لك خادمة تهتم بشئونك .

فأنا أقول ـ والأعمار بيده وحده ـ بعد عمر طويل لا يستحق أن يأتى لينافس أخاك فى ارض أبيك ودار أمك ، ونصيبك من الطاحونة، فاسمحى لى بمزيد من التطفل لاقول : عليك من الآن تسجيل كل هذا فى عقود رسمية باسم أخيك ، وانت عاقلة ولله الحمد ولا ترضى أن يؤول خير ابيك الى غريب ، أنا اعلم انى اتكلم فى موضوع حساس، ولكنى أعتقد انى أقول الحق ، والراى رايك فى النهاية ، وكلنا يتردد فى صدره النفس ، والروح ملك صاحبها ، ولا ندرى ما مصيرنا غدا « ولا تعلم نفس بأى أرض تموت .. »

وعلى كل حال منظر هذه الدار لا يعجبنى، واذ كنت تخشين يسرى ليغدر بك بعد أن تكتبى له انصبتك ، بامكاننا كتابة ورقة مضادة نوضح بها أنه لا يجوز التصرف فى هذه الملكية الا بعد عمر طويل ، وانا مستعد للتوقيع عليها واتركم الآن بعافية لانى جوعان ومازلت كما ترون بهدوم الشغل على أن ازيلها عن بدنى ، واشطف جسمى وآكل لقمة واريح دماغى قليلا من دوشة الطاحونة ، ولا تنسى يا يسرى مشوار الغد ، سأجمع كل البنات فى الدار الكبيرة ، وسأمر على الدار لاسأل عما اذا كان ياسر قد جاء سفره ، والخوف من أن « يطنش » ، ويستهتر بهذا المشوار ، فحضوره واجب وان لم يأت سأضطر المرور على السنترال لاشد له « تلغراف » ، ربنا يهد حيل حسن كما هد حيلنا .

وفكرى يازبيدة فيما قلت لك ستجدينه عين العقل .. والله .

الخروج الأول :

وقفت العربة « البيجو » الطويلة البيضاء فى الجرن ، فخرج على صوتها الصبية من ظلمات الدور الطينية وأحاطوا بها ، كانوا يلبسون الهدوم المهلهلة ، يقفون بأقدام صغيرة موحلة على القش المتناثر ، يهشون الذباب عن وجوههم ، ويبحلقون بشراهة فى العربة.

انفتحت الأبواب من الجانبين ، ونزل منها الأولاد والبنات ، سار الاولاد جهة الجسر والبنات من خلفهم بجلابيبهن السود وطرحهن الخفيفة :

التفت حسين ليقول ليسرى : ربع ساعة .

الدور الصغيرة الواطئة تفتح أبوابها المهشمة على الترعة الصغيرة ، يسبح فى مائها البط ، وينام على طينها وز أبيض .

سألت زينب : حنمشى كتير ؟

رد حسين : بابها المفتوح ده .

مروا على غرزة يجلس على مصطبتها رجال يرتدون الخلع الممزقة تدور بينهم الجوزة

قال الأولاد للرجال : سلام عليكم .

فردوا جماعة : سلام ورحمة الله وبركاته .

ولم يعودوا الى الجوزة حتى ساروا مسافة طويلة ، ودار بينهم الهمس .

قالت زينات : بيبصوا قوى .

قالت زبيدة : زمانهم بيسألوا رايحين فين ؟

قال حسين : فيه حاجة خافية .

قال حسان : أكيد عارفين .

دخل حسين من الباب المفتوح ، ووقف حسان مع البنات بالخارج كن ينظرن من تحت الطرح الى المكان ، وشاهدن الرجلين يجلسان على المكتب القديم المرتفع بخشب حبيبى ، فوقهما كانت صورة عبد الناصر والصورة الأخرى كانت لفلاح مع امرأة يضحكان بابتهاج بينهما ولد صغير يطفر السرور من عينيه السعيدتين ، وعلى

يد المراة رضيع ترك الثدى الكبير المتلىء لينظر الى الأمام ، وقرا حسان أسفل الرسم « محصول وفير = حياة سعيدة »

سألت زينب : هو كدا بس ؟

قال حسان : انت فاكره ايه ؟

قالت زبيدة : حرام والله .

قالت زينات : يتعلموا ويتعبوا والآخر يقعدوا على مكتب زى دا .

قال حسان : بيتعاملوا مع فلاحين .

سمعوا أخاهم الأكبر ينادى عليهم من الداخل : تعالوا .

فدخلوا المكان المظلم ، لا تضيئه غير نافذة وحيدة بقضبان حديد ، تكدس تحتها صناديق مرسوم عليها جمجمة وعظمتان متقاطعتان ، قام لهم الرجلان فمدوا لهما الأيدى من فوق رأس حسين الذى جلس على الكرسى المواجه للمكتب ، قال أحد الرجلين: تفضلوا ونادى الآخر بأعلى صوته : ياعبده .. هات كراسى

ظهر وجه عبده وراء قضبان النافذة ، وسأل : منين ؟

قال له : تصرف .. من أى مكان ، شوف فى المخزن .

قالت زينب : ومفيش كراسى كمان ؟

قال الرجل الذى يرتدى بدلة كاملة : معلش .. الناس هنا واخده على الحصير .

قال حسان : مش مهم .. نخلص على طول .

قال الرجل الذى يرتدى القميص الأبيض : لسه حنماخد وندى .

قال حسين : معنا عربية ، والسواق ليقلق .

قال الرجل الذى يرتدى البدلة الكاملة : الدنيا ماطرتش .

دخل « عبده » بكرسيين ضعيفين ثبتت مسنديهما خشبتان غليظتان ، قام حسين عن كرسيه وقدمه ل زبيدة ، وظل هو و حسان واقفين ، ثم اكتشف حسان انه بالامكان الجلوس على طرف المكتب المترب المركون فى الركن ، واكتشف حسين الصناديق فجلس على واحد منها ، وسأل : خير ؟ .

قال الرجل الذى يرتدى البدلة الكاملة : انا « عبد الواحد » .

قال حسين : حضرتك المشرف . قال عبد الواحد : والمكلف بموضوعكم .
وطلب من زميله فتح الدفتر ليسجل الأقوال .
تهامست البنات بصوت مبهم ، فنظر اليهن وقال : ماتخافوش.
قالت زينب : الله يجازيه .
وقالت زينات : مجرجرنا فى كل حتة .
قال الرجل الذى فتح الدفتر : مفيش ميراث بالسهل .
قالت زبيدة : أنا شفت الرجل دا .
سألت زينات : فين ؟
قالت زبيدة : الصبح كان على القهوة معاه .
سألت زينات : قهوة مين ؟
قالت زبيدة : القهوة اللى قدام « السنترال » لما التانى لمحنى زغده فدور وشه
قالت زينب : ماتنسيش أن التانى عضو فى جمعية زراعية .
قال عبد الواحد : المساحة سبعة فدانين .
قال حسين : ايوه .. وبيدعى انه له اتنين .
صرخت زبيدة : فدانين أمه .. لامؤاخذة يا حسين .
قال عبد الواحد : ياست حلمك شوية ، ومعاه اثبات ؟
قال حسان : سرق العقد المسجل من دولاب المرحوم .
همس عبد الواحد بكلمة فى أذن زميله ، وسأل : وأنتم معاكم ما يثبت ؟
قال حسين : المرحوم كتب عقد ابتدائى بالفدانين مع أمى بيع وشراء ولو كان ما يطلبه حق شرعى كنت من باب أولى أطالب به أنا رآخر ، ولأنى أعرف ان الحاج كتب عقد اجمالى بخمسة فدادين باسم أمى أيام شرا الأرض ، لأنهم ماكانوش يسمحوا بأكثر من خمسة ، كان له اتنين منها وتلاتة للحاجة أختى ، وهى سرعت بتسجيل نصيبها والحاج اهمل التسجيل واعتمد على العقد الابتدائى .. انما تقول ايه فى الطمع !
قال عبد الواحد : بدل الجرى فى المحاكم قعدة المصطبة احسن .
قالت زينات : هو اللى عاصى .

قال عبد الواحد : احنا جهة غير تنفيذية ، ولا نقدر نعمل حاجة الا بموافقة الورثة .

وقال الآخر الذى يرتدى القميص الأبيض : علينا تثبيت الوضع على ماهو عليه فى اعلام الوراثة ، وان رفض حد من الورثة القسمة منقدرش تقسم الا بحكم محكمة .

قالت « زينب » : محكمة ايه ؟ يخبط راسه فى الحيط .

ظهر رأس عبده من النافذة ، تعلق بيده فى القضبان ، وظل ينقل نظره بين الجالسين ، لمحه عبد الواحد فصاح : بدل وقفتك رح هات شاى للجماعة .

قال حسين : لا شاى ولا حاجة .. عايزين نخلص .

قالت زينب : شاى ايه ! .

سأل عبد الواحد : وأنتم كل الورثة ؟

قال حسين : ينقصنا واحد بس مسافر ، والحاجة طبعا منحازة معه .

قال عبد الواحد : هو بس المدعى .

أمالت زبيدة راسها فى اذن أختها وهى تنظر الى الجدار أعلى رأس الرجل الذى يكتب ، ابتسمت أختها ، وسألت زينب : فيه ايه ؟ .

قالت زينات : أبدا .. بتقول لسه معلقين صورة عبد الناصر؟

ادارت زينب راسها الى الجدار ، ونظرت الى الصورة ، قالت : آ .. والنبى .

قالت زبيدة : أنا شفته على القهوة .

سألت زبيدة : والتانى كان معاه ؟

قالت زبيدة : بقولك زغده فى جنبه .

قالت زينب : والنبى لاسأله .

قالت زينات : بلاش احراج .

مشوار المدينة :

قالت له : اتذكر يا ياسر يوم كتبت لى الرسالة بالقلم الرصاص ؟ لكم كبرت .. لو كنت انجبت لصار لى ولد فى سنك . أو أصغر منك قليلا ، ضحكنا للهجتك ، وعلى خطك المنعكس ، كان كل سطر نازلا من أول الصفحة الى آخرها ، وقال كمال يومها ان خطه عطشان جدا فهو ينزل البحر جريا ، وطلبت امى سماع الرسالة ، كم كان سنك يومها ؟

ــ كنت فى السنة الرابعة الابتدائية ؟

ــ وانا ياابلة احبك جدا ، وانتظر زيارتك الصيفية بفارغ الصبر ، حصلت على اجازة آخر العام ، ولا أجد ما أفعله ، كل أصحابى هنا عندهم كرة من الجلد يلعبون بها ، وانا لا امتلك كرة مثلهم ، وابى يرفض أن يشترى لى واحدة ، فأرجو أن تشترى لى واحدة من الاسكندرية الحلوة ، وترسلينها مع خالتى ، أو تحضرينها عند الزيارة .. وأرسلت لك واحدة كبيرة .

ــ قضيت المدة انتظر عودة الخالة ، وحين سمعت انها جاءت من زيارتكم ، عملت انى ازور أبى الذى كان يقضى مدته على ميزان الطاحونة ، قعدت أمامه ارقب بابكم ، رغم أننى فى مثل هذه الزيارات احاذر الا ترانى الخالة ، لأنها دوما تفتش جيوبى لترمى ما جمعت من مسامير واغطية الكازوزة وحبات النوى ، وتطلق السباب لأمى لاهمالها لى وعدم عنايتها بنظافتى ، ولمحت الخالة من بين زجاج الشراعة ، وبقيت على قلقى حتى اشارت الى ، وذهبت اليها ، وهى ــ رحمها الله ــ جعلتنى اترقب فترة طويلة ، لترصد ملامح وجهى حتى رفعت السلة التى كانت تشيل فيها الزيارة لتخرج كرة خضراء كبيرة ، واخى « حسان » ــ جزاه الله ــ طلب أن ألاعبه بها ، ولكنى رفضت ، لانى العب مع زملاء المدرسة ، وهو الكبير عليه بالبحث عن أصدقاء من سنه ، وحشر ابرة الخياطة فى بوز حذائه ، وعاد ليطلب أن يشوط بها مرة واحدة ، وكانت هذه الشوطة هى

نهاية الكرة وصارت تحمل رقعة حمراء كبيرة من غير لونهـــا . فشوهت ، ولم تعد كرة جديرة بالفخر أمام الزملاء .

ــ أنا اذكر زيارتك لنا مع امك ، كنت صغيرا ، أعتقد انك لم تكن قد دخلت المدرسة بعد .

ــ كنت فى الاجازة ما بين السنة الأولى والثانية ابتدائى .

ــ وكنت تجيد تقليد الأشخاص ، لقد قضينا حولك ســـهرة ممتعة ، ضحك فيها كمال كما لم يضحك ابدا ، نقلت الينا شخصيات البلد بحذافيرها ، قلدت الخالة ، وزوجة أبيك ، وشحاته الخياط ، وكامل القهوجى .. وغيرهم .

أتذكر يوم تشبثت بتلك البجعة الزجاجية الممتلئة بالصـــبغة الحمراء ؟

ــ كانت امنيتى الجميلة .

ــ تعلقت بها ، وزجرتك امك ، غير ان أمى قالت سأشتريها أنا من مالى ، وانحرفنا الى الرجل الذى يصف البجعات الرقيقة على صندوق فوق طاولة بشارع صفية وسألت أمى : بكم ياعم ؟ فرد : بخمسة قروش للواحدة ، ورفعت أمى واحدة من منقارها الرفيـــع لتقول : كم ياخويا ؟ فاجابها الرجل باشمئزاز : قلت بخمسة قروش ، قالت : ولكنها غالية جدا .. ناخذها بقرش ؟ وهوووب ، انقصفت رقبة البجعة ، وسقطت على الأخريات فحطمت خمسة منهـــا ، وسالت صبغتها كأنها الدم ، وجرينا جميعا ، أنا أجرك من يدك ، وانت مصر على النظر الى البجعات باكيا مصمما على امتلاك واحدة ، وامى وخالتى يهرعان بالجلابيب السود يجمعان الطرح التى نشرها الهواء ، والرجل من ورائنا : يافلاحين يابهايم .. حقى ياأولاد الكلب ويقف زحام الشارع ليتفرج علينا ، ولم ينقذنا الا الاتوبيس الذى انحشرنا فيه على عجل .

ــ ويوم زرنا صديقتك التى تسكن الشقة بالدور الرابـــع فى عمارة تطل على البحر ، دخلتم انتم حجرة الصالون التى بهرتنى نجفتها الكبيرة وأثاثها اللامع الذى يملأ مساحات الشقة الفخمة ، كانت أفخم شقة دخلتها فى حياتى ، ولا أنسى المرايا التى تمتـــد بطول السلم من الدور الأول حتى آخر العمارة ، كل هذا بهرنى ، وانتم أجبرتمونى على الدخول مع اطفال صديقتك لاتفـــرج على التليفزيون وكنت حديث العهـــد به ، لم أره الا فى زيارة لأختى

الحاجة ، ورفضت مصاحبة العيال لأني مرتبك وخائف من كشف لهجتي الفلاحي وتفاهة ملبسي الذى شكلته أمي ، قميص من هنا وبنطلون من هناك وحذاء عثرت عليه عرضا ، فكان لابد أن أصرخ حين أرى البحر وأنا على هذا الارتفاع ، كانت الشرفة مفتوحة ، وأنوار الاسكندرية تتماوج مع ماء البحر السوداء ، فصرخت : الحقونى .. الحقونى .. الدار بتقع .

فضحك الأطفال للهجتى ، وسخروا من رعبى ، وواصلت الدق على الباب ، وجاءت صديقتك لترفعنى اليكم فى الصالون . بوجهى الذى هرب منه الدم .

– كانت خالتى – الله يرحمها – تعزك جدا ، مرة جاءتنى فى زيارة مع أمى ، ونزلنا محطة « الرمل » ، ابحث عن خالتى التى كانت تجلس خلفنا مع امرأة اشتبكت معها فى حوار كأنما تعرفها من ألف سنة ، ولم أجدها ، ورحت أنا وأمى نبحث عنها ما بين محطة الرمل والمحطة السابقة ، وأخيرا عثرنا عليها تخرج من محل يبيع الكتب وبيدها كتاب لتوفيق الحكيم ، ماهذا يا خالة ؟ وترد على : يمنى اسكندرية حتكلنى .. ناسها عرب زينا . وما هذا الذى بيدك ياخالة ؟ قالت : شفت الكتب فى « الفاترينة » قلت لنفسى لابد من هدية لياسر وهو لا يحب شيئا فى الدنيا حبه للكتب ، وتاهت منى الأسماء التى يرددها أمامى ولكنى تذكرت اسما منها فقلت للرجل : مالقاش عندك ياخويا كتاب لطه الحكيم : وظل الرجل ابن حلال عرف انى ...

ودخل يسرى ليقطع سيل الذكريات ، ويفرك يده ، ويقول لياسر : خلصتم حكايات ، بنا نقضى ساعتين « روقان » مزاج .

واستأذن ياسر من زبيدة ودخل مع أخيها الحجرة الأخرى ، فوجد يسرى قد أعد الجلسة على سنجة عشرة ، النار مدفونة بالوقد . والحجارة مصفوفة مدعمة بالمسل وقطع الحشيش الصغيرة ، والجوزة نظيفة ينضح ماؤها البارد على ورقة الجريدة المفرودة ، واختار ياسر الشلتة بين السرير والكنبة ، وسحب اللفة التى كان قد أعطاها ليسرى وفض عنها الورقة .

– من مصر ؟ أكيد .

– أبدا من هنا .

– أعوذ بالله .. لا نصيب لى فيها .

ـ أنا لا افهم فى الخمر واحضرتها خصيصا لك .
ـ لا ياعم توبة ، لن اضع على لسانى قطرة من خمر هذه المخروبة
اشرب وحدك .
ـ انا اعرف انها كمية من السبرتو .
ـ توكل انت على الله .. الكباية قدامك .
وبدأ يحرك النار المدفونة ، ويسحب الجذوات المسهللة
الى المصفاة ليهشمها بيد الماشة وينفخها فتصحو حباتها الياقوتية ،
وينقلها الى الحجر تلو الحجر ؛ متنقلا بالقابة بينه وبين ياسر الذى
جرع من الزجاجة دون حاجة للكوب .
ـ عرفت ان المركز طلبنى ؟
ـ خير !
ـ الست سعدية بعثت رجالها ليطالبوا بحقوقها .
ـ وكيف تصرفت ؟
ـ ولا حاجة ، وقعت لهم على ورقة بالمبلغ المطلوب .. تصدق
ان اخاك حسين ولد شهم .
ـ أول مرة تعترف
ـ صحيح .. استطاع مواجهة زبيدة ليطلب منها كتابة الدار
ونصيبها فى الأرض والطاحونة باسمى .
ـ شجاعة يحسد عليها ، وكيف كان جوابها ؟
ـ نزل عليها سهم الله ، وهو قال الكلمتين وجرى .
ـ المهم التنفيذ .
ـ يتهيأ لى أنها ستفعل .. لكنها بحاجة لدفعة أخرى .
ـ تعرف أن علاقتى بسامية انتهت تماما .
ـ تقلبات عاطفية .
ـ لا .. هذه المرة بجد ، بعثت لها زبيدة برسالة فى الزيارة
الماضية اقول لها ان مابيننا انتهى الى الأبد .
ـ واشتريت الزجاجة لتنسى ؟
ـ أنسى هم الدنيا كلها ، وهم العائلة التى دخلت دواماتها :
وهم مشوار المحكمة فى الغد .
ـ دعك من المحكمة .. أظن القطيعة تكررت بينكما ؟
ـ هذه المرة هى النهاية ، فهى ترى الطريق مفروشا بالورود .
وأنا أراه مسدودا تماما هى ساذجة لا تعرف شيئا ، واسوأ من

هذا تراني فارسا مغوارا سأصحبها الى الفردوس الحقيقى ، وهذه مسئولية ، المستقبل الذى أراه لا موضع فيه لاقدامنا لأنه سيدوس بوحشية على أحلامنا الخضراء .

ـ وأنا أؤكد أن هناك عودة .

ـ أنت لا تعرف شيئا .. هل أعيد عليك ما قلت الف مـرة العدو فى الدار .. العدو فى الدار وخنجره مسـلطا على الرقاب والذبيحة مشلولة اليد .

ـ قلت لى مرة ان أحدهما لا أذكر اسمه قـد ضرب الأرض بقدمه ، وصاح فى المحكمة بعد أن تظاهر بالتراجع عن أفكاره « لكنها تدور » وأنا أقول لك بعد هذا الكلام « ولكنك تحبها » .. مسـاء الورد .

ـ اليوم نلبد فى جحورنا ، نعانى صراع الكابوس الـذى نراه بوضوح ولا نملك الخروج منه بمجرد حركة من أجسادنا .

ـ معنى هذا أن أبحث لنفسي عن حفرة وأدفن ..

ـ لا تسخر أرجوك ، فاكر زمان لما كنت أشكى لك انى لا أقدر أقول لها « بحبك » فاكر لما كنت أكلمك عن حلمى بمساحبتها فى مشاويرى بين الغيطان ، اقطف لها وردة حمراء ، ازرعهـا على صدرها ، وأنام عليه أحرسها .

ـ مساء النور على البنور .

ـ خزبشتنا الدنيا ، زمان قدرت أقول لها بالعافية : عاوز أشوفك ، ولما حدث ذلك ، قعدنا لا عارفين نبدأ ، ولا عارفين نتكلم ، كل واحد منا ساكت يسمع صوت قلبه الخائف ، وقلت كلاما كثيرا لا صلة له بالموضوع ، وكانت تنصت وتتبسم ، ولما أفكر انى أرفع يدى أحطها على يدها ، كان جسمى كله يترجرج وادوخ ، كلمتها عما قرأت من كتب ، ولمحت من بعيد لقصة العاشـق فى الام فرتر وابتسمت ، وسألت : معقول !! فيه عاشق ينتحر علشان حبيبته ؟ وقلت لها : وفيه أكثر . وكلمتها عن جنون « قيس » وقـرات لها من أشعار « جميل » و « كثير » .

ـ كنت « روميو » ولا أعرف .

ـ فى قطيعة قبل هذه كتبت لها رسالة انهى فيهـا العـلاقة : لم يمر أسبوع وكنت أدور حول بيتها كالمجنون ، وكنت أمر على

شارعها المظلم . واشوفها من شراعة الباب في نور الصالة ، تقص قماشة ، أو قاعدة على الماكينة تخيط هدوم الصيف ، وكل مرة كنت أمنع نفسي من الخبط على الباب ، وكنت امنع نفسي من الكتابة اليها واقول : سامحيني .»

— وفي هذه المرة ستقول سامحيني .. اشرب .

— اسمع .. ولاتقاطعني .

— طيب .. اغير الجوزة ..

— غيرها من ماء القلة ، بعد ذلك تجرات وحصلت على موعد في القاهرة ، انتظرتها على المحطة . ولما القطار دخل بين الرصيفين ، رأيتها نازلة في زحمة الركاب ، ضحكت لي من بعيد ، وقربت أنا منها ، أمسكت يدها ، واخذتها الى « الكافتيريا » كانت ممتلئة برائحة الدخان والقهوة ، وقعدنا تحت الشباك نبص على الميدان ، ونتأمل رمسيس وهو يرش الماء من قدميه في الحوض الواسع ، ولم اصدق أني اجلس معها على نفس الطاولة التي التقي عليها بالصديق الذي يمدني بالورق السري ، ولما الشمس لسعتنا ، قلت لها : نمشي .

قالت : نروح فين ؟ قلت لها : الشقة ، ابتسمت محرجة ، وقالت : نتمشى في الشوارع أحسن ، قلت لها ، الدنيا حر . وسألت : صاحبك في الشقة ؟ قلت لها : في الشغل .

— تحت السواهي دواهي .

— ومشينا في الشارع الطويل الضيق ، نخبط في اكتاف الناس ، وهم يخبطون في اكتافنا وانا ممسك بيدها العرقانة ، مرة نمشي بجنب ، ومرة تفلت اليد ، وارجع فأمسكها كنت أريد تحويط وسطها بيدي ، لكنني خجلت ، وقلت لنفسي : هي كمان حتكون مكسوفة ، ووقفت اشتري سجائر من الدكان ، كانت هي سبقتني بكم خطوة ، وشفتها من ظهرها في الجيب الخفيف والقميص نصف الكم ، وكان شعرها يلمع بالفازلين وينزل على أكتافها التي ظهرت منها ملامح باهتة لحمالة « الستيان » وكان عرقوب رجلها ناشفا ، ويضرب بشدة مع الجزمة على الأرض المبلطة بطوب أسود ، وأشفقت عليها ، وساعتها ماتت الرغبة العنيدة ، وساعتها تمنيت الفرار منها ، لادخل أول عطفة على يميني ، ولكنها نظرت وراءها ، وركنت على جنب بانتظاري ، ومدت يدها لتأخذ كفي ، ومشينا

فى الحارة ، ملت بوجهى على الأرض ، وقلت يارب ما حد ياخد باله، وتشجعت ، وقلت : يارب ماتاخد بالها اننى مهزوز ومتردد .

ــ خد نفسا .. الله يجازيك علقت أنفاسى .

ــ وفى الشقة .

ــ كفاية وقف .

كان نور الشمس القوى يتسرسب من الشبابيك ، ومفروش على الحيطان ، وفوق السرير على شكل خطوط ، فخففت من هدومى ، وقلت لها : أجيب لك بيجامة من بتوعى ؟ ضحكت ، وقالت : كدا احسن .

ــ كفاية خلصت الزجاجة .

ــ ارتعشت اصابعها وهى نائمة فى كفى ، ونفض عرق فى رقبتها لما مشى عليه اصبعى ، وشفايفها فلفصت لما أردت لها فى قبلة .

ــ بووب .. بووب .. بووب .

ــ دفعتنى بحنان على كتفى ، وقالت : لا .. وانشغلت أنا بفك زراير قميصها وانفرط منها نهد صغير طل من ظلمته ووصـــوص بخوف لمرآى ، وعيناه بربشت كانما لم ير نورا فى حياته ، وقالت : لا .. ودفعتنى بحنان على كتفى ، ونزلت بالراحة على ظهـرها المحبوس فى ذراعى .

ــ وتقول اقدر انسى .. أقطع ذراعى أن مارميت التماسى قبل ما تدخل دارك .

ــ أنا أدرى بنفسى

ــ لو كنت تدرى ما اشتريت خمرة فاسدة من هذه المخروبة .

ــ حاجة تلطش الدماغ والسلام .

ــ ما حكيته هذا ليس شيئا ، أنا اقص عليك حكايتين من تجربتى .. واخذتها فى اية شقة ؟

ــ شقة شارع « الفلكى » .

ــ فاكر أيامها .. فى أول أيامك بالقاهرة جئت الى مسـكنى ، وذهبت معنا الى المطار لنودع زبيدة حيث تلحق بزوجها ويومها ، كنت تنفخ من الغيظ ، وتعانى الاحساس بالغربة ، وانا قلت لك اصبر ، غدأ تقطعها ثلثا ، ولا نقـدر على الملك من شـوارعها .. وحصل .

ــ حصل بعد مجاهدة شديدة .

ـ بعد ان تركت السكن فى هذه الحجرة الوحيدة فوق السطح ، فى شارع الفلكى كنت قريبا منى ، أمر عليك مســـاء كل خميس لاجلس الى جوارى فى التاكسى ، ونقطع القاهرة طولا وعرضـــا ، واعود بك الى مسكنى ، نتعشى ، وندخن الأنفاس ، وتنزل انت آخر الليل متسلطنا .

ـ وكانت سعدية تجلس فى مواجهتنا ، وانت من حين لآخر تقول لها : قومى من امامنا يا امرأة . وهى ترد عليك واللبـــانة تحت لسانها : ايه يايسرى انا قاعدة واخيرا تقوم بعد أن تقول لهـــا : سنتكلم فى قلة الأدب .

ـ وذات صبح نزلت من الشقة لاجد عمال حلوان يســـدون الشوارع من أول محطة باب اللوق حتى دخلوا علينا شارعنا بحى « الشقافة » وخفت عليك ، وظننت انك ستلحق بهم ، وذهبت الى شقتك لاجدك مستغرقا فى النوم وقلت لك : اصحى ياعم أنت نائم هنا بينما الثورة هاجت فى الشوارع . وصحت وانت تدعك عينيك: فين ؟ فين ؟ واخذتك من يدك الى بوابة العمارة واشرت الى زحـــام العمال الذى يملأ الشارع ، وقلت لك : أليس هؤلاء هم الطبقـــة التى تتحدث عنها كتبك ؟ وعدت بظهرك لترتدى هدومك على عجل ، حاولت منعك لأنى أول من سيسأل عنك فى البلد ، ولكنـــك رميت بنفسك فى الزحام ايامها كان من السهل تصديق كتبك لأن الأمور كانت عيانا بيانا فى الشوارع كان لا يمر شهر دون مظـــاهرة أو اضراب ، أنت لم تحضر مظاهرات الطلبة ؟

ـ جئت الى القاهرة على حسها ، وكانت الجامعة تعيش على ذكراها ، ولكن ما الحكايتان اللتان تقصهما على ؟.

ـ حكايتان داعرتان .. ولكنك أنت الذى بدأ . .

ـ ماشى .

ـ السر طبعا فى بئر .

ـ طبعا .

ـ أبدا بحكاية البلد ام بحكاية القاهرة ؟

ـ ابدأ بأية واحدة وخلصنى .

ـ ابدأ من هنا الأول .. بعد وفاة ابى اجرت الأرض لعبد الهادى ذلك الرجل الذى تراه يرعى الغنم الآن . وكان المفروض أن أمر عليه قبل الفجر ليلحق دورنا فى رى الأرض ، وقضيت ليلتى فى غرزة « الجمان » وضيعت بعض الوقت فى دفء الدار ، لا يغمض لى

جعن حتى أفي بوعدى فأوقظ الرجل ؛ وسرت فى جليطة الفجـــر تحوطنى الشبورة من كل جانب ، وأنفخ البخار من فمى . ولم تفلح الكوفية والطاقية والجاكتة فى منحى الدفء ؛ ووجدتنى أعطس فى دفعات مفاجئة ، وطرقت على الرجـــل داره ، فهب الدفء من داخلها ، وكانت زوجته قد قامت لتفتح وهى مبلولة الشـــعر . وفهمت انها خارجة لتوها من الطشت ؛ فمازالت بقع الماء مرشوشة على ثوبها ، وسمعته فى قاعة الفرن ينزح الماء الى جسده ؛ كانت ليلة جمعة ، لا اكتمك كانت المرأة شهية للغاية ، ويبدو أن أخانا لم يشبعها ، وهى المرأة الشابة الريانة التى يحدد ثوبهـــا فلقتى مؤخرتها الرجراجة ، رمت لى النظرة فقلت فى نفسى : انا قتيلك هذا الصباح .

وخرج عبد الهادى خجلا ، يلملم طاقيته على شـــعره المبلل ليجدنى أعانى رعشة شديدة ، تهز كل بدنى ؛ وضاعفت دفعـــات العطس ؛ وشكلت وجهى بسحنة الاعياء ؛ قلت : يا عبد الهـــادى يبدو أنى لا أقدر على مصاحبتك . قال : اخذت برد ياحلو .. اعملى له شايا يا فتحية واعصرى ليمونة .

قلت له : انا اروح احسن ؛ وقال الرجل : لم جســـدك فى البطانية الصوف وخذ لك غفلة ؛ ستقوم كالحصان .

وذهب هو ، وتركنى مع المرأة ، وقمت فعلا كالحصان . وكانت المرأة عطشى ومشتاقة ، تصدق بالله ؛ قالت لى : أنا ماشفت كدا فى حياتى .

ـ والثانية ؟

ـ طقطق النار والعة .

ـ أنا اعرف كيف اتعامل مع الجوزة .. والثانية ؟

ـ عملت مرة على تاكسى لرجل قبطى من غمرة ، كان ـ الله يقدس روحه ـ غنيا جداً ؛ ومن نشاطه المتعدد فى السوق سرح سبع تاكسيات فى البلد ؛ وكنت دون كل السائقين مقربا منه جداً ، لأنه ـ الله يقدس روحه ـ ابن حظ ؛ انهى عملى ؛ وأذهب اليـــه للحساب ، فأجد القعدة منصوبة ، الخمر والحشيش وكل ما يحبه قلبك من انواع الطعام .

وكان هذا الرجل معتادا على قضاء الصيف فى رأس البر ؛ بأخذ الأسرة بكامل العدد الى العشة الرائعة التي يمتلكها هناك ، وفى هذه

السنة كان له بنت تقضي امتحان الثانوية العامة ، فتأخرت ريثما تنهي الامتحان ، وأمرني بأن أصحبها الى الأسرة آخر يوم من الامتحان مباشرة ، وبالفعل أخذتها من مدرستها بزيها ، وكانت ـ والحق يقال ـ في هذا الزى تبدو ملكة جمال حقيقية ، أفخاذ محشورة في سروال ضيق ، ومؤخرة ـ ماشاء الله ـ بارزة الى أعلى تتفنن في تحريكها باثارة ، ونهدان كجملين عنيدين في حاجة لجمال يشكم عنادهما ، الحقيقة أنا لم أكن أهتم بها من قبل مجرد تلميذة، صحيح مشاكسة وشايفة نفسها شوية ، وهي أمور كنت أحسبها على المراهقة فحسب .

وركبت التاكسي الى جوارى ، في البداية بدت مؤدبة . ومتشاغلة عني بالنظر الى الشوارع ، ومرة تخرج « لبانة » لتعرض على ، ومرة « ساندوتش » ثم حينما انفردنا في الطريق الزراعى الطويل، طلبت مني أن اعلمها السياقة ، قلت لها : في وقت آخر .. أو في رأس البر نبحث عن مكان خالي ، أما في هذا الطريق الذي لا تنقطع عنه السيارات نعرض نفسينا للخطر ، ولكنها أصرت ، واقتربت مني جدا ، ومدت يدها الى عجلة القيادة ، قلت لها : يا « نانى » تلخبطيني دعيني أشوف السكة . قالت : لا .. وركبها العناد ، قلت لها : أقول لك شوية كلام نظري ، قالت : عاوزه أتعلم عملى ، ودلوقت ، أنا عارفة كل الكلام النظرى ، عاوزة ادخل على بابا وانا سايقة العربية .

واحتك الفخذ بالفخذ ، وضرب النهد الكتف ، وتناثر الشعر على الخد ، وحومت الأنفاس المعطرة في الخيشوم ، وفجأة وجدتها تقعد على حجرى ، قلت : الله يهديك ياشيطان ، فركنت السيارة على مدار ساقية مهجورة ، ووجدتني أطبع على خدها قبلة خاطفة فلم تمانع ، ووجدت يدى تفور دون وعى مني في فتحة القميص وتتجول في قتاة النهدين ، فزفرت نارا من فمها ، ولم تمانع ، بل أكثر من هذا ، وجدتها تقول : نرجع في الكرسي الوراني أحسن .

واخوك ما صدق خبرا ، على مانزلت لافتح الباب الخلفي ، وجدتها مهيأة تماما ، زيها ملقى في الدواسة ، وهي مرفوعة الساقين على آخرهما ، وقالت لي : أدخل الدار أمان .

وعليها ياعم ، قضيت أسبوعا في رأس البر أمضى السهرة

فوق سطح العشة مع أبيها وعمها واخوتها الكبار نكرع زجاجات البيرة المثلجة وندخن كراسى الحشيش من أغلى صنف ؛ واخترت نومتى على السطح ؛ قلت لهم : الهواء هنا منعش وجميل . هم ينزلون آخر السهرة ليناموا فى غرفتهم ؛ وهى تصعد الى بقميص النوم الذى لا أراك الله مثيله أبدا ، وخذ عندك حتى نرى الخيط الأبيض من الخيط الأسود .

الخروج الثانى :

عبروا بوابة السكة الحديد ، واتجهوا نحو موقف السيارات ، كان يسرى هناك بانتظارهم ، قالوا له : صباح الخير ، ففتح لهم باب السيارة ، ركبت البنات فى الكراسى الخلفية ، وركب الأولاد بجوار يسرى .

قال حسان : لسه بدرى .

قال يسرى : انتظرتكم كتير .

قال حسان : ابدا .. دا معادنا .

قال يسرى : قعدت على القهوة وحسين كان هناك وطلب لى « بورى » .

سألت زبيدة : لسه مارحش الطاحونة ؟

قال يسرى : سألته مفيش شغل ولا ايه ؟ فقال لى واصل مشوار اشترى غرابيل للفراكة .

سأل ياسر : انزل انده له ؟

قالت زينب : يجى معنا .

قال حسان : لا .. دا مشاور ودا مشاور .

قالت زينات : والنبى تنزل تنده له .

فتح الأخ الصغير باب السيارة ، وقال يسرى : اركن انـــا على جنب .

خرج يسرى بعربته من تحت مظلة الموقف ، عبر طريق الأسفلت ، وحضن جنب الرصيف ، أمام محل الكاوتش المفتوح .

عاد ياسر ومال برأسه من نافذة السيارة ، قال : مش موجود .

قال يسرى : يمكن مشى .

قال حسان : بينا ياعم نلحق مشوارنا .

لما دخلت السيارة المدينة من الطريق الخارجى ظلت تسير حتى عبرت المزلقان ، والميدان الذى يقف تحت مظلته عسكرى مرور ، أشار لهم بيده المخططة ، فدخلوا الشارع الكبير الذى يقسم المدينة

نصفين ، عبرت السيارة المزلقان الآخر ، ولما انحدرت منه ظهر المبنى القديم للمديرية ، كان المبنى أصفر متهالكا ، يقف على بوابته الواسعة جنديان بين ايديهما سلاح ، اشار واحد منهما للسيارة ، وقال : ممنوع .

قال يسرى : المحكمة .

اشار له الجندى : المدخل من الباب الصغير .

عادت السيارة لتتجه نحو الباب الصغير ، قالت زبيدة : مش حسن اللى هناك ده ؟

تلفت الأولاد حيث أشارت ، قال ياسر : هو .

كان تحت ظلة الشجرة ، يسند بيده على جذعها ، وباليد الاخرى سيجارة .

قال حسان : والعمل ؟

قالت زينب : نسلم عليه عادى .

قالت زينات : وكل واحد فى حاله .

قالت زبيدة : واحنا عاوزينه فى حاجة ؟

نزل يسرى وفتح لهم الأبواب ، رآهم حسن فأدار للسيارة ظهره ، وراقب آخر الطريق كمن ينتظر أحداً .

اندفع ياسر اليه ومد له يده : ازيك .

فوجىء به فسلم عليه ، وغمغم بكلام غامض ، ثم جاءت البنات الواحدة بعد الأخرى ومددن له الأيدى ، فسلم عابسا ، كأنه لا يعبأ ، تراخت اياديهن الى جنوبهن وتخبطن فى حلقة ، ثم نظرت كل واحدة فى وجه الأخرى مأخوذة ، حتى استفقن على صوت حسان يشير الى الباب الصغير ، سرن وراءه صفا ، ولم ينظرن خلفهن أبدا ، والبنت الكبيرة حامت فى عينيها دمعة ، مسحتها بطرف الشاش لما دخلت فى ظلمة المدخل الضيق لمحها حسان فاقترب منها ، اخذها تحت جناحه وضمها بحنان ، قال : ولا يهمك .

انفجرت باكية : ماكنتش فاكرة قلبه جحود كدا .

قال حسان : كله عند الله .

عند الدرج التقوا بالمحامى واقفا تحت ابطه حقيبته السوداء يحادث فلاحين عجوزين ، اقترب منه « حسان » وقال : صباح الخير يابيه .

بوغت المحامي : صباح النور .. جيت ؟
قال : لسه واصل .
سأل المحامى : وباقى الورثة ؟
قال : كلهم وصلوا . وأشار اليهم مكومين تحت الدرج ينظرون الى الصاعدين والنازلين بخوف .
قال المحامى : انتظروا شوية لأن الجلسة لسه .
عاد حسان اليهم ووقف يحملق فى المدخل الطويل المظلم ، كان جذع الشجرة ينتصب فى منتصف الباب ، وحسن مازال ساندا يده عليه يدخن بقايا سيجارته ، همس فى نفسه : تاعب نفسه على الفاضي .
قالت زبيدة : الله يرحمك باآبا .
قال حسان : بلاط المحكمة أكل من رجله راقة .
قالت زبيدة : تعب كتير .
قال ياسر : واحنا ولا هنا .
امال حسان رأسه الى ياسر وهمس فى اذنه : خد البنات يستريحوا فى « الكافتيريا » وانا اطلع انتظر لما تبتدى الجلسة انادى عليكم .
قال ياسر : تعالوا نقعد هنا شوية .
هتفت زينب : نقعد وسط الرجال !
قال حسان : وماله .. دى محكمة .
رأوه يقبل عليهم من جهة المدخل ومعه الحاجة انيسة لما اقتربا من السلم ، ارتبكت البنات ، وصمتن بانتظار تحيتها ، لكنها خطت الدرجات دون كلام ، مكثن واقفات يراقبنها بطرف خفي حتى برز رأسه ورأسها من سور الدور الثاني ، قلن فيما بينهن : دا ماكنش عيش وملح .
وقالت زينب بصوت عال : مرة وسخة ماشية على هواه .
جلسن فى ركن « الكافتيريا » بين العمود والباب ، وانكمشن على بعضهن وسحبن اغطية الرأس على وجوههن ، ورحن يرقبن المكان بنظرات خفية بينما ياسر كان قد دخل الحجرة الصغيرة يطلب الجرسون .
لما جاءهم الجرسون يسأل عن طلباتهن سألنه : عندك ايه ؟
قال : كل حاجة .. شاى وقهوة وحلبة وكاكاو وحاجات ساقعة .

قال ياسر : هات لهم بيبسى .
قالت زينب : أحسن .
قالت زينات : تلاقيه بيعمل طلبات أى كلام .
وقالت زبيدة : شكله أصفر الظاهر عنده سل .
فتح لهم الجرسون الزجاجات ، ففرقعت وطارت سداداتها بعيدا فى الهواء ، وسالت من حوافها رغاوى فواره .
نظرن الى الدور الثانى بحرص ، وقالت زبيدة : تلاقيهم واقفين يبصوا علينا
قالت زينب : ربنا يعميهم .
قالت زينات : بصوا للترابيزة اللى جنبينا .
كان الجالس كهلا بوجه شاحب يرتدى معطفا واسعا يخرج منه عنق نحيل معروق ينتفخ لأنفاسه الواهنة . وعلى رأسه غطاء ثقيل من الفرو . كان يزحزحه الى الوراء بيده المرتعشة ليهرش مقدم راسه ، بعد أن ضبط الغطاء مكانه ، عاد بنظرته التائهة الى الأوراق المنشورة امامه .
قالت زبيدة : يفكرنى بأبويا .. الله يرحمه .
قالت زبيدة : ياعينى نفسه مقطوع .
قالت زينات : يمكن مايروحش النهارده .
لما انتهين من الشراب ، ركن الزجاجات الفارغة تحت كرسى الخشب الطويل
قال ياسر : اطلع أشوفهم عملوا ايه حنده لكم من فوق .
قالت زبيدة : الرجل نام على الترابيزة .
قالت زينب : شفت راسهم بتطل علينا من ورا العمود .
سألت زينات : فين ؟
قالت زينب : فوق .

النبأ العظيم :

قالت الخالة لبنات الأخت : لم تكن مفاجأة لما علمت برحيله ، كان يبين على وجهه أنه عمل عملة كبيرة ، لكنها المسكينة لم تصدق نفسها حين وجدته أمامها فجأة يسد فراغ حجرتها المفتوحة ، على بدنه القميص الأبيض الخفيف ، وبيده حقيبة السفر ، وسمعت من مكاني أصوات الحياة تصخب في دمها ، بل أحسست بسريانه الحار على وجهها ، وكنت اظن أن دمها قد فسد ، وعروقها صارت سلوكا مصمتة ، لا شيء فيها « ازيك يازبيدة » ولم يقترب منها وقعد على الكنبة الى جوارى ، وكنت مشغولة بعصر البرتقال في دورق كبير ، احرجت منه وللمست بعشرة خلقاتي : حمد الله بالسلامة يا أخوى . ونزلت افترش الأرض ، وهى حبست دمعتها ، وراحت ترنو اليه ، وتجمع ملامحه ، وهو ظل منكبا راسه الى الأرض يدوس سيجارته المطفأة ، يفركها بعنف كأنما يتخلص من حشرة مؤذية ، ولامته على قدومه المفاجيء : كنت ترسل الى لتعلمني بمجيئك لأهيىء لك المكان فأنت كما ترى فوضى .

وكانت تريد أن تقول : لم يكن من المفروض أن يرانى على هذه الصورة .

ورأيت يدها تسبقها الى بقايا المرآة المركونة على أرض النافذة ، واعتقلت رغبتها فهى تدرى أن شعرها منثور ، لم تمرر عليه مشطا من وقت طويل ، ولونها شاحب يعلوه الاصفرار ، وفي هذه اللحظة صارت قوية ، استطاعت النزول عن السرير لتكون الى جواره ، من أين وأتتها هذه القوة ؟ ورفعت الغطاء عن ساقها ، ونهضت اليها : قولى عاوزه ايه ولا تنزلى عن سريرك . وصرخت في وجهى : انا مش عليلة ، ليه مصرة تعاملينى كأني قعيدة . واردت الخروج بظهرى الى الصالة ، فمالت على لتقول بحنية : يا خالة أنا لا أقصد اهانتك ، انت تدلعينني زيادة عن اللزوم ، بصى .. خذى .. ارسلى امرأة من الطاحونة لتشترى لنا جوز فراخ كمال يحب طبيخك ودائما يشكر فيه ، مش كده ياكمال ؟ وهز راسه دون عناية ، وقال كالهمس : لا تتعبى نفسك ، ولا تتعبى خالتك معك .

ودخلت زبيدة حجرة الجلوس ، فتحت النافذة لتدخل شمس الصباح التى تتراقص فى الشارع على ايقاع الوابور ، ونفضت « الكليمات » المفروشة على الكنب وازالت الغبار المتراكم على حافة المساند البيضاء ، وجعلت الطاولة وسط الحجرة تماما ونظفت منضدة السجائر بذيل الروب .

قلت لها : لا تتعبى انت نفسك ، آقعدى مع جوزك وأنا اعمل كل حاجة .

وندهت على كمال : تيجى هنا أحسن ؟

كانت تريد تخليصه من ظلمة الحجرة ومن روائحها المريضة ، ولكنه لم يجب نداءها ، فذهبت اليه ، ردت الباب وراءها ، وسمعتها تقول له : غير هدومك الأول : معك بيجامة والا اجيب لك جلابية من بتوع يسرى ؟ قال : معى بيجامة .

وسمعتها تتكلم بلهوجة : ماأخبار اسكندرية ؟ عاملين ايه الجيران ؟ أظنك تعبت شوية ؟ معلش ياحبيبى ، تصدق ممكن أرجع معك .

وهو لم يجب ، ويبدو أنه ظل منشغلا بتغيير ملابسه ، لأنى سمعته يصيح فجأة : أعلق الهدوم دى فين ؟

ورأيت سمرته تتضح مع بياض البيجامة ، ولمعت هذه السمرة على ضوء الضلفة المفتوحة واستأذن فى دخول الحمام ، وانتهزت هى الفرصة لتبحث عن حقيبتها ومرآتها ، واخرجت صباع « الروج » ، ودهنت منه خفيفا على شفتيها ، ومررت البودرة على وجنتيها ، وعلى عجل شدت شعرها الى الوراء ، وعقدته بشريط أحمر ، وسحبت الجلباب ذا الورد الصغير المنقوش على الصدر ، وارتدته بسرعة ، وسألتنى ايه رأيك ياخالة ؟ قلت لها : وردة مفتحة ، قالت : هذا لا ينفع لابد من حمام ساخن ، وقالت : شكراً ياربى على هذه القوة التى بعثتها فى بدنى .

وسمعت كحته مقبلا من جهة الحمام ، فخرجت من الحجرة لأعد وجبة الغداء المطلوبة وأعود الى دارى لأخلى للزوجين المكان .

●●●

وفى الصبح بعد أن غادر الدار قالت زبيدة لنفسها : لم أكن أدرى أن هذا الخائن يحمل لى جرعة السم هذه فى جيب خفى ، ويظل متآمرا طول النهار ، ويتهرب من أسئلتى ، ويوارى وجهه عنى

منغلقا على سره . ويتركني اعد له نفسي ، وأفتح له أحضاني ليصب جرعته بلا رحمة ، وبيد عمياء طائشة في قلبي مباشرة ، ليخمد دمي، ويعود ليبوسته الأولى ، وكنت لما رأيته في بيجامته البيضاء يتحرك فوق « الخدوجة » الخفيفة في ردهات الدار ، قلت : ها هو يعيد أيامه الماضية .. بعد المغرب سيجلس على احدى الكنبات ، تحت بريق المصباح واضعا منديله الأبيض المكوى على فخذه ، يدخن السيجارة تلو السيجارة ، ويستقبل القريب اثر القريب ، هذا عمى ، وهذا خالى ، وهذه خالتي ، ويحوط به الجميع ، وبعد الزيارات يشعل النار في المنقد الصغير ، يرص الحجارة ، يدخن وحده خمسة ، عشرة ، عشرين ، حتى يستكفى ، وأنا وأمي حوله ، نقشر البرتقال ، أو نراعى القهوة على وابور السبرتو .

وندخل حجرتنا ، وتدخل امي حجرتها .

وحين يصادف وجود يسرى يهلل لمرآه ، ويجلسان حول النار ، لا يكفان عن ترديد النكات ، هذه نكتة قاهرية ، وخذ عندك نكتة اسكندرانية ، ويضحكان واضحك معهما ، وتبتسم أمى وتقول : والله ما أنا فاهمة حاجة .. ربنا يروق بالكم .

ويقول يسرى : مش مهم تفهمى المهم تضحكى .

لكنه هذه المرة . وبعد ما عاد يسرى من عمله ، حاول ان يتفاداه ، أكل لقمة سريعة ، وادعى انه يريد أن يمدد جسمه قليلا ، قلت له : السرير معد فقد غيرت الملاءات واكياس المخدات ، قال انه لا يريد النوم ، مجرد فرد طوله قليلا ليريح جسده المرهق ، وعزم عليه يسرى بأن يغلق عليه حجرته الاخرانية ، حيث لا حس ولا خبر، ولا شيء البتة يمكنه أن يقلق منامه ، وأصر على النوم في حجرة الكنب .

وفي الليل أعد له «يسرى » الجوزة والنار ، وعزم عليه بنفسين ، وادعى أنه مقاطع الحشيش ، ولم يعد يخطر له على بال ، وأنا كنت عثرت على القطعة الملفوفة بورقة « السوليفان » في جيب البنطلون ، ودفعني هذا للتفكير « ماذا جرى له ؟ انه على غير عادته ! »

وارجعت هذا لقلقه على ، وللمدة الطويلة التى قضاها وحيدا وأنا بعيدة عنه ، فلابد أن يكون مرهق الأعصاب جدا ، وقلت ربما يعجل الاختلاء بى ، وسعيت الى السرير تتداعبنى البهجة ، واناادى جسمى ليسعفنى على احتمال هذه المتعة المنتظرة ، وانغلق علينا الباب ،

وتمددت على حافة الفراش ، وهو ظل على طرف الكنبة يمتص دخان السيجارة ؛ قلت له : اطفيء النور ، وتعال لتستريح ويكفيك السجائر التى دخنتها طول النهار .

وفوجئت بقوله : نامى انت .. واعطنى مخدة من عندك .

وقلت مستهولة : اياك بتفكر انك تنام وحدك على الكنبة .

ولم يجب ، فعاجلته والدموع تطفر من عينى : قلها بصراحة انت الآن تقرف منى . واشعل سيجارة اخرى ، وقال : يازبيدة لا تهولى الأمر ، انا أعصابى متوترة . قلت له : ابدا الموضوع فيه سر ، بح به وريح أعصابك .

— لا سر ولا يحزنون .. نامى .. نامى .

وغطست تحت اللحاف انهنه ، وجسمى كله ينتفض ، والدمع ساح من عينى وغرق الوسادة ، ولم يتحرك من مكانه ، وبعد فترة سمعته يقوم ليطفيء النور وسمعت صرير الكنبة تحته ، وهو يفرد جسمه عليها .

وكتمت أنفاسى مدعية الاستغراق فى النوم ، وكنت اسمع زفراته وهو ينقلب كأنما ينام على بصابيص نار مشتعلة ، ثم سمعته يحك عود الثقاب ، ويشعل سيجارة ينفخ دخانها مع تنهدات يجمعها من اعصابه المشدودة ، وسمعته يدوسها تحت قدميه بحدة ، وأخيرا شعرت بأصابعه ترفع شعرى المبلل بالعرق ، وينادى بصوت ضائع راشح بالدموع : زبيدة .. زبيدة .

وتصانعت النوم العميق ، وهو اصر على ندائه ، ولما وجدنى لا استجيب ، ادار وجهى بيده القلقة نحو وجهه ، وفتحت عينى لاجده راكعا على بلاط الأرض مائلا على قلت : ها قد ندم واشتاق كما كان يفعل فى الأيام الفائتة .

ولكن ياللهول وجدت دموعا تسح من عينيه فانتفضت جالسة ، وأخذت رأسه الى صدرى :ـ مالك ياكمال ؟

— أرجوك تكونى شجاعة ، وتقدرى موقفى .

وصرخ قلبى فى صدرى ، وسمعته يضرب بقوة فوق الضلوع ، وانحلت عقدة يدى حول صدغيه .

— انت عارفة احساس الرجل منا لازم يكون له ابن يحمل اسمه .

ونكأ جرحى القديم ، ذلك الجرح الذى دفناه معا بعد أن أعلن الطبيب أن قدرتى على الانجاب منعدمة ، وتحمل هو ذلك ، وقال :

ان حبنا لا دخل له بالانجاب والعيال وخلافه ، المهم أن نكون معا . ولم يعد ينبش الجرح المدفون أبداً .
ــ صحيح اتفقنا زمان على ...
ــ يعنى عاوز تتجوز ؟
ــ تجوزت فعلا .
ــ وجئت لتنعانى .. ومن سعيدة الحظ ؟
ــ « توحة » البنت الوسطى لأم « توتو » .
ــ أعز صديقاتى .
ــ لم تفعلها من باب الخيانة وانما دفعتها شهامتها لا حياء ...
لا تقل شيئا آخر .. عد الى مكانك ، ومن الغد ترحـل ، ولا ترينى وجهك .
وعاد ذليلا ، يتسلق الكنبة ، ويتنهد كمن القى عن كاهله الحجر الثقيل ، وانا عدت لاغطس فى اللحاف ، ولا قدرة لى على دفع السد الذى انهار فى عينى ، فيضان من الدموع . اردت امساكها لابــدو شجاعة ، ولم اقدر ، وتلفت اليه بعد هنيهة لاسأله : وانا ماذا قررت بشأنى ؟
ــ أنت الكل فى الكل ، مازلت زوجتى .. و و .. وحبيبتى .
ــ وهل تريد للزوجتين العيش معا فى الشقة ، أم ستؤجر لها واحدة ؟
ــ ولماذا نؤجر ياحبيبتى ؟ انت هنا فى بيتك وبين اهلك ، وأنــا انزل اليك بين الحين والآخر .
وبصقت فى وجهه بقرف ، وصرخت وأنا اجهد الا يصل صــوتى لأخى فى الحجرة المجاورة .
ــ اتخمد .. وكما قلت لك تعود من ســـكات دون أن ترينى وجهك .
وفى الصباح الباكر لم اجده فى مكانه ، وأسرعت الى الباب لأنادى على حسين الذى جاءنى مهرولا من داخل « فراكة » الرز ، وقلت له : هات الكاتب لأنى سأنفذ ما طلبت منى تلك الليلة .
قال : حاضر بعد الغداء نتفق .

حان وقت الموت :

ترك حسين الطاحونة بعد أذان المغرب بقليل ، واتجه الى داره ليغير خلعة العمل ويزيل آثار الدقيق عن وجهه وشعره وقفاه ، ورمى فى جوفه بقايا طبيخ الغداء ، وخرج مرة أخرى الى الشارع ، ولكن هذه المرة كان يرتدي الجلباب الصوفى الفخيم ، والبلغة اللامعة ، والطاقية البيضاء المكوية ، كان ذاهبا الى هذا الحى الذى انشىء حديثا على أطراف البلد بين « الكبانية » والبنك ، هناك كانت الشوارع الجديدة تتقاطع بانتظام ، تقام عليها عمائر من عدة طوابق : تطل شرفاتها علي شوارع رحبة ، تسمح لهذا الهواء المنطلق باللهو بالأوراق الكثيرة المتناثرة .

وانتظر طويلا على ناصية الشارع الفارغ الذى أغلقت ابوابه وانطلقت من نوافذه أصوات التلفزيون ، ثم مل الوقوف ؛ وقال لنفسه : ربما سبقنى الى هناك .

وطرق حسين على الباب الخشبى القصير المفتوح بوسط حائط منخفض يسور الحديقة الصغيرة فى مقدمة البيت ، وتتوزع على حوافه قطع الزجاج ، وتنام على ظهره أغصان خضراء ارتفعت من الداخل ، وأنتبه حسين الى الجرس المدقوق على جانب الباب ، وداس على الزر بسبابته ، فسمع الصوت الواهن ينادى عليه « ادخل » فدفع الباب بحذر وسار فى المشى قليلا حتى راى النور ينبثق من فرجة باب لحجرة أقيمت وحدها فى المساحة الفارغة أمام « الفراندة » تتسلق أعمدتها أغصان الليف واللبلاب . وراى صلعة عبده داود تبرق تحت نور المصباح .

ــ مساء الخير ياعم « عبده »

ــ أهلا . . مساء النور .

وقام عبده داود من مكتبه يضبط معطفه الكالح الذى لا يرفعه عن جسده أبدا ويعيد الطاقية الى مقدم راسه العارى .

ــ تفضل .

ــ لامؤخذة عاوزك فى موضوع بسيط .

ـ تحت أمرك .. تفضل .

وانفرد حسين على كرسي « الانتريه » الواطيء ، وعاد عبده داود ليقعد على « الشلت » الكثيرة التي ترفعه الى أعلى الكرسي فتسمح لطوله بالامتداد بعرض المكتب ، وتجعله يرى الزبون قريبا اليه ، وهو يطل بطرف من رأسه ، ويكون جسمه كله غاطسا فى الكرسي المنخفض ، ورأت عين حسين حين استدارت اليه الخريطة المساحية الكبيرة المعلقة خلف « عبده » ، ورأت ـ فوقها ـ صورة المسيح طفلا ترفعه العذراء على ذراع بضة بيضاء وعلى رأس كل منهما هالة من النور .

وأعاد « عبده » الطاقية الى الخلف فبرقت الصلعة مرة أخرى ، وعقد ذراعيه الطويلتين امام وجهه ، وبدأ ينصت لـ حسين .

ـ انت تعرف ان عمى ابراهيم لم يترك وريثا له غير ولد وبنت .

ـ الله يرحمه .. كان حبيبى .

ـ البنت عادت من الاسكندرية بعد ان غدر بها زوجها ، وهى الآن قعيدة الفراش ، وأيامها على الدنيا معدودة ، وتريد كتابة كل ما تملك لأخيها الوحيد لترد على زوجها ، الصاع صاعين .

ـ عندها حق .. لكن لا يجوز الوصية الا فى الثلث .

ـ تريد كتابة أملاكها بيع وشراء .

ـ فى هذه الحالة لابد وأن يعجل أخوها بتسجيل هذه الأملاك لأن حضورها واجب

ـ بالتأكيد .. وعلى كل سوف تعرف الموضوع بالتفصيل .

ـ قبل كل شيء تشرب قهوة ؟

ـ لاداعى لهذا .. تحيتك مردودة .

وظهر يسرى فجأة فى نور الحجرة ، ولم يكونا قد انتبها لصوت أقدامه تدوس الورق الجاف فى المشى ، سلم على « عبده » وقال لـ حسين : سمعت صوتك من الخارج ، وقال له حسين معاتبا : انتظرتك طويلا ولكنك تأخرت .

ـ كنت أبحث عن العقود فهى مدفوسة من زمان بين أوراق كثيرة .

ووقف عبده داود ليدخل رأسه فى النافذة الصغيرة المطلة على الحديقة وينادى : بت يا تريزة .. ياتريزة .

وسمعا صوتا أنثويا نحيلا يرد من بعيد : نعم يابابا .
ـ اعملى قهوة يابنت .
ـ كم فنجان يابابا ؟
ـ اعملى ثلاثة .
واستدار اليهما ليلعن التلفزيون الذى هرش أدمغة الصبايا اللائى صرن يتركن ما بأيديهن ليفرغن للفرجة على المسلسلات .
وأجابه حسين : كل البيوت هكذا .
وقال يسرى الشوارع الآن فارغة .. الكل يتفرج .
وجمع « عبده » أطراف معطفه مرة أخرى وقال ساخطا : آخر زمن .
واشار حسين الى يسرى الذى يجلس على الكرسى المقابل ليخرج العقود حتى يطالعها الكاتب .
وفرد يسرى الأوراق على المكتب ، وراح « عبده » يرفعها الى عينيه مستعينا بالنظارة التى وضعها على أطراف أنفه ، وقال : يعنى البيع سيكون فى الدار والطاحونة ، أرض الاصلاح الزراعى لا يجوز بيعها رسميا .
وقال حسين : سنكتب بها تنازلا حتى اذا وزعت الحكومة عقود الملكية تصير من نصيب يسرى .
ـ لا أدرى ان كان هذا ينفع أم لا ؟
ـ سنكتبه من باب الحرص لا غير .
ـ الحكومة كل يوم فى حال ، مرة تقول اراضى الاصلاح ستوزع وفقا للتوريث الشرعى ، ومرة تقرر بأنها ستكون للأفراد المذكورين فى البحث .
وقال يسرى : حسين باع من قبل ، وانا بعت نصيبى منها بعقد ابتدائى والحيازة مازالت باسمى ، فمقدار ما ستتنازل عنه « زبيدة » ١٦ قيراطا فقط .
قال حسين : لا تحاول أن تفهم عملك « عبده » هو يحفظها بالمتر .
وابتسم « عبده » وقال مفاخرا : كم مرة قستها بالقبضة أيام المرحوم . وصمت « عبده » قليلا ، وبدأ يزحزح الطاقية الى الوراء ، ويمرر اصابعه الطويلة على الشعر الخفيف ، واستغرقه النظر فى الورقة التى ترتعش أمام عينيه ، ثم سألهما : اظن يا يسرى نصيبك فى الطاحونة مؤجر لعمك الحاج؟

ـ انا لا احصل على شيء منه .

وقال حسين : حرام عليك لا تظلم الرجل .. الم تحصل على ثلاثين جنيها آخر الشهر

ـ هو يأكلها من جذورها .. انت على نياتك ولا تعرف شيئا عن الايراد .

ـ ياسيدى منه لله لن يأخذ شيئا معه الى قبره .

ركن « عبده » الورقة على جنب ، ورفع الأخرى أمام عينيه ، وقال : انا اذكر انى كتبت لك عقد بيع وشراء لاختك فى هذه الدار من قبل .

ـ ستعيد الى ما اشترت وفقا لعقد جديد .

ـ انت لا تملك من الدار غير نصيبك من ثمنة امك .

ـ بالضبط .. فمجمل الأمتار التى ستذكر فى العقد الجديد ١١٠ أمتار نصيب « زبيدة » من أبيها وأمها وما اشترته منى .

وبدأ « عبده » يفرد أوراقا بيضاء امامه ، وأمسك بالقلم وطفق يخط به ناظرا بين الحين والآخر الى العقود المنشورة امامه أو رافعا رأسه ليسأل يسرى عن شيء غمض عليه ، حتى دخلت البنت الصغيرة ترفع صينية القهوة بين يديها ، كانت ترتدى الجلباب المربوط بحزام الى الوراء ، وتدلت من رأسها ضفيرتان رفيعتان من تحت اشارب أصفر عمق شحوبه وجهها النحيل ، وضعت الصينية على الترابيزة القصيرة ، وقالت : عاوز حاجة يابابا ؟ ولم يرد عليها ابوها الذى انحنى رأسه بشدة على الأوراق ، وتجمدت سحنة وجهه المزموم الفم ، واتخذ ملمح الوقار وكأنما ذهب الى عالم آخر فرض على الحضور قدسية الصمت ، وعادت البنت بظهرها الى الخارج ، ولم تكرر سؤالها ومد حسين يده الى الفنجان ، وأشار بعينه الى يسرى ليرفع فنجانه ، ورشف يسرى الوش بصوت مسموع ، وزغر له حسين لائما ، والرجل سقط منهما تماما ، ونسى وجودهما ، وظلا على كرسيهما مدة طويلة ، يتحرك الكلام بصدريهما ولا يقدران على التلفظ به على الألسنة ، وبردت القهوة فى فنجان « عبده » ، ومنع يسرى نفسه أكثر من مرة ، كانت رغبته لتنبيهه الى القهوة قوية جدا ، وأخيرا غامر بالقول : قهوتك بردت ياعم « عبده » . فبحلق اليه الرجل من تحت عويناته ، وعاد الى أوراقه وكأنما لم يسمع شيئا حتى انتهى تماما من الكتابة ، فوجه

الحديث الى الرجلين : بص ياسيدى .. العقد جاهز على التوقيع . طبعا كتبت عقدا اجماليا .

وقال يسرى : كنت أريد عقد لكل شيء على حدة .

وقال « عبده » مكشرا : لا فرق .. المهم توقيعها على ماكتبت ثم الاسراع بالتسجيل .

وتدخل حسين لينبه الكاتب بالطلب الآخر : لو تكرمت تكتب لنا اقرارا بانه لا يجوز لـ يسرى التصرف فى هذه الأشياء الا بعد وفاة اخته .

وقال يسرى مؤيدا : طبعا لازم تضمن حقها .. اشرب قهوتك الأول .

ورفع الفنجان الى الرجل الذى اخرج منديله الكبير من جيب المعطف ، وراح يمسح به حبات العرق التى تجمعت على الصلعة المضيئة .

رفع « عبده » الفنجان الى فمه مرة واحدة ، وسحب ورقة اخرى ، واستعاد حالته الأولى ، وساد الصمت فترة طويلة حتى عاد « عبده » من استغراقه ، ورفع الورقة الى عينيه ليقول : بص ياسيدى .. انا تركت فراغا على يسرى أن يملأه وفقا لبيانات بطاقته العائلية .

وطلب حسين ان يقرا عليهما الرجل صيغة الاقرار ، فرجع « عبده » بظهره الى الوراء ، ونشق الهواء بطاقتى انفه ، وسكت مدة يتأمل الورقة ، ثم قال : بص ياسيدى ..

وراح يقرا الجمل باستمتاع ، يتخلل القراءة وقفات لينشق من الهواء نشقة طويلة ثم يعاود القراءة ناظرا اليهما من فوق الورقة ليتأمل وجهيهما ، ويقاطعه حسين ليقول : الله ينور عليك .

ولما اختتم القراءة قال له يسرى : تسلم يدك .

ومد يده خفية الى حسين ليعطيه حق الرجل

وسأل حسين كم ياعم « عبده » ؟

ــ من غير حاجة .

ــ خيرك سابق .

ومد يده بالفلوس المطوية ، فردها « عبده » بين أصابعه ، ثم القاها باستنكار جهة حسين : والمسيح الحى لا ينفع ... ناس غيركم آخذ منهم فوق المائة جنيه .

ـ أنت أخذت على عقود الطاحونة مع اخوتى نفس المبلغ .

ـ كل يوم الدنيا فى حال .

وطلب حسين من يسرى أن يضيف خمس جنيهات أخرى ، وقاطعه « عبده » وهو يدفع الفلوس بيده المتوترة جهته : ورحمة ابيك الغالى لا ينفع .. أريد على هذه الفلوس ثلاثين أخرى .

وقام حسين وقام يسرى معه ، وقال « عبده » : خذوا الورق والفلوس واعتبروها خدمة .

ـ كتر الف خيرك .. هات يا يسرى عشرة جنيهات .. ولا تطلب اكثر من هذا .

ـ الأمر لله ..

ودفس المبلغ فى جيب معطفه ، وقام ليسلم عليهما ، ومال برأسه على يسرى هامسا : اجعلها تمضى هنا فى هذه الفراغات ، ومن الصبح تطلع على الشهر العقارى ، لأنك لو تأخرت وحصل القدر كانك ياأبوزيد ماغزيت .

ـ شكرا ياعم « عبده » .

وغادرا نور الحجرة ، وسبقهما ظلهما فى مستطيل النور الساقط على ممشى الحديقة ، ولفهما ظلام المساحة الفارغة المواجهة لمدخل البيت ، وخرجا الى الشارع النائم يسيران تحت مصابيحه التى توزع بقعا باهتة من الضوء .

حلم الاب :

رفع حسين ذيل جلبابه خوف النجاسة ، وركل الحمار الواقف تحت الجدار قبل أن يدس وجهه بين قضبان النافذة المطلة على الحوش ، نادى بصوت هلوع : يا حسان . ففزعت المراة الجالسة خلف باب الحجرة ، لمت ثديها الكابس على وجه الرضيعة ، وقامت تحملها بذراع واحدة ، وبالآخر فتحت الضلفة المغلقة ، وردت : من ؟

ولما تعرفت على شبح الوجه الغارق في ضوء المغرب : قالت : تعال .

قال لها : حسان موجود ؟ قالت : نائم .. افتح له الباب ؟

فقال متسرعا : ايقظيه .. عاوزه في كلمة .

رجعت بظهرها لتفتح الباب العريض الذى احتك بالبلاط ، فجعل حسان يتقلب على جنبه تحت الغطاء ، ودخلت الحجرة المكدسة بالسرير والتسريحة والدولاب ، انعكست صورتها على مرآة التسريحة المحوطة بصور عرسها ، كان حموها ـ قبل وفاته ـ يجلس مبتسما بين أولاده ، وهي في فستان الزفاف الأبيض بين ذراع حسان الذى غطى بكتفه مساحة كبيرة من صدر الأب العجوز .

رفعت اللحاف وملست على وجهه العرقان ، ونادت بصوت خافت : حسان .

فتح عينيه المحمرتين ، وقام بشعره اللاصق بالجبهة ، قال مرعوبا : ايه ؟

وبهتت في عينيه ملامح الأب الذى كان يفر منه فوق سريره العالى فاردا كفيه على ضلفتي الدولاب المحفور في الحائط والذى يحفظ فيه ماله وأوراقه القديمة كان يمنعه من فتحه ، وهو يهجم على الأب بسكين عريض لامع ، وكأن الأب يدفع في وجهه كفا نحيلة معروقة متصلة بزند عظمي ضعيف ، شده منها فانكفأ الأب على وجهه ، وطارت عمامته بعيدا على الأرض ، وهو استطاع أن يتسلق السرير ويصبح فوقه تماما ، وصار الوجهان متقابلين يبثان حقدا وكراهية .

قالت : أخوك عاوزك .

فلم يهتم وتثاءب وهو يريد العودة الى الغطاء ، وتساءل في سره : معقول ؟ أنا افعل هذا في أبي !

وظل خفقان قلبه يهزه بعنف . وتساءل من جديد : متى تنزاح عني هذه الكوابيس المقلقة ؟

قالت له تستحثه حسين واقف على الشباك ٠
رمى الغطاء بعيدا وقام متكاسلا ، دفع الباب العريض فظل يحتك بالبلاط حتى ارتاح على ضلفة الدولاب ، وضع يده على عينيه حين واجهه النور ، واقترب من النافذة ليستند على أرضيتها ، وحسين دفع وجهه بين القضيبين ، وبدأ يحادثه : صاحبك فتح المية على الأرض البور ٠
طار النور من عينى حسان وصرخ : نهاره أسود ٠
وسأله : الم تكلمه ؟
ـ عملها بالليل ٠
وازدادت الحمرة فى عينى حسان وسأل متحيرا : والعمل ؟
ـ يبقى الوضع على ما هو عليه ٠
وتطلع حسان بعينيه الى بعيد ، فلم ير غير الشعاع الأصفر الساقط على جدار الدار المقابلة ، وقال : قتله حلال ٠
وقال حسين : تسكت أو نطلب حراسة على الأرض ؟٠
وتركه حسان واقفا ، ودخل حجرته ، سحب الجلباب المكوى من الشماعة ، والتقط صورة أبيه بجانب عينه . فشعر بالخجل ، وأراد أن يمنع كلاما يحوم فى ضميره فلم يقدر ، فقال بصوت سمعته زوجته الجالسة بالصالة : سابونا للغلب ٠ وكان قد نسى أن يغسل وجهه ، فعاد الى الصالة ، واصطدم بساق زوجته التى اعادت فتح صدرها للبنت ، وسألت : خير ؟ فلم يرد عليها ٠ وبدأ يرش الماء على وجهه ، وكلمت الزوجة نفسها : يارب ٠٠ الفرج ٠٠ دخلت هذه الدار لم أر يوما يسر قلبى ٠
وعاد ليدخل الحجرة واضعا الفوطة على وجهه يجفف بقايا الماء، فداس طرف ركبتها ، وكاد أن يسقط على جنبه ، فدفعته بذراعها صائحة : حاسب البنت ٠ فركلها فى ظهرها : وسعى ٠
فتزحزحت الى الحائط ، وواصلت الحديث فى سرها : وكلما دخل على الليل أنام خائفة من سقوط سقفها القديم ، سيأتى علينا صبح يرفعوننا من تحت الانقاض جثثا ممزقة ، وهو يؤملنى ببيع الأرض لنبنى البيت الجديد الذى لن يبنى أبدا ٠
ودخل الحجرة يرتدى الجلباب : وقف ينظر فى مرآة التسريحة متفاديا النظر الى أبيه القاعد بين العروسين ، وكلم نفسه : تعطيل جديد ربنا وحده يعلم مداه ٠
وخرج من الحجرة مندفعا الى الباب الكبير ، ولم يلتفت الى نداء

زوجته : ماترحلوش ، وشد الباب وراءه ، فاهتزت الحوائط ، وتردد صوت السقاطة في خبطة وحيدة زاعقة ، فصرخت البنت فاقعدتها الأم على فخذها ، ولأن الثدى الخارج من فتحة الصدر انسحب ـ فجأة ـ من فمها وظل يقطر اللبن الدافيء على صدغها بكت البنت ، فراحت الأم تربت عليها ، وتهز فخذها فى هدهدة رتيبة تسكت الصراخ الذى ارتفع •

***

قال حسان لأخواته البنات حين اجتمعن عنده فى الدارالكبيرة: خرجت من حجرتى وأنا لا أرى شيئا أمامي ، كل ما يهمني العثور عليه ، وامسك به لأزنق رأسه الى حائط من الحجر ، واظل ادفع به ، ادفع به ، حتى اصفى دمه النجس ، لقد طاش عقلى لما علمت أنه فتح الماء فى نصيبنا من الأرض ، وكنت من قبل لا اطيق أن اراكن تتجمعن فى قاعات المحاكم خصوما لأخ مات قلبه ، وكما ترون الدار انهالت حوائطها ، وطقت عروق سقفها ، ولا اقدر على بنائها حتى انهى موضوعنا المعلق ، خرجت اليه وأنا اخفى السكين الذى اختطفته خلسة ، وكنت أخشى أن يضطرنى لاستعماله ، ولكنى قلت : الحرص واجب •• ولو تطاول معى أكثر من اللازم ، ولو فلتت منى الأعصاب لا مانع عندى من ضربه فى أى مكان من جسده •

ووجدته ـ بعد أذان العشاء ـ عند « الشامى » ظهره الى الشارع ، وينحنى بكتلته الكبيرة فوق « البنك » يحادث صاحب المحل • قلت : هذه فرصتى لآخذه على غفلة والقى به من فوق الطوار •

وضبطت أعصابى ، وقلت : سيلومونني الناس ويتهمونني بالغدر •• فلابدأ معه بالتفاهم الهادىء • واقتربت منه ، وشددته من ياقة جلبابه ، فانتفض لمرآى وبلع ريقه ، و « الشامى » وقف متحفزا ومأخوذا ، وسألته : لما فتحت الماء فى الأرض يا حسن ؟

واجابنى وهو يضغط بشدة على أسنانه ويحاول أن يبدو متماسكا بينما الرعب يطل من حدقتيه متحسبا للضربة المفاجئة تسقط على رأسه ، وهو يعلم أنى قادر على فعلها ، واجابنى : هذه أرض أبى كما هى أرض أبيك •

وقلت له ولكننا يا حسن دعونا أكثر من مرة لتأخذ نصيبك وأنت كل مرة ترفض وتماطل •

واجابني ببجاحة ، وهو في الحقيقة كان يعبر عن اضطرابه وقلة

حيلته فى البحث عن رد مناسب : لا تقسـيم الا بعد أن احصل على نصيبى من أمى .

وقلت له : وهل كان لأمك نصيب يا حسن ؟

قال وهو يدير لى ظهره : مال حرام وأرضاه على نفسى .

ولم ادر ماذا فعلت بعد ذلك ، حين انتبهت رأيته ملقيا على الأرض والدم يسيل من فوق حاجبه الأيسر ، وأنا بركت عليه و « فين يوجعك » على رأسه وعلى فكه ، وفوق عينيه ، ولا ادرى ماذا كتف يديه ، فانطرح بجسمه مفكوكا كله ، يرفع يده فقط ليمسح قطرات الدم السائلة ، و « الشامى » انحشر بيننا بجرمه القصير يحاول دفعى بعيدا عنه ، والتم الرجال الموزعون على كراسى المقهى القريب ، وهرعت النسوة من الدور المجاورة ، واطلقن الصوات ، وسمعت واحدة تسأل الاخرى عن هذين المتعاركين ، فتجيبها المرأة : اخوه يا ضنايا . ولا ادرى ما الذى دفعنى لمواصلة الشجار مع ابنه الذى جاء من آخر الشارع مصحوبا بأمه التى قدمت حسيرة الرأس تجرجر شاشها وراءها ، وعياله الصغار تجمعوا حوله ، بعد أن اجلسه الرجال على الكرسى الصغير أمام المحل ، حاول الولد الاقتتال معى ، وأنا صرخت فى وجهه : لو رجل تقدم ..

وشدنى الرجال الى الشارع العمومى ، وشده الجيران الى الخلف ليعيدوه الى داره ، وبعد أن تركنى الرجال ، عدت وحدى ، وجلست منفردا على المقهى المواجه لسكة الحديد ، اداري وجهى بكمى ، وانفلت منى الدمع الذى تفجر بعنف فى صدرى لما برزت لى صورة الأخ المطروح على الأرض عاجزا عن مقاومتى .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الى العزبة لاعاين الماء الذى اطلقه فى الأرض فرأيته هناك تحت التوتة التى يربط تحتها بهائمه ، وكنت قد قصفت عودا من صفصافة قابلتنى فى الطريق ، لا لشىء الا الرغبة فى الامساك بعصا بين يدى تؤنس وحدة الطريق .

وهو حين لمحنى على رأس الغيط ظلل وجهه المربوط بشاش أبيض ليتأكد من شخصى ، فسخرت منه فى سرى ، وقلت لنفسى : وما الذى يدفعه لظلم اخوته طالما هو جبان الى هذا الحد .

وسرت بطول القناة التى تفصل ما بين أرضنا وأرض « الحاجة » ولما اقتربت منه رأيته ينحنى على المنجل ويقف بانتظارى مرتديا الصديرى على القميص الأبيض الذى يبرز منه السروال الطويل ، ولم يكن فى نيتى أن افعل شيئا على الاطلاق ، وقفت أمامه وهو وقف على

الجهة الأخرى مصدرا المنجل نحوى ، وقال : والله ان اقتربت لافصل رأسك عن جسمك وادفنك هنا بالحياة ·

فاطلقت ضحكة السخرية ، وقلت له مســـتهزئا : ولماذا لم تظهر هذه الشجاعة بالأمس ؟ وتأملت وجهه المربوط والبقع الحمراء الراشحة من الشاش ، وأكلني قلبى ، ولانت شجاعتى ، واتضح لى أن الشخص الذى أمامى هو أخى ، ابن أبى ، وهو الآن يخشـانى ، والرعب ينفض بدنه منى بينما فى صغرى كان يســـتطيع أن يرفع يده الكبيرة هذه ويصفعنى على وجهى، ولا أرد عليه ، ولكنى وجدته يصاعد شجاعته ويبدو أمامى متماسكا وقويا فسب أمى قائلا : يا ابن أم قملة · فوجدتنى أرد عليه بسبه أقبح منها : لو كانت أمى بقملة ماتزوجها أبى على أمك ·

وانتبهت الى أنى أسير وهو بمحاذاتى على الجهة الاخرى يتفادى عثرة الحجارة الكبيرة المنثورة بطول القناة ، ووجدته يقـــول : ابقوا هكذا على عماكم يقودكم حسين وانتم لا تدرون شيئا ·

وسألته : لا ندرى شيئا عن ماذا ؟

فقال : انكم لا تدرون أنه يأكل رزقكم أولا بأول ·

واجبته قائلا : طالما أنت تعرف ذلك لماذا لا تجىء من تلقاء نفســك وتنصحنا ؟

ـ كيف إنصحكم وأنا اراكم مسوقين له مسلمين له عقولكم ·

ـ ان لم يكن من أجلى من أجل ياسر اخوك الاصفر من أجل البنات مكسورات الجناح ·

ـ عندى ما يثبت أنه يسرقكم عينى عينك وأنتم لا تدرون ·

ـ وكيف اتأكد من كلامك هذا ؟

ووجدتنى اعبر القناة اليه · ولم يـــكن فى الأرض البراح غيرنا وبعض الفلاحين الذين انحنوا بعيدا على أراضـيهم يزرعون أو يقلعون ، وانشغل حسن برفع الطوب الكبير من تحت التوتة ، وقعد مربعا ، وكان قد ألقى المنجل بعيـــدا فوق كومة القش القريبة من البهائم التى تمددت تحت شمس الضحى تجتر باستســـلام وقعدت الى جواره ، وسحبت علبة الســـجائر من جيبى وعزمت عليه بواحدة ، واخرج هو علبة سجائره وعزم على ، وأخذ كل منا ســـيجارة الآخر ، واشار الى الشريط المربوط على رأسه وقال : يعجبك هذا ·· تفـــرج علينا « اللى يسوى واللى ما يسواش » · قلت له : لأنك تســتاهل ·· تتسبب فى جرجرة اخواتك البنات الى الجمعيات والمحاكم وتعطل مصالحهن ·

ـ انا عملت هذا انتقاما من حسين ·

ـ انت تنتقم منا نحن لا من حسين .. ثم هل كفر حسين حين اراد شراء نصيب أبيك من الطاحونة ؟

ـ أنا لم امانع في هذا ، وعلى يدك بعث مثلكم : أنا اقصد « الفصل » الذى دفعنى للموافقة على البيع بالقوة ويصغرنى أمام أهل البلد وأنا فى نظرهم أهم عضو فى جمعيتهم الزراعية .

ـ ليست هذه بالحجة المقنعة ، المهم أنت تقول عندك ما يثبت أنه يسرقنا .

ـ قابلنى الليلة فى دار الحاج « أبو سـمكة » وأنا اثبت لك فى حضوره لأنه شاهد على ما اقول .

وقمت على هذا الوعد حتى التقيته بعد العشاء فى الدار التى حددها، ووجدته جالسا على احدى الكنبـات فى دار الحـاج ، ورحب الرجل مستبشرا بالصلح بين الاخوين ، وأمر جماعته بصنع الشـاى ثم عاد ليقعد بيننا ، وتحدث حسن قائلا : أنا لن اقول شيئا الحاج هو الذى سيتكلم ، قل له يا حاج ماذا يفعل بهم حسين .

ـ خلاص يا حسن انس ما فات خلينا فى النهارده .

ـ وحياة اللى زرته لتتكلم .

ـ يا حسن يكفى أن اخاك هنا وابدا معه صفحة جديدة .

ـ أنا عندى شروط ساعرضها عليه ولكن بعد ما يعرف ما فعله بهم حسين .

ـ والله يا حسان يا ابني هذه شهادة تدخل معى قبرى وقد سببت فى قطع عيش الرجل الذى يعمـل معى ، حين علمت أنه يؤجر جمل فى حمل محاصيل من أرضكم سألته هل هذه الاحمـال يعلم بها باقى الورثة ، قال انها تتبع حسين وحده قلت له انا لا ادخل دارى لقمة حراما ، وتحرم لقمتك عندى ، وطردته .

ـ وهل ما حمله كثيرا ؟

ـ كلام فارغ شوية ذرة ، وشوية قمح ، وكم غبيط تبن .

ـ ليس هذا كلاما فارغا يا حاج ، أنا لى نصيب فيه لأنى لم احصل على شىء من الأرض من يوم وفاة المرحوم ، وسأطالبهم بريع هذه الأرض من يومها حتى الآن .

وهذا أول شروطنا يا حسان .

ـ ماشى .. وبالنسبة للفدانين اللذين تدعى أنهما لأمك .

ـ هذا حق الله ، ولا رجعة فيه ، اذا كان هو لا يريد ، واذا كانت أخته لا تريد ، أنا اريد ، نخصمه من مجمل الأرض ، ثم نبدأ التقسيم .

ـ عرضنا عليك هذا من قبل لماذا الجأتنا لدخول المحكمة ؟

ـ العند يولد الكفر .

وقال الحاج : لعب الشيطان بعقله فترة .. والمسامح كريم ، يأخذ صبيه من أمه ويتنازل عن القضية . وحينئذ يحلله من نفســـه فهو حر أمام الله .

فوافقت على هذين الشرطين ، فما قولك في ذلك ؟

- ٨ -

السماء السابعة :

قالت الخالة لبنات أختها فيما بعد : أنا لم اقصر فيها أبدا ، كنت معها لآخر نفس ، سلمتها بيدي هاتين اللتين سلمتا للموت - من قبل - الأم والأب والأختين وهي لم تقاومه ، بل استقبلته بوداعة ، وقد عرفت وجهه من أول الليل ، وحددت ساعتها بنفسها ، وهيأت له روحها ، وكان وجهها - وهذه شهادة تدخل معي قبري - مضيئا كالبدر في تمامه •

وكانت الخالة - والحق يقال - معها لحظة بلحظة منذ الساعة التي ذهب اليها يسري ليستدعيها من دارها لحاجة أخته اليها ، وقال لها : ارجوك يا خالة أن تراعيها فعملي لا يسمح بالقعود الى جوارها •

ولفت الخالة وجهها بالشاش الأسود الكبير ، وارتدت جلبابها الحرير اللامع ، وجرت لحمها الكثير في شوارع البلد متجهة الى دار أختها ، وقد رفعت يدها عن عمل الدار وتركت زوجة أخيها قائلة لها : لا تعتمدى على كثيرا هذه الايام •

وكانت في قلبها تعرف أن هذا الرجل الذى حضر فجأة من الاسكندرية لابد وأن يكون حاملا للنبأ الذى سيقضي على ابنة الأخت المسكينة ، عرفت ذلك من سحنته الجهمة ، وعرفت أن في طيات نفسه سرا رهيبا ، ولا يمكن أن يكون حاملا للخير أبدا ، وقد اوسعت له ، ليبوح بسره •

وعلمت من زبيدة كل شيء ، وطمأنت خاطرها .

وقالت لها : لا تهتمي بذلك أبدا .. فهذا لا يعني شيئا ، كل الرجال يخطئون ثم سرعان ماينتبهوا لخطئهم ، فهذا أبوك - كما تعلمين - قد غلب أمك في بداية حياتهما وتزوج عليها ، وكلمت أمك طوب الأرض ، كانت تقضى الليل تشد شعرها ، وتمزع ثيابه المطوية في الدولاب حتى انتهت النزوة وعاد اليها خاضعا ، وأنت والحمد لله لا ينقصك شيء ، غدا يشفيك الله ويأتي هو على جدور رقبته ليستعطفك ويطلب منك العودة ، وتكون الاخرى قد انتهت من حياته •

ولكن زبيدة لم تحتمل الصدمة ، ولم تصدق كلام الخالة ، وشحب لون بشرتها وعلا الاصفرار وجهها ، وازدادت خطوط الشيخوخة عليه ، وهزل بدنها ، واهملت زينتها الحريصة على اتمامها كل صباح ،

ولم تقرب الماء ولو لتشطيف وجهها ولم تنظر فى مرآة قط ، ومن حين لآخر تلتفت الى الخالة فجأة لتسألها : انظرى يا خالة ·· هل أنا قبيحة ؟ .

وترد الخالة باستسلام ، وتقول مجاملة : قبيحة ! قطع لسان من ينطق بهذا ·· أنت قمر ·

وتروح زبيدة فى سرحات طويلة ممتدة ، ثم تتنهد وتفرغ زفرات صدرها العليل : ملعون أبو الدنيا ·· غدارة ·· تفووه ·

أو تقول فى وجه الهواء معاتبة : كدا يا كمال يهون عليك العيش والملح ، ولا تجد الخالة ما تقول ، ولكنها تعقب : يا أختى لا تتعبى نفسك يكفى ما أنت فيه بصى لنفسك ، وانسى ·

وتقول زبيدة بألم : انسى .. انسى عشرة العمر معه تهون عليه فى لحظة ويرفسها برجله ·

وعافت نفس زبيدة الطعام ، والخالة تقترب منها بالطبق به قليل من الارز أو بعض الخضار المسلوق أو بفخذ الدجاجة ولا تملك زبيدة الا أن ترفع يدها لتزيح الطبق بعيدا : لا نفس للطعام .

ـ يابنتى رمى عظمك بهذا الفخذ ، لم يدخل جوفك طعام من يومين·

ولا تجيب زبيدة تظل محملقة فى النور المندفع اليها من فتحة الباب ، وتظل على صمتها المهيب ، تنصت لفورة نفسها التى تغلى بمشاعر الحقد على هذا الغادر الذى القى حجره بصلافة فى مائها العكر ·

وتقول الخالة لبنات أختها : فى اليوم الأخير ذبحت لها الفرخ الشامورت وطبخت شربة الخضار الخالية من الملح ، وحاولت معها ، ولكنها اصرت قلت لها : ولو ملعقة شربة واحدة ·

احتست من طرف الملعقة ، ثم مجتها فى بصقة تتناثر رذاذها على صدرى ، واعقبته ب « ملعونَ أبو الدنيا » « وأبو من يتعلق بها » وطلبت نفسها النوم فنامت ، وكانت لا تشبع منه ، طالت ساعات نومها ، واجلس أمامها على الكنبة أتسمع لأنفاسها الممزقة وتنهداتها المحشرجة فأناديها باسمها زبيدة زبيدة فتلتفت الى من تحت الغطاء ذاهلة ، بعيون مضببة لم تعد ترى الدنيا ، فعرفت أنا الخبيرة بأحوال الموت وتحولاته بأن الساعة قد اقتربت ، زبيدة دخلت الملكوت . هذه ملامح أمى· واختى ، قد ركبت على هيكلها ، فعلى ان اكون الى جوارها، ولا افارقها ، وقامت لتبعد الغطاء عن ساقيها ، فتعرت أفخاذها الشاحبة، ومدت يدا مرتعشة تلملم اطراف الثوب عليها . وتدارى عريها ، وقالت : اسندينى يا خالة · فسحبت الوسادة وجعلتها وراء ظهرها ،

ورفعتها من تحت ابطها ، وزحزحتهـا الى الوراء . ورأيت تبحلق فى وجهي ، وكان شعرها الذي اصلت غسله قد تناثر على جبهتها ، وسقطت خصلة مبعثرة على الصدغين المبللين ، وانسحب المنديل وسقط الى الخلف وظل متشبثا بأطراف الشعر .

وقالت : يا خالة سأموت الليلة .

ـ بعد الشر .. لا موت ولا حاجة أنت أشـد مني .. وسأموت قبلك وستحضري دفني ان شاء الله .

فشخطت في وجهي بقوة ، وقالت : لا تأخـذيني على قدر عقلي .. سأموت الليلة .. الساعة الثالثة بالضبط ، فانصتي الي .

واقتربت منها ، وجعلت ذراعي وراء ظهرها ، ورحت ادلك ساقيها باليد الاخرى ، وقالت : معي مائة جنيه .. جعلتهم في صرة ، واخفيتها في هذه النملية ، ويسرى لا يعلم عنها شيئا ، فاجعليها لخرجتي ، واذا لم تكف ، معي هذا الخاتم ، وهذه الدبلة ، اسـحبيها من أصابعي وكملي المبلغ المطلوب .

واشارت الى ضلفة النملية ، وقالت : هناك وراء هذه الصـناديق ستجدين حقيبة قديمة سوداء ، هات منها الفلوس .

وقمت لاحضر لها الحقيبة ، وجعلتها على بطنهـا ، وفتحت غلقها ، ودست أصابعها تبحث بين الاوراق الكثيرة عن منـديل قديم معقود على لفة من المال ، عشرات كبيرة حمراء ، رفعتها بين أصابعها المهتزة ، وبدأت تعد عشرة عشرة ، وتمد يدها الى لاكرر العد ، وعينـاها على ثباتهما وحملقتهما في دفقة النور ، لا تنظر الى ما بين يديهـا لأن الحـدقتين جمدتا ، وانسحب منهما لونهما : وصارتا بيضاويتين .

وقالت : حطي الفلوس فى صدرك ، ولا تعلمي بها أحـدا حتى يتم المقـدر .

وقلت لها : حاضر من عيني .

وأعدت الحقيبة فارغة الى النملية ، وكان يسرى يقف وراء ضلفة الباب ، واشار الى بيده ، وقال همسـا : أنا يا خالة. فرفعت له السبابة الى أنفي ، وقلت له : هووش .

وكانت لا ترى أخاها المختفي والذى سـال ريقه للعشرات الكبيرة الحمراء .

وسألتني : هل أحد معنا في الحجرة ؟

وكذبت عليها : لا يا اختي .. لا احد .

وأشرت لـ « يسرى بظاهر كفى ليتحـرك من مكانه ويدخل الى

حجرته بآخر الدار ، فمر من أمام الباب ، وخفقت جفونها لظله .
على العموم هذه الفلوس أمانة وستسألى عنها أمام الله .
وقالت : انت تكذبين .. يسرى كان يرقبنا من وراء الباب ..
وقلت لها مطمئنة : فى الحفظ والصون .
فى أول الليل دخل يسرى حجرته ومعه النار والجوزة ، وقعد وحيدا بين السرير والدولاب يرص الحجارة ، ويشد الأنفاس ، ويسعل ، ويتردد سعاله بعيدا وخافتا بين الجدران السـميكة فيصل اليهما فى الحجرة الاخرى باهتا وضـالا ، كأنه قادم من عابر يعود وحيدا . الى داره بعد انقضاء سهرة الليل وبعد أن عمر رأسـه بالدخـان ، طرق يسرى باب الحجرة ليسأل الخالة ان كانت تريد شيئا ، وردت عليه زبيدة : اذهب أنت ونم وان احتجنا اليك سنستدعيك . وعاد بظهره دون أن يفتح الباب .
وظلت زبيدة على رقدتها بين الغطاء المنشور على بدنها الواهن ، تحت شحوبة المصباح الذى يفرش جدران الحجرة بنور أصفر ، وكان الذباب قد صنع من سلكه عنقودا أسود يتدلى من السقف ، وحام بعضه بين حوائط الحجرة المغلقة ، والخالة قابعة أمامها على الكنبة ساندة رأسها الكبير على يدها تتأمل زبيدة التى تقاوم النوم ، تستسلم له مرة ، ثم تنتفض فجأة لتقعد مربعة ، ظهرها نحو الدولاب المفتوح فى الحـائط المكدسة على أرضيته علب الدواء تبحث بعينيهـا التائهة عن الخالة ، فتقوم اليها لتأخذها بين يديها : عاوزة حاجة ؟
ـ تمتى ؟.
ـ أنا صاحية .
ـ عاوزة اقول لك حاجة .
ـ نعم
ـ خصيمك النبى لا تدخل على امرأة غريبة فى غسلى ، أنت فقط ، وان كانت واحدة من بنات خالتى تجرؤ على الدخول معك فاسمحى لها ، فأنا اخجل أن ترانى غريبة .
ـ حاضر .. من عينى .
ـ والكفن يكون من الحرير الأخضر .. الستان .. وتشترى زجاجة عطر غالية ، وتدلقينها كلها على جسدى .
ـ حاضر يا زبيدة لكن لا تفولى على نفسك ، أنت ستعيشين حتى تعودى الى شقتك ، فأنا لم اتصـور نفسى أبدا أن ارى موتك ، لاننى

سأموت وحيدة وأنت التي ستحضرين غسلي ، لاني لا ارضى أن تحضره زوجة أخي ، فأنا لا ارتاح اليها ، وليس لي غيرك .

ـ وتقولي لـ يسرى أن يفتح تربة أمي ليدفنني معها .. وارسلي تلغرافا لـ « كمال » على سبيل الواجب ، ولكن لا تأخري جنازتي حتى يحضر .

ـ حاضر .. بس ارتاحي شوية .

ـ أنا مرتاحة كدا .. اللقا يوم اللقا .

وتظل على حالها بشعرها المنكوش تدير بصرها في انحاء الحجرة كأنما تبحث عن شيء تاه منها ، وحين تجهد تمد طولها وتجعل وجهها جهة الحائط لتقوم مرة أخرى فتسحب المنبه من أرضية الدولاب وتبحلق في ارقامه، وتقول: الساعة الواحدة.. لسه ساعتين. وتنام، وتظل الخالة متكومة على نفسها في جانب من الكنبة حتى رأتها تقوم منتفضة لتحادث شخصا وهميا دخل عليها الحجرة : أهلا يا امه .. تعالى .. تعالى اقعدي جنبي .. ازيك .. مالك مكشرة ! أنت زعلانة ؟ أبوى معاك ؟ .. تعال يا آبا .. دي خالتي محدش غريب .

وقالت الخالة لنفسها : أهلا .. هم وصلوا .

وتفر الدمعة الساخنة من عين الخالة ، وتدرك أنها النهاية ، هكذا رأت أختها حين حضرتها المنية خيال الأب الراحل ، واحتضنت هذا الخيال بين ذراعيها بشوق ، وقبلت الهواء أمام وجهها ، وحادثته وحادثها ، ولم يذهب حتى أخذها معه ، وهكذا رأت أباها وهو يحادث أصحابه الراحلين ، يدخلون عليه ممتطين أحصنتهم المزخرفة السرج ، ويرفع ساقه من تحت الغطاء ليتشبث بظهر أحدهم ، ويصرخ فيه : انتظر حتى ألم شال العمامة فقد اطارها الهواء مني .

وسألتها الخالة وهي تكفكف الدمعة : من [illegible] الذي تحادثينه يا زبيدة ؟.

واجابتها بجدية وكأنها تستنكف سؤالها : هذه أمي ألا ترينها ؟

وتعود الى الحديث مع خيال الأم : هذه خالتي يا أمي لماذا لا تحادثينها ؟

وتعود فتنكمش تحت الغطاء متجمعة على نفسها .

وقالت الخالة لبنات أختها : وصحت مرة أخرى لتمسك المنبه بين يديها ، وتقربه من عينيها ، وقالت : الساعة الثالثة .

فصحت فيها مهللة : ها قد مرت الساعة الثالثة ولم تصدق نبوءتك .

ودعتني لانام الى جوارها ، وقمت لافرد ساقي المنعقدتين ولاتمـدد الى جوارها .

وقالت : احضنيني يا خالة .

فجمعتها بين ذراعي ، وقالت متنهدة : بالقوي يا خالة بالقوى .

فشددت عليها الذراع حتى كادت تنعصر . وقالت مرتاحة : الله .. خليك كدا ، ومكثنا على هذا الوضع حتى أخذتنى الغفوة عنوة ، وانتبهت على البرودة تسرى على أطراف أصابعي ، فصـــــحوت لارى يدى المهملة ساقطة على كفها التى جمدها البرد ونز منها العرق ، فصحت وأنا اهزها من كتفها : زبيدة زبيـدة !. ومددت اصـبعى لأسبل الجفنين ؛ وحمدت الله على أنهما طاوعاني وانسدلا ، وعرفت أنها انســحبت منى غفلة ، في هذه الغفوة اللعينة .

وندهت على يسرى بأعلى صوت ، وجاء يلملم ياقة جلبابه الذى يرتديه على اللحم : مالك يا خالة .. مالك .

قلت له : ارفع معي أختك لنجعلها على القبلة .

وكنت الوم نفسى حتى لا ارتكب خطأ يعـــاقبني عليه ربي ، فيكفى انها سرقت مني دون أن أرى صراعها الاخير ، فلا اقل من أن أجعل راسها على القبلة ، ورفع يسرى أخته من ساقيها ، وانفرطت دموعه على صدره ، ماتت يا خالة .. ماتت .

قلت له : لا داعى لهذا الآن .. ابق معها حتى انده على البنات .

وخرجت الى الصالة وصوت بـكائه يتردد فى نهنهة متقطعة ويملأ سكون الدار . وخرجت الى الشارع تخفيني شبورة الصبح السـاقطة على هيكل الطاحونة والتى تملأ الساحة الفارغة حولها ، وشققت طريقى الى حوش الحمير ، وأنا لا ارى ما أمامي حتى صدمت فى حائط حجـرة الميزان المنخفض ، وأصـوات المـآذن تأتينى من بعيد تتف للصبح الوليد ، وانتبهت أنى خرجت عارية الرأس ، لم التفت للشاش المفكوك على الكنبة أمامي ، وطرقت نافذة حسان فأجابتنى زوجته الغارقة فى النوم بصوت بعيد وخائف : من ؟.

قلت لها : صحى حسان .. زبيدة ماتت .

وسمعتها وهي تحاول ايقاظه وهو مسـتغرق فى أحلامه ، لا يريد الانتباه ويحادث رجالا مجهولين ويسب آباءهم لأنهم لا يكفون عن ازعاجه حتى استيقظ أخيرا ، وكنت قد انتقلت الى النـافذة الاخـرى لاوقظ زبيدة أم محمد التى قامت تبص من النافذة محلولة الشعر : فيه ايه يا خالة ؟

قلت لها : بنت خالاتك نعيش انت .
واخفت وجهها فى ظلام الحجرة .
ولما عادت مرة أخرى وجدتها وحيدة فى فراشها ، والغطاء انكشف قليلا عن وجهها حتى بانت منابت شعرها ، وجزء من الجبهة وحافة الغطاء تستر فوق الجفنين المنغلقين . ويداها برزتا من تحت الغطاء وحينما اقتربت منها لتعيد ضبطه عليها ، وجدت أصبعها خالية من الدبلة ، وسحبت يدها الاخرى ، فوجدت الخاتم قد نزع منها ، فقالت الخالة لنفسها : هكذا يا يسرى لم تصبر .

وعاد يسرى ليقف على الباب بعد أن غير جلباب النوم وارتدى جلبابا نظيفا يستقبل به الناس ، ونظرت اليه بلوم ، وهو توارى بوجهه فى المنديل ليمسح الدموع التى تسح من عينيه .

***

التعزيات

بعد الدفن وقف رجال العائلة صفا ، ومر عليهم المشيعون يسلمون عليهم ويقولون « عظم الله أجركم » فيرد الواحد منهم بصوت مختنق بالحزن « شكر الله سعيكم » .

ورفع النعش فارغا ، بعد أن طوى بداخله اللحاف والملاءة ، ونزع الخوص الأخضر عن رأسه ، ونثره أحدهم فوق المصطبة التى دفنت تحتها زبيدة ومكث الرجال أمام العين المسدودة بالحجارة بعد أن رشوا الماء على التراب . وانتشروا — جميعا — بين المصاطب ليقفوا لحظة أمام المقبرة التى تضم الراحلين من الأقرباء بينما تركوا أهل الميتة وحدهم .

وقف حسين وحسان ويسرى على راس المصطبة ، ووقف حسن الى جوار عمه الحاج على بين سور الحوش القصير ، امام الفتحة المبتلة ، وبنات الحاج محمد قطعن الجبانة بالعرض حيث يمررن على مقبرة أمهن الواقعة بالطرف الغربى ليقرأن لها الفاتحة ، واتخذن طريقهن من هناك حيث عدن معا الى البلد .

ويسرى سار بين ولدى عمه متجهين الى الطريق المسفلت ليعبروا من هناك شريط القطار ، ويهبطوا منه الى دورهم ، وقبل ان يهبطوا ودع الاولاد يسرى على مزلقان المحطة ، على وعد باللقاء فى المضيفة بعد آذان العصر .

وفى الطريق قال حسين لأخيه : مسكين لقد اضاع فرصته بيده .

واجابه حسان : ونحن أيضا علينا الا نضيع فرصتنا .. كان ينبغي ان ارد عليه اليوم وقال « حسين » : ليس هذا بالوقت المناسب .. الأيام أمامنا طويلة .

والحاج على ترك حسن على أول المقبرة لأنه عثر هناك على جار له ، وسار معه متأبطا ذراعه ، وعلى حين غفلة كاد الحاج أن يزغد جاره ويقول له كلاما انتبه على آخر لحظة ، وآثر أن يقـــوله لنفسه بعد أن تلفت أمامه ووراءه : يبدو أن الوقت قد حان لنوسع الدار ، لنعيد بناءها بعد عودة ابننا الغــائب فأنا أظن أن يسرى لن يلبث أن يتصرف في نصيب أخته ويرحل كلية عن البلد .

وحسن فضل العودة من جسر الترعة التي تدور حول البلد لأنه اقرب الطرق للوصول الى داره .

صار الآن وحيدا بين الزرع يمشي على جسر الترعة التي طفح ماؤها على بعض الطريق ، وانشغل عقله بفكرة أن حسان لم يقترب منه ، ولم ينتهز الفرصة ليرد على الشرطين اللذين اقترحهما عليه ، وبات يظن أن باقي الاخوة رفضوا شروطه وفي هذه الحالة ، تظل القضية مطروحة على المحكمة ، ونطر يده كمن يرجم ابليس بحجر قائلا لنفسه : هو حر . لكن نصيبي فى أمي لن افرط فيه .

واعاد التفكير في الامر ، وقال : ربما الوقت غير مناسب ، ولدينا ليلة طويلة فى المضيفة ، وحين لم يجبنى هذا اليوم سأعتبر ذلك ردا فى حد ذاته .

وفى نفس اللحظة كان يسرى قد وصل الى داره ، فتح الباب ، واحتوته جدرانها العتيقة ، وفاجأته وحدته المبـاغتة ، لم يكن يهتم في الأيام السابقة بوجوده وحيـــدا في هذه الدار ، ولكنه هذه المرة يحس بمشاعر لم يكن يعرفها ، فتح باب الحجرة الوسطانية ، فوجد السرير لم يذل مفكوكا وأخشابه مركونة فى ناحية ، والبلاط لم يزل مبلولا بماء الغسل ، والكنبة مشبوحة على جنبها ، وفرشـتها مكومة فوقها ، وعلى النملية طويت المرتبة والوسائد « من ســـيعيد كل هذه الاشـــياء الى وضعها ؟ »

وفزع من دخول الحجرة ، فعاد بظهره ، هل يخــرج ليجلس على المقهى ؟

فتح الباب الكبير ، فانتبه لصمت الشــــارع ، الطـاحونة مغلقة الأبواب ، وهدير وابورها سقط فى العدم ، هل يستدعى أحدا ليقضى

معه الوقت حتى يحين موعد المضيفة ؟ وماذا يفعل مع الليل الطويل ؟ بل الليالى الطويلة المقبلة ؟

انه مرهق جدا وبحاجة شديدة للنوم ، واغلق الباب ، وعاد بظهره ليدخل حجرته بآخر الدار : وتمدد بملابسه فوق السرير ساندا ظهره الى الوسائد عاقدا ذراعيه من خلف « هل سيحضر كمال ؟. أصرت الخالة على ارسال البرقية ، ولا ادرى لماذا فعلت ذلك ؟ سيأتى اكيد ، فقد حان وقت المطالبة بحقه .. نجوم السماء اقرب له » .

« ليتك يا حسين كنت فاتحتها فى الموضوع من زمن ؛ كنا وجدنا الفرصة للتسجيل ، ولم تكن حصيلتنا من الدنيا هذه الأوراق التى لا فائدة منها . . كتبت بعد فوات الاوان ، لم أجرؤ أبدا على الضغط عليها لتصحبنى الى الشهر العقارى .. كانت المسكينة قد سقطت تماما ، ولم تسعفها صحتها لتقضى هذا المشوار ، ومن الظلم اجبارها على ذلك ، كنت أؤمل نفسى بأنها ستشفى يوما ما وتتمكن من الذهاب معى ، ولكن الأجل كان أسرع » .

« ألم يكن من الواجب يا خالة البقاء فى هذه الدار ، ولو ليومين تؤنسى وحشتى ؟ عندك حق .. امتلأت الدار بالاشباح .. فكم شبح سأواجهه فى أيامى المقبلة ؟ » .

وكانت الظلمة الشفيفة للحجرة ، والسكون العميق فى المكان ، وحاجة جسمه المجهد للراحة قد جلب الغفوة التى جاءت اليه حانية ولطيفة فكر فى القيام ليرص كرسى الدخان ليمنحه مزيدا من الخدر ، ولكنه استجاب للغفوة التى سرت فى دمه الهادىء ، فسقط فى حضنها مستسلما .

هــذه الـروايــة



يوسف أبورية

- من مواليد ههيا بمحافظة الشرقية عام ١٩٥٥ .
- صدرت له مجموعتان قصصيتان : « الضحى العالى » .. ١٩٨٥ و "عكس الريح" ١٩٨٧
- يعد من ابرز كتاب الجيل الجديد من كتاب الرواية . والقصة القصيرة فى مصر ..
- قال عنه النقاد انه يتمتع بعين الطفل الراصدة فهو يتتبع الحلم باصرار وايجابية ويرصد العلاقات الانسانية بروابطها وتفسخها التى تتخلف من عناصرها عوالم بديلة ، ولكنها بعيدة .

هذه رواية من وجداننا الحى

فهى أول رواية عربية حول المدن الصغيرة التى تعيش على هامش المدن الكبرى بشكلها التقليدى مع عناصر الريف الراسخة ..

ولذا فان رواية "عطش الصبار" هى أحدى الروايات التى قال عنها كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، ضمن ماقاله عن مؤلفها وأقرانه "احب أن أوضح أننى لا أستطيع أن اكتب عن الريف بمثل هذه الكتابة الفاتنة . فقد خلقوا فى أعمالهم الابداعية ريفاً بزمانه ومكانه . وبشخصياته ولغته ايضا" .

لذا فنحن أمام كاتب صارخ ، يريد أن يقول كلاما كثيراً فى نطاق ضيق . يحاول أحيانا تحدى الممنوعات . واحيانا يتحدى الواقعين الاجتماعى والسياسى .

وتتطابق هذه الرواية مع ما يحكيه مؤلفها ، كأنها حدث محكي [illegible] بلاغته هى التطابق البسيط [illegible] بكل طبقاتها ..

عطش الصبار ..

نبضة حية جديدة فى [illegible] العطاء الابداعى المعاصر [illegible] نموذج ادبى يجب الوقوف عنده



Rewayat Al-Hilal
No. 484 April 1989

مؤسسة دار الهلال
١٥٠